نبيُّ اللَّه إبراهيم عليه السلام

قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ١٤]. إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء، امتدحه اللَّه تعالى فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]. ومعنى: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ قالوا: إنه لا يوجد فرد يحتوى على خصال الكمال ومواهب الفضل كلها؛ لأن مواهب الفضل وخصال الكمال أكبر من أن يحتويها فرد، لكن المجموع يحتويها، فهذا شجاع وقوى البنية، وهذا ذكى وهذا نظره قوى، وهذا سمعه مرهف، وهذا قوى الذاكرة، وهذه كلها وغيرها مواهب متفرقة، ولا يستطيع فرد أن يجمع كل هذه المواهب فكل فرد يمكن أن تكون فيه لمسة موهبة، وكذلك كل كمال موزع فى خلق كثيرين، إلا إبراهيم عليه السلام فقد كان وحده أمة.

فكأنه أخذ المواهب والكمالات الموجودة فى أمة كاملة.

وكلمة: «صديق» من مادة صدق، وصدق معناها: تكلم بواقع، وكذب معناها: تكلم بغير واقع، والذى صدق يسمى صادقا أى يتكلم كلامًا له واقع ويوافق الواقع.

والصدِّيق هو الذى بلغ الغاية فى تصديق ما يأتى من الحق، فهو يأخذ أمر اللَّه تعالى دون مناقشة.

وهناك فرق بين الصدِّيق والنبى. فالصدِّيقية هذه ذاتية عنده وإشراقية من اللَّه تعالى فيه، أما النبى الرسول فجاءه تشريع من عند اللَّه، فقد يكون الإنسان صديقًا ولكن ليس عنده تشريع يقوله لنفسه، ولكن النبىّ الرسول يأتيه تشريع وهدى من اللَّه تعالى، ولذلك حينما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم] لم يقل هذا الكلام بوصفه صديقًا، ولكن قاله بوصفه نبيًا ورسولا جاء ليعدِّل سلوك الناس واتجاهاتهم بما أوحاه اللَّه تعالى له.

وكلمة ﴿لِأَبِيهِ﴾ لم يذكر القرآن اسم العلم المشخص لوالد إبراهيم عليه السلام، فالأب هنا وصف ولكن اسمه لا نعرفه.

وإذا استعرضنا نصوص القرآن الكريم نجد أنه جاء بنصين: نص يسرد الآباء المباشرين «الابن عن الأب عن الجد عن أبِ الجد» وذكر آية أخرى مخالفة فجاء بالأعمام وأدخلهم فى الآباء، ففى سورة يوسف مثلا قال لصاحبيه فى السجن: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف].

فهنا كلمة آبائى فى قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾، فهى جمع أب وهؤلاء الآباء هم: إبراهيم، ثم ابنه إسحاق، ثم ابنه يعقوب. فالآباء جمع أب، فذكر القرآن الآباء وعدد الآباء المباشرين فيوسف بن يعقوب، ويعقوب بن إسحاق، وإسحاق ابن إبراهيم عليهم جميعاً صلوات اللّه وسلامه.

والآية الأخرى هى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وإذا كان إبراهيم هو جد يعقوب وإسحاق والده، فما دخل إسماعيل هنا؟ هو عم يعقوب فاعتبر العم أبًا.

إذن.. فالقرآن اعتبر العم أبًا، فلو قال الحق فى كل آيات القرآن بالنسبة لإبراهيم كلمة ﴿لِأَبِيهِ﴾ كان الأمر سينصرف لأبيه الحقيقى، إنما ذكر فى مرة واحدة أن أباه آزر، ولا يؤتى بالعلم بعد الأبوة إلا إذا كان يقصد به العم.

❁❁❁

ملة إبراهيم عليه السلام

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم]. والصراط السوى هو الطريق الذى يصل إلى الغاية بأقل مجهود وأقصر وقت، وكلمة: ﴿تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾. فالشيطان يسمع ويبصر، وإبراهيم سبق أن قال لعمه: لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر؟ وهذا يسمع ويبصر، قالوا: لأن الشيطان هو الذى يسوِّل للإنسان أن يعبد الصنم فالمسألة كلها مردها للشيطان، ولكن إبراهيم حلل المسألة المباشرة، فعمه

obeikandl.com

يعبد صنمًا لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى شيئًا، وهذا بشهادة عُبَّاد الأصنام أنفسهم قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء] هذا استفهام، ولا يستفهم مجادل من يجادله عن شيء إلا وقد علم أن الجواب لابد أن يكون فى صفه؛ لأنه ائتمنه على الجواب. ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]. إذن.. العبادة لغير اللَّه تعالى مردها إلى إغواء الشيطان الذى يجعل الإنسان يعبد صنمًا أو وثنًا أو شمسًا أو شجرة أو غير ذلك. ومعنى: ﴿عَصِيًّا﴾: أى يعصى أوامر اللَّه بِلَدَد، ثم قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ المس: هو الالتصاق الخفيف. ولم يقل له يصيبك العذاب ولكن تلطف معه وقال: يمسك. مثلما تقول لإنسان عزيز عليك أنا أخاف عليك من نسمة الهواء، ومعنى أخاف تفيد أن أمرك يهمنى فأخاف عليك أن يصيبك مكروه، والولى هو التابع والقريب، فولى الشيطان تابعه والقريب منه، ومثلما يعذب معه، أخشى عليك أن تعذب مثله. انظر إلى منطق الداعى كيف رتب الأمور هذا الترتيب الذى لا يثقل على أذن المجادل، لكن المجادل له لدد، ولذلك مطلوب منك حينما تجادل أحدًا، أن تجادله بالتى هى أحسن، لأنك تجادله لتخرجه عن الفساد الذى هو فيه، وما دام عن فساد فهو اشتهى الفساد أولا ثم اعتاد الفساد بالفعل ثانيًا، فاشتهاه واعتاده فأصبح متمكنًا منه وعزيزًا عليه، فحين تأتى لتخرجه من الفساد لا تخرجه بقسوة، ولكن لابد أن تحتال عليه وتتلطّف معه وتترفق به ،لأنك إذا نهرته فستجعله يعرض عنك، وإذا أعرض عنك فلن يسمع لنصحك، وإذا لم يستمع للنصح سيظل على فساده.

بعد ذلك يأتى رد آزر على إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] كلمة: ﴿أَرَاغِبٌ﴾ يختلف معناها إلى المقابل بحرف الجر الذى يأتى بعدها تقول: رغِب فى كذا أى أحبه، ورغَب عن كذا أى كرهه واعتزله، مع أن المادة اللغوية واحدة هنا يقول: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ والمعنى هل تريد آلهة غيرها يا إبراهيم؟ وهناك آية تقول: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] فرغب عنه أى تركه وذهب إلى غيره، ورغب فيه أحبه. إذن أنت راغب فى كذا ولكنك لم تأخذ الوسيلة إليه، فالرغبة فى الشيء لا تفيد إلا إذا رغبت فى الطريق الموصل إليه من الخير.

وهناك فى اللغة رغب عنه، ورغب فيه، ورغب إليه. فالذى يرغب فى حب اللَّه يرغب فى الطريق الموصل إلى اللَّه.

وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أى إن لم تنته عن موقفك هذا من آلهتنا سأرجمنك، والرجم: هو الضرب بالحجارة.

وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ أى: ابتعد عنى، وكلمة: ﴿مَلِيًّا﴾ الملىّ، هى البرهة الطويلة من الزمن، وهى من الملاوة التى هى الفترة الطويلة من الزمن ومنها سمى الليل والنهار الملوان. ولكن ماذا قال إبراهيم ردًّا على هذا الكلام القاسى؟

إنه لم يخرج عن سمته العادل فى عرض دعواه وأدبه مع عمه، ولذلك رد عليه قائلا: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] فكأنه أراد أن يؤكد كلامه الذى قاله له سابقًا لأنه ينبه أنه يقول: وإن لم يستغفر له سيكون مصيره مؤلمًا فذكّره باللّه تعالى وأنه سيستغفر اللّه له لأنه لا يرضى له بهذا المصير. وظل يستغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. فمعنى كان اللّه تعالى به ﴿حَفِيًّا﴾: أى يزيد فى إكرامه إكرامًا يحقق سعادته، ومن سعادته أن يغفر اللّه لعمه الذنب الذى عمله.

فهو هنا يضخم شيئين: يضخم الذنب الذى فعله عمه، ويعظم الرب الذى سيستغفر لعمه عنده، وما دام ربى ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ سيكرمنى، ودليل إكرامه لى أنه جعلنى نبيًا، وهو فى كل ذلك يؤكد معنى الصدق فى كلامه فيقول له: اسمع كلامى لأننى ذو مكانة عند ربى.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨] كلمة: «اعتزال» معناها ترك صحبة إلى خير منها ولو كان ذلك فى اعتقاده هو.

إذن.. فالاعتزال أمر مطلوب إن وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل من الحق حتى لا نؤصل الجدل، ولذلك قال الخليل عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] فالمسألة مبدأ إيمانى.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم] فالقرآن ذكر إسحاق ويعقوب ولم يذكر إسماعيل، فكأن الحق سبحانه يتكلم عن إسحاق ويعقوب اللذين منحهما اللّه لإبراهيم جزاء صبره ونجاحه فى ابتلاء الرؤيا وذبح إسماعيل. ورد ذلك فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فحينما

صبر إبراهيم عليه السلام، على الابتلاء فى ذبح ابنه إسماعيل، وصدق الرؤيا وأطاع هو وابنه أمر اللَّه تعالى، فَدَى اللَّهُ له إسماعيلَ وبشّره بإسحاق أيضًا، وإسحاق سيكون من ذريته يعقوب فبشره اللَّه تعالى به أيضًا وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢] لأن إسحاق هو الابن الثانى لإبراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق، وحفيد إبراهيم.

فكأن الحفيد نافلة فى عطاء الذرية، وقوله: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] تفيد أن الامتنان هنا ليس لأن إسحاق ولد أو يعقوب ولد، ولكن الامتنان بأنهما سيكونان نبيين، فبشر إبراهيم بأنهما سيكونان نبيين؛ لأن هذا هو حظ إبراهيم أن يرى الدعوة حيًا، ويريد أن تنشأ ذريته على هذه الحال امتدادًا للدعوة إلى دين اللَّه تعالى، ليس من أجل الكثرة والعزوة، ولكن للقيام على أمر الدعوة واستمرار منهج الحق، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] أى أن اللَّه تعالى اختبره بتشريعات فأتمها على وجهها الصحيح، فلما أتمها علم اللَّه تعالى شدة حبه للتكليف؛ لأنه أتمها على الوجه الأكمل. فكان جزاؤه أن اللَّه تعالى جعله للناس إمامًا.

ولكن رغبة إبراهيم فى امتداد هذا الشرف فى الذرية جعلته يطلبها لذريته أيضًا، أى أنه يريد أن يكون من ذريته أئمة، فوضع اللَّه تعالى مبدأ هو: أن النبوة باختيار اللَّه تعالى واصطفاؤه سبحانه لمن يشاء من خلقه.

ولما كان تبارك وتعالى يعلم أزلاً بعصيان الكثير من الذرية فقال لخليله عليه السلام: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

❁❁❁

إبراهيم عليه السلام.. وأسرار الملكوت

قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وإذا سمعت كلمة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ فاعلم أن الحق يريد أن يلفتنا إلى أنه كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين. فإن اللَّه سيكرمه ما دام قد ارتبط بالإله الحق، وسيريه أسرارًا فى الكون.

وقوله: ﴿مَلَكُوتَ﴾: من صيغ المبالغة، فهناك رحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت؛ وعندما تضاف التاء تدل على المبالغة. والذى يتبع الأسباب المشهودة فى الكون، أن المُلك هو ما تحسه وتشهده أمامك، أما الملكوت فهو ما وراء هذا

المُلك، ولذلك نلاحظ أن إبراهيم عليه السلام عندما تحدث عن الأصنام التى يعبدها قومه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء] ولابد أن نلاحظ الأساليب المختلفة التى جاء عليها قول إبراهيم لقد قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾. ولم يقل الذى هو خلقنى؛ لأن الخلق قضية محسومة للّه سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن يدعيها. وهى قضية مسلَّم بها لا تحتاج إلى تأكيد.

ولكن فى قوله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾. استخدم «هو» للتأكيد؛ حتى لا يدعى أحد من البشر كذبًا أنه جاء بمنهج هداية للناس، فاستخدام كلمة ﴿فَهُوَ﴾ تأكيد بأن اللّه سبحانه وتعالى بيده وحده الهداية. وإذا جاء قول الحق: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾. نجد أن هناك عودة لاستخدام كلمة «هو»؛ لأن هناك أسبابًا وضعها الحق جعلت للإنسان عملا فى الطعام والشراب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ لأن الموت والحياة بيد اللّه تعالى وحده لا ينازعه فيهما أحد. ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٢٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] كأن اللّه قد ائتمنه على الدين فجعله إمامًا للناس. حينما سمع إبراهيم ذلك قال ببشريته ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] أى يا رب اجعل من ذريتى أئمة وحينئذ أراد اللّه تعالى أن يلفته إلى الملك والملكوت فلا يتحدث بظواهر الأمور فقال الحق سبحانه ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ونلاحظ فى الآية الكريمة أن اللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل:

يقين بعلم من تثق فيه، ويقين بعين ما تخبر به، ثم يقين بحقيقة ما تخبر به.

فاليقين هنا بمراحله الثلاث قد دخل نفس إبراهيم ورسخ فيها.

وتمضى الآيات تقول: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ﴾ [الأنعام: ٧٦] كلمة ﴿جَنَّ﴾ تفيد الستر والتغطية، ولذلك فإن الجنون ستر للعقل، ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ بمعنى أظلم وستر ما حولك، فغيرك لا يراك وأنت لا ترى غيرك. والجنة سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها أشجارًا تستر من يمشى فيها، أما كلمة ﴿كَوْكَبًا ۖ﴾ فمعناها أنه يأخذ ضوءه من مصدر آخر، ولقد أتى اللّه تعالى بهذا المثل؛ لأنهم فى وقت إبراهيم

عليه السلام كانوا يعبدون القمر والنجوم والشمس والأصنام. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام] هنا وقف العلماء عند هذه الآيات وتساءلوا: كيف يجرى إبراهيم على لسانه لفظ الشرك؟ وبدأ العلماء يبررون ويفسرون هذا، ونحن نقول لهم: إن الذى قال عن إبراهيم إنه قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ هو الذى قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧] وهو الذى قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] إذن.. فمقولة إبراهيم هذه لا تخدش وفاءه الإيمانى، ولكن لابد أن لها معنى آخر، ذلك أن القوم كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد العقيدة ولكن يلفتهم بأدب النبوة، وليس بالشتائم ولا بالسب، ولذلك فإن هذا الأسلوب يقتضى أن يذكر الشىء وفيه نقص والناس لا تلتفت إليه ولكن سياق الحركة يدل عليه.

فكأن إبراهيم حين يقول هذا ربى يبدى استنكاره أن يكون هذا الكوكب إلهًا، وهو يتهكم على الذين يعبدونه. والدليل على ذلك هو سياق الحوار حين يقول: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ وأفول النجم والقمر وغروب الشمس، أمور قد شهدها إبراهيم قبل ذلك مئات المرات، فلا يمكن أن يكون قد فوجىء بأن النجم قد أفل، أو أن الشمس قد غابت ولكنه كان يعلم ذلك جيدًا.

على أننا لا بد أن نلاحظ ملاحظة هامة فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] المنطق اللغوى كان لابد أن يقول: «هذه» لأن الشمس مؤنث، يمكن أن يكون السياق هنا على أساس قوله هذا عن الكوكب وعن القمر، فحُمل الأمر على السياق أو الحال، ويمكن أن يكون لأن الشمس ضياء، ويكون المعنى هذا الضياء. واللّه سبحانه وتعالى أراد أن ينزه كلمة الرب أن تلحق بها علامة التأنيث؛ لأن التأنيث فرع للتذكير ويمكن أيضًا أن نقول إن الشمس مؤنث مجازى.

والعلماء يفطنون إلى هذه المسألة فى كل الصفات التى تتحدث عن الحق سبحانه وتعالى ،فأنت إذا أعطيت أحدًا صفة العلم تقول فلان عالم، وإذا أردت أن تعطيه صفة أكبر فى العلم تقول عليم، ولذلك يقول الحق: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فإذا أردت أن تعطيه وصفًا أكبر - وصف المبالغة - تقول علامة، ولكن عندما يتحدث اللّه تعالى عن نفسه يقول: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] ووصف الحق بأنه علام لئلا تلحق به تاء التأنيث ولو كانت للمبالغة.

وينهى إبراهيم قوله لقومه بعد أن رأى النجوم والقمر والشمس تغيب أو تأفل ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨] فلماذا قال إبراهيم إنى برىء مما تشركون؟ ولم يقل لهم كونوا جميعاً برآء مما تشركون لأن طبيعة المنذر أو المبشر أو المبلغ أو الرسول أن يحمل نفسه أولا على الأمر قبل أن يحمل مخاطبيه، وألا يأمرهم بأمر يخالفه هو؛ ذلك لأن الإنسان إذا غش الناس فإنه لا يغش نفسه.

والبراءة من الشرك هى التخلى عن المفسد، أو الانقطاع عن العمل المفسد والدخول فى العمل الصالح، أما قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗا﴾ [الأنعام: ٧٩] فمعنى ذلك أننى توجهت للّه الإله الحقيقى لهذا الكون الذى خلق السمٰوات والأرض. ولكن لماذا استخدم إبراهيم عليه السلام السمٰوات والأرض كمظهر للكون؟ ولم يقل مثلا إنى توجهت للذى خلق النجوم والكواكب والشمس والقمر.

أولاً: لأن هذا التعبير أعم.

وثانيًا: لأنه ظاهر للناس جميعًا لا يحتاج إلى دليل.

وثالثًا: لأنه لا أحد من البشر منذ بدء الخليقة حتى الآن زعم أنه هو الذى خلق السمٰوات والأرض.

ورابعًا: لأن خلق السمٰوات والأرض يشعر بالقدرة الخارقة للإله الذى خلق هذا كله، وفى هذا يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٧٥].

وحين أعلن إبراهيم عليه السلام وبين للناس أن ما يعبدون هو مجرد إفك، وأن ما اتخذوه آلهة لا ينفع ولا يضر ولا يخلق شيئًا؛ بل هو مخلوق أوَمما صنعته أيديهم هل اقتنع القوم بذلك؟ لا، بل أخذتهم العزة بالإثم. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] هنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قوم إبراهيم مصرون على الضلال، ولذلك فقد بدأوا يجادلونه فى نقاش ،كل واحد يدلى بكلامه ليحاول أن يُبطل كلام الآخر، وهم هنا يجادلون إبراهيم فى اللّه جل جلاله، وكأنه قد عز عليهم أن يعلن إبراهيم أنه توجه إلى اللّه الذى فطر السمٰوات والأرض، أى يريدون أن يصرفوا إبراهيم عن دينه الحنيف.

ما هى حجتهم؟ وهل يملكون حجة؟ بالطبع لا، إذن.. فكيف يواجهون

obeikandl.com

إبراهيم وماذا يقولون؟ إنهم لا يستخدمون الحجة والمنطق؛ بل يستخدمون الخرافة، ولذلك فإن الجدل هنا يقوم على أساس التخويف أى يقولون لإبراهيم لو كفرت بآلهتنا فإنك ستتعرض لانتقامها وستفعل بك هذه الآلهة كذا وكذا، وسيحل بك غضبها وسخطها فتمرض ولا تشفى، أو تجوع ولا تجد طعامًا أو تسلبك الحياة.

هذه هى الحجة التى يقولها من لا حجة له، وما دام قد جاءت كلمة الخوف ونفاها إبراهيم عليه السلام عن نفسه فكأنه حدث تهديد وقالوا له: إن آلهتنا لن تتركك. حتى يخوفوه ليترك عبادة اللّه، إنهم ينذرونه بأشد العواقب. وهنا يرد إبراهيم عليهم بالحجة ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾. أى أن هذه الكواكب والأصنام والشمس والقمر لا تنفع ولا تضر ولا تخيف أحدًا؛ ذلك أن إبراهيم يقول للكفار إنه قد يحدث الضر لى، ولكن الضر هنا لا يأتى من آلهتكم التى تحاولون إخافتى منها؛ لأن النافع والضار هو اللّه تعالى. فإن أصابنى الضر فهذه مشيئة اللّه تعالى وليست مشيئة أحد غيره.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ كلمة ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة، ولكن إقبال النفس على الشهوات هو الذى يحاول أن يغطى هذه الفطرة فليس مطلوبًا من الإنسان أن ينشىء فكرة عقائدية، ولكن المطلوب منه فى قضايا الإيمان أن يتذكر فقط.

ثم يمضى إبراهيم عليه السلام فى حجته: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] وهنا يعطى اللّه تعالى إبراهيم عليه السلام الحجة على الكفار فيقول لهم: أنتم عبدتم ما لا يضر ولا ينفع، وأنا آمنت بمن يضر وينفع. فمن منا الذى يجب عليه أن يخاف؟ الذى أشرك بالضار النافع أم الذى آمن به؟

إذن.. يريد اللّه سبحانه وتعالى أن يجذبهم إلى الإيمان دون أن يهيج فيهم الذاتية التى قد تجعلهم يمتنعون مع اقتناعهم.

❁❁❁

الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ

﴿ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وساعة تسمع ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيجب أن تعلم أنها مكونة من ثلاثة هى: الهمزة «أ» وحرف نفى هو «لم» وفعل منفى هو «ترَ». والهمزة تأتى هنا لشىء اسمه الإنكار، والإنكار نفى بتقريع، كأن تقول للابن على سبيل المثال: أتضرب أباك؟!. إن الهمزة هنا جاءت لا لتستفهم وإنما لتنكر الفعل المثبت بعدها. وما دام الإنكار نفيًا وقد دخلت الهمزة على فعل منفى فهى «نفى النفي» ونفى النفى إثبات.

إذن.. فقول الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يكون المقصود به ـ أنت رأيت. وقد يسأل سائل: ولماذا لم يقل الحق «أرأيت»؟ والرد على مثل هذا السائل هو: إن الحق سبحانه وتعالى أورد هذا المعنى بأسلوب نفى النفى من أجل أن يكون أثر المعنى أوقع فى نفس السامع؛ لأن مجىء الإثبات فقط قد يعطى أثر التلقين.

وعندما يقول الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾. فالمخاطب الأول بالقرآن الكريم هو الرسول ﷺ، فهل رأى الرسول الكريم حادث الرجل الذى حاج إبراهيم فى ربه؟ طبعًا لا فكأن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا تأتى بمعنى «ألم تعلم»، وقد يقول قائل: ولماذا لم يقل اللّه: «ألم تعلم»؟ والرد على مثل هذا القول: إن اللّه تعالى يخبرنا بخبر، وعلينا كمؤمنين أن نصدق الخبر كأننا رأيناه بعيوننا.. لماذا؟ لأن العين وهى حاسة قد تخدع، ولكن ربك لا يخدع أبدًا. إذن.. فمجىء ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا تكون بمعنى «ألم تعلم علم اليقين بأن هناك رجلا قد حاج إبراهيم فى ربه؟».

واستعمال حرف ﴿إِلَى﴾ هنا يشير إلى أمر عجيب قد حدث.

وعندما ننظر إلى كلمة: ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾. فإننا نجد أن كلمة: ﴿حَآجَّ﴾ أصلها «حاجج» مثلما نقول: «قاتل» و «شارك». وفى اللغة العربية عندما يكون فى الكلمة حرفان متماثلان نقوم بتسكين الأول وندغم الثانى فيه. ومثال ذلك «حاجج» فننطقها «حاج» وهى من مادة «فاعل» وتأتى للمشاركة. وما معنى المشاركة فى اللغة؟ إنها مثلما نقول: «قاتل زيد عمرًا» والمعنى هنا يتسع لأن يكون عمرو قد قاتل زيدًا.. لماذا؟ لأن كليهما قد تقاتلا، وكليهما من حيث المعنى فاعل ومفعول به فى نفس الوقت. لكننا نغلب الفاعل فى جانب ونغلب المفعول فى جانب آخر. وعادة ما نغلب الفاعلية فيمن بدأ بالفعل ونغلب المفعولية فى الثانى.

وفى قول الحق سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ نحن نلاحظ أن كلمة: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ فى الآية الكريمة منصوبة بالفتح، أى يغلب عليها المفعولية فمن إذن الذى حاج إبراهيم؟ إنه شخص ما، وهو الفاعل؛ لأنه الذى بدأ بالمحاجَّة،

هكذا تدلنا الآية الكريمة وتصف الآية ذلك الرجل: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أى أن الرجل قد وهبه اللَّه الملك وحاج هذا الرجل إبراهيم فى ربه، فكان جواب إبراهيم على هذه المحاجَّة ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ومن هذا الجواب نفهم أن الرجل قد حاج إبراهيم بأن سأله: من ربك؟ ومن اعجاز القرآن الكريم أنه يترك للسامع فى أن يرد كل شىء إلى أصله؛ لذلك لم يورد الحق سؤال الرجل الذى حاج إبراهيم إنما أورد جواب إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

فكيف أعان اللَّه تعالى إبراهيم على هذا الرجل؟ إن الرجل الذى آتاه اللَّه الملك يدخل مع إبراهيم عليه السلام فى محاجة بهدف السفسطة أى إطالة الجدل، فألهم اللَّه تعالى إبراهيم أن يقول هذا القول الحكيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ لماذا جاء إبراهيم عليه السلام بهذه الحجة؟ لأن أحدًا لم يجرؤ أن يدعى القدرة على الإحياء والإماتة، إلا أن الخصم الذى حاج إبراهيم يريد ألا ينهى الجدل فقال الرجل ناقلا المحاجَّة إلى لون من السفسطة: أنا أُحيى وأُميت، فسأله إبراهيم عليه السلام: كيف تحيى وتميت؟!، فقال الرجل: إن عندى من المسجونين عددًا واستطيع أن أقتل منهم من أشاء، وأن أمتنع عن قتل من أشاء، فمن لم أقتله كأنى أحييته، ومن قتلته فأنا أمته. لم يقل له إبراهيم عليه السلام: لنتفق أولا ما الحياة؟ وما الموت؟ ذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يرد أن يطيل هذه المجادلة، إنما أراد أن يأتى بالحجة التى تسقط للرجل كل ما يحاجج به.. فجادله بما يلْجمه. لقد كان من الممكن أن يدخل إبراهيم مع الرجل فى جدل، فيقول إبراهيم عليه السلام للرجل: ما الحياة؟ ولم يكن قادرًا على أن يجيب بأن الحياة بالنسبة للإنسان هى إعطاء المادة ما يجعلها متحركة حساسة مريدة مختارة. إذا سأل إبراهيم الرجل: ما الموت؟ فما كان الرجل بقادر على التفرقة بين الموت وبين القتل. فالرجل قد ظن أن الموت إخراج الروح من الجسد بجرح أو بنقض بنية بأن يهشم لإنسانٍ ما رأسه، إن هذا هو القتل وليس هو الموت؛ لأن الموت هو إخراج الروح من البدن بدون جرح أو نقض بنية أو أى عمل فى بدن الإنسان، ولا يقدر على ذلك إلا واهب الحياة الحق بأن يقول بقدرته للإنسان مت فيموت.

انتقل خليل الرحمٰن بالحوار إلى أمر مشهود فماذا قال؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] حينئذ واجه الذى حاج إبراهيم فى ربه أمرًا لا قبل له به. لقد بُهت الذى كفر ولم يجرؤ على الرد على مقولة إبراهيم عليه السلام، بأن اللَّه تعالى يأتى بالشمس من المشرق

فأتِ بها من المغرب. إنه يكون غاية فى الذكاء؛ لأنه إذا كان قد علم أن اللَّه يساند إبراهيم عليه السلام، لذلك لم يقل: ما دام اللَّه يأتى بالشمس من المشرق فاجعله يأتى بها من المغرب، إنه فى هذه الحالة يعلم قدرة اللَّه وإن كان قد أنكرها وأعلن الكفر بها. وقد يكون هذا الذى حاج إبراهيم غبيًا، لذلك لم يُرد على إبراهيم ويقول: ما دام اللَّه يأتى بالشمس من المشرق فاجعله يأتى بها من المغرب، وهو فى هذه الحالة قد فقد القدرة على مراجعة إبراهيم.. لقد بُهت لأنه كفر.

والبُهت يأخذ ثلاث صور:

الدهشة أولا، ثم الحيرة ثانيًا، ثم الهزيمة ثالثًا. لقد انتقل الذى كفر من القدرة على المواجهة إلى مفاجأة الدهشة، هذه هى الصورة الأولى. ومن المفاجأة والدهشة انتقل إلى التحير؛ لأنه يبحث عن مخرج لنفسه فلم يجد مخرجًا من ورطته. وهكذا تلقى النتيجة وهى الهزيمة. ويلخص لنا الحق كل ذلك فى جملة واحدة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحدوث البهت لمن كفر أمر ليس بعجيب؛ لأنه بلا ولاية من اللَّه، إنما وليه الطاغوتُ.

❁❁❁

ابتلاء إبراهيم فى ولده

إبراهيم عليه السلام لم يبتل بالنار وحدها؛ بل ابتلى فى آخر أيامه بأن أمره اللَّه تعالى بذبح ولده الوحيد. والإنسان فى أول حياته تكون ذاتيته هى المسيطرة على نفسه ولكنه فى أواخر حياته تكون ذاتية أولاده فوق ذاتيته. فقد اقتربت حياته من النهاية ولذلك فهو يريد أن يعطى أولاده كل شىء، ويريد أن يحقق لهم مالم يحققه لنفسه، وهكذا عندما كبر إبراهيم وصار شيخًا جاءه الابتلاء الثانى بأن يذبح ولده.

وإبراهيم عليه السلام يعلم يقينًا أن الحق سبحانه لا يطلب من خلقه إلا الاستسلام لقضائه؛ ولذلك إذا رأيت إنسانًا طال عليه القضاء فى أى شىء فى مرض، فى مصيبة، فى مال، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له، ولوّأنه رضى لانتهى القضاء.

ولكن حب إبراهيم لابنه جعله لا يريد أن يجعل إسماعيل يمر بفترة سخط فلا يفوز برضا اللَّه، ولذلك لم يأخذه رغمًا عنه ويذبحه؛ لأن فى هذه الحالة قد يكون إسماعيل غير راضٍ، فيحرم من الجزاء على هذا الابتلاء. فيقول إبراهيم عليه السلام لولده: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ [الصافات: ١٠٢] فكان رد إسماعيل على ابيه عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ولم يقل يا أبت افعل ما تريد؛ حتى يأخذ الابن ثواب عبودية الطاعة، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] ناداه اللَّه تعالى: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات] إذن.. فعندما صدق إبراهيم الرؤيا نزل الذبح العظيم من السماء ليفتدى به إسماعيل؛ بل وأكثر من ذلك نزلت معه البشارة بأن إبراهيم سيرزق بولد آخر مصداقًا لقول الحق: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] هكذا لم تكن البشرى فقط من اللَّه بإنجاء إسماعيل من الذبح؛ بل كانت أيضًا بأن إبراهيم سيرزق بولد ثان، وهذا الولد سيكون نبيًا من الصالحين.

❁❁❁

البشرى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود: ٦٩]. وفي آية أخرى: ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ [هود: ٧٠] هذا معنى الوجدان، قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾، ﴿فَمَا لَبِثَ﴾. أى ما مرت فترة. بمجرد أن دخلوا وسلموا أحضر العجل، والعجل هو ولد البقرة، أى أحضر عجلا صغير السن، و﴿حَنِيذٖ﴾ معناها مشوى على الحجارة. فالشواء: يشوى مرة على اللَّهب ومرة يشوى على الفحم، ومرة يشوى على الحجر، بأن يُعرض الحجر للَّهب الشديد حتى يحمر ثم يشوى عليه العجل. هم يسمونه فى البلاد العربية بالسلاج، يأتون بحجر رقيق مثل الصاج، ويضعونه على النار حتى يُحمى، ويُصبح لونه أحمر من شدة الحرارة، ثم يلقون عليه اللحم. ذلك أن الحجر لا يتفاعل مع اللحم، ولكن الحديد واللَّهب والفحم تخرج منه تفاعلات. ولذلك فإن الشواء على الحجر هو أنظف أنواع الشواء، و ﴿حَنِيذٖ﴾ قد تَعنى كثرة الدهن يسيح فوق اللحم.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ تدلنا على أن الخليل إبراهيم، أنه كان يحب الضيوف. واليوم الذى كان لا يأتيه فيه ضيف يحزن، وساعة رأى وجوهًا جديدة قدمت عجَّل بالطعام، وهذا أيضًا يمثل الكرم؛ لأنه عندما يأتيك ضيف لم تعرف كم ساعة مضت عليه وهو لم يأكل، فتأتى له بالطعام بعد أن يدخل عندك، فإن كان جائعًا أكل، وإن كان شبعان لم يأكل. وعندما قدَّم إبراهيم لضيوفه العجل المشوى، لم يمدوا أيديهم للأكل. ويقول الحق

تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ وما داموا لم يمدوا أيديهم إما أنهم غير جائعين، وإما أنهم جاءوا يقصدون شرًا، فيرفضون ما يقدم إليهم.

ولذلك يقول الحق: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] ولكن هؤلاء كانوا من الملائكة، لم يمدوا أيديهم للأكل من العجل، والضيف إذا جاءك وقدمت له طعامك فأكل فقد أستأمنك على طعامه، أما إذا قدمت له الطعام ولم يأكل فإنه لا يستأمنك على طعامه أو جاء يقصد شرًا. فعندما لاحظ إبراهيم عليه السلام أنهم لا يأكلون خاف منهم. ولكن هذا الخوف ظل حبيسًا فى نفسه ولم يقم بأى فعل يظهر خوفه. ولكن الملائكة أحسوا بخوف إبراهيم، فأرادوا أن يطمئنوه بأنهم لم يأكلوا، ليس لأنهم جاءوا يقصدون الشر. ولكن لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون، جاءوا لينفذوا مهمة كلَّفهم اللَّه تعالى بها. فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. ولكنهم لم يقولوا: إنا رسل ربك. مثلما قالوا للوط عليه السلام. وعندما قالوا لإبراهيم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ فَهِم أنهم ملائكة، مع أنهم كانوا فى هيئة رجال. والملائكة يتشكلون بشكل الرجال، فجبريل عليه السلام جاء إلى رسول اللَّه ﷺ على هيئة رجل. والجن أيضًا لهم قدرة على التشكل، ولكن الجن إذا تشكل تحكمه الصورة التى تشكل بها. ولكن الملك لا تحكمه الصورة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] مادة النون والكاف والراء معناها أنه لم يعرفهم، وهناك نكر وأنكر، وتأتى بالاشتقاق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وفى آية أخرى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. الآية الأولى كشفت الانفعال النفسى، والآية الثانية أحضرت المعنى النزوعى، فلما: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ عرف إبراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة. وأنهم أرسلوا ليعذبوا قوم لوط خصوصًا أن امرأة إبراهيم كانت قد قالت له: ألا تضم ابن أخيك لوطًا إلى كنفك؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم اللَّه بالعذاب. ولذلك عندما سمعتها الملائكة سرت من فراستها فضحكت، وذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] هذه البشارة بينت لإبراهيم أنهم لم يأتوا لعذاب عنده، ولكنهم جاءوا لعذاب قوم يكرهونهم وهم قوم لوط. ولقد بشرت الملائكة امرأة إبراهيم بشىء كانت تتمناه وإن كان وقته قد فات؛ لأنها كانت قد تقدمت فى العمر، ولكنهم بشروها بأنها بعد هذا العمر

الطويل ستلد ابنًا، وأنها ستكون جدة وسيكون لها حفيد هو يعقوب. فاستقبلت البشارة بالدهشة، قالت كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢] ساعة تقول يا ويلتى فإنك تفهم أن الفاجعة صعبة عليها، كيف سيحدث لها أن تحمل وهى عجوز وزوجها شيخ كبير.

قولها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ أى إن مهمتى انتهت فى الحمل. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ يعنى زوجى شيخًا. ودقة التعبير أن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول. وكذلك الزوج يقوم بأمر الزوجة ولا يعوزها لأحد. والبعل: هو النخل الذى لا يحتاج إلى زارعه ليسقيه، وإنما يكتفى بما يمتصه من الأرض وما ينزل من مطر السماء.

قولها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ الشىء العجيب: هو الذى يقع على غير انتظار، ويخالف سنة من سنن الكون.

❁❁❁

هجرة إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة

لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل عليهم السلام وخرج بهما ليضعهما فى هذا المكان، فماذا قالت هاجر لزوجها: قالت: هل أنزلك الله هذا المنزل أم أنه من اختيارك؟ إنها تعرف أن مكونات الحياة هى الماء والهواء والقوت، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه. لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم: كيف تتركنا هنا؟ وهل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام: إنه توجيه من الله تعالى. حينئذٍ اطمأنت وقالت: والله لا يضيعنا أبدًا. إنه الإيمان العالى، لذلك لم تقلق هاجر؛ لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله تعالى به [(١)].

هكذا نرى الإيمان فى قمته، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: «لما كان إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله فأتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال إلى الله. قالت: رضيت بالله. . . .»

وفى لفظ آخر: «. . . . فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شئ، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها فقالت آلله أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت: إذن لا يضيعنا.

أخرجه البخارى [٣٣٦٣، ٣٣٦٤، ٣٣٦٥].

قلب لأم تترك الزوج يذهب بعيدًا عنها ويتركها هى وابنها الرضيع فى هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء، إنها لا تؤمن بإبراهيم، ولكنها تؤمن برب إبراهيم.

❁❁❁

البيت الحـرام

قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

من هذه الآية الكريمة نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت اللّه الحرام، وعندما نقرأ عن رفع قواعد البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام فيها، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]

هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودًا من قبل إبراهيم عليه السلام، وعندما ندقق النظر فى معنى كلمة: «بكة» التى وردت فى قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] ونحن نعرف أن هناك اسمًا لمكان البيت الحرام هو «بكة» وهناك اسما آخر هو مكة، وبعض العلماء يقول: إن «الميم» و «الباء» يتعاونان، ونلحظ ذلك فى الإنسان الأخنف أو المصاب بزكام أنه ينطق «الميم» كأنها «باء» و «الميم» و «الباء» حرفان قريبان من طريق النطق والألفاظ منها تأتى مع بعضها.

ولننظر إلى اشتقاق «مكة» واشتقاق «بكة»، إننا نقرأ «بك المكان» أى: ازدحم المكان، وهكذا نعرف أن قول الحق: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾. أى: أنه المكان الذى ازدحم، وهو مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود؛ لتحج بيت اللّه الحرام، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلطون بعضهم بالبعض أثناء الطواف. و «بكة» هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة. و «مكة» هى اسم مكان البيت الحرام، و «مكة» مأخوذة من «مك الفصيل الضرع» أى امتص كل ما فيه من لبن، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر، وما دام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبن، فمعنى هذا أنه جائع، وكما نعرف أن مكة ليس فيها مياه والناس تكاد أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها.

وقوله: ﴿مُبَارَكٗا﴾ مأخوذة من «الباء والراء والكاف» والمادة كلها تدور حول

شىء اسمه الثبات. و «الثبات» هل هو الثبات الجامد أو الثبات المعطى النامى الذى مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضًا؟، ونحن فى حياتنا العادية نقول: إن هذا المال فيه بركة مهما صرفت منه فإنه لا ينتهى. أى أنه ثابت لا يضيع ويعطى ولا ينفد. وكلمة «بِرْكَة» فى حياتنا تعنى أنها تجمعٌ من الماء نأخذ منه بعض الماء ولكن الماء يأتى إليها مرة أخرى وكلمة «تبارك اللَّه» تعنى «ثبت الحق» ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحد إنه الثبوت المطلق. وهكذا نجد أن الثبات فى معنى البيت الحرام، إن البيت الحرام مبارك، وإذا سأل أحد كيف؟ نرد على هذا القائل: أليست تضاعف فيه الحسنة؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه؟، وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تجبى إليه ثمرات كل شئ ولا تنقطع. فقد كان قاصد البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن، ويأخذ الإبرة والخيط، والملح، والآن فإن الزائر لبيت اللَّه الحرام يذهب ليأتى بكماليات الحياة من هناك.

وقوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ما هو الهدى؟ قلنا: إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية؛ ومن يزر البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فهل اهتدى للجنة أم لا؟ إنه يعرف بحج البيت الحرام الطريق إلى الجنة. وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن البيت، لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه مع، أن فيه آيات كثيرة قال الحق: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. [آل عمران: ٩٧] إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة فى قول الحق: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ وبينات هى وصف الجمع، وبعد ذلك قال الحق: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إن الحق لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات والمقام آية واحدة، وهكذا نجد أن ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تدل على الآيات البينات، وقد يقول قائل: أليس فى المقدور أن نضيف الأمان الممنوح لمن دخل البيت مع مقام إبراهيم؛ لتكون هذه هى الآيات الموجودة فى البيت الحرام؟ لكن الآيات فى البيت الحرام أكثر من هذا بكثير؛ بل إننا عندما نرى مقام إبراهيم نجد فيه الآيات البينات، ونحن نقرأ: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بفتح الميم الأولى فى كلمة «مقام» ولا ننطقها «مقام» بضم الميم الأولى؛ لأن «المُقام» بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم، أما «مَقام» بفتح الميم فهى مكان القيام.

لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام؟ لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام، وكان إبراهيم يقوم على «حجر» وعندما تنظر إلى ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فإنك تجد فيه كل الآيات الدينية لماذا؟ لأن اللَّه تعالى طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه

طول يديه وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب اللَّه تعالى، لكن إبراهيم عليه السلام تعود أن يؤدى كل تكليفات اللَّه تعالى بحب وإكمال وتمام، لذلك تساءل إبراهيم عليه السلام، ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى؟ ولم تكن هناك فى ذلك الزمن القديم فكرة «السقَّالات» ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا إسماعيل، وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرًا ووقف عليه، وعندما يأتى إبراهيم بحجر يضعه تحت قدميه ليقف عليه، فإنه يرفع القواعد قدر الحجر.

إذن.. فإبراهيم خليل الرحمٰن أراد أن ينفذ أمر اللَّه بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط، ولكن بقدر الاستطاعة والاحتيال، وهذا يوضح لنا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أى أنه أدى مطلوب اللَّه أداءً كاملا، ولا أدل على الأداء من أنه أتى بحجر منها ليقف عليه وليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر، نحن نعرف أن إسماعيل قد شارك فى رفع القواعد للبيت الحرام، وعندما ننظر إلى الحجر نجده لا يسع إلا وقوف إنسان واحد عليه. وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار.

أما مكان الأقدام الموجودة فى هذا الحجر فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرًا من المفروض أن يحمله اثنان كان لابد من ثبات القدمين فى مكان آمن، وكان إسماعيل يساعد فقط فى نقل الأحجار وكان إبراهيم هو الذى يحمل الحجر، وعندما يحمل إبراهيم وزنًا لا يحمله إلا اثنان ويقف ليرفعه فلعله خاف أن يقع من على الحجر، فهل يا ترى أن اللَّه سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة أن رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله - سأكفيك مئونة ذلك، وجعل قدميه تغوصان فى الحجر غوصًا يسندها إن هى زلت، والذى لا يتسع ذهنه إلى أن اللَّه تعالى ألان لإبراهيم الحجر، نقول له: إن إبراهيم قد احتال وخاف أن ينزلق أو تزل قدمه من على الحجر فنحت مكانًا فى الحجر على قدر قدمه، حتى يستطيع أن يحمل ويرفع الحجر الذى يحمله اثنان، وهذه آيات بينات.

❁❁❁

إبطال دعوى اليهود والنصارى فى إبراهيم

يقول الحق عز وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

إذن.. فإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديًا كما يدعى اليهود؛ لأن اليهودية جاءت من بعد إبراهيم؛ وكذلك النصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيًا؛ لأن النصرانية جاءت من بعد إبراهيم فلمَ المحاجة إذن؟

لقد أُنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم، فكيف يكون تابعًا للتوراة أو الإنجيل؟!

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. لم يكن إبراهيم يهوديًا؛ لأن اليهودية جاءت من بعده، ولم يكن إبراهيم نصرانيًا؛ لأن المسيحية جاءت من بعده ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾. أى أنه مائل عن طريق الاعوجاج.

قد يقول قائل: ولماذا لم يقل اللَّه تعالى إن إبراهيم كان على طريق الاستقامة بشكل مباشر؟ تكون الإجابة: حتى لا يضل أحد ويظن أن هذا اللون من الاستقامة مشابه لما كان موجودًا فى عصره. إنه مسلم، وكلمة مسلم تقتضى مُسَلَّمًا إليه وهو اللَّه تعالى. إنه أسلم زمامه إلى اللَّه، ومسلَّمًا: هو نحن، ومسلمًا فيه: وهو الإيمان بالمنهج، ولذلك نسمى شريعتنا المسلمة: الحنيفية السمحة، أى التى مالت عن زيغ. كما يقول الحق تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] وذلك يعنى أن نكون مائلين عن كل زيف أو زيغ.

إذن.. كان إبراهيم عليه السلام ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أى أنه كمسلم ألقى زمامه إلى مسلَّم إليه، فى كل ما ورد فى «افعل» و «لا تفعل».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. [آل عمران: ٩٥].

وكلمة «اتبعوا» توضح أن هناك مقدمًا كما أن هناك تابعًا، «والملة» تشمل المعتقدات والتشريعات العامة، ونحن نعرف أن الشريعة تشمل الأحكام والدين يوضح العقائد. والصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا، وإذا مال قال الحق سبحانه فلابد أن يوافق ذلك ما هو واقع، فليس من المعقول أن يتكلم اللَّه تعالى كلامًا يأتى على لسان رسول، وبعد ذلك يأتى واقع الحياة مخالفًا لهذا الكلام.

إن الحق العليم أزلا ينزل من الكلام ما هو فى صالح بقاء الدعوة؛ لذلك فحين يطلق اللَّه قضية من قضايا الإيمان، فإنه لابد أن نعلم أنها سوف تحدث على

وفق ما قال، حتى إذا كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على أن يصدق الإنسان أنها تحدث.

إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ومرهقين وإذا لم يكن لأحدٍ منهم عشيرة تحميه فهو يهاجر عن البلاد، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يعذب ويضطهد، وفى هذه الأثناء وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وعندما يسمع عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه هذا القول يتساءل: أى جمع هذا؟. إن الواقع لا يشجع على التصديق، وبعد ذلك جاءت بدر، وهزم المؤمنون الجَمْعَ.

❁❁❁

إبراهيم عليه السلام.. وإحياء الموتى

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. إبراهيم عليه السلام مؤمن بقدرة اللّه تعالى، لكنه يريد أن يعرف الكيفية. إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا؛ لأن رسول اللّه ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال»: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ﴾ ونحن المسلمين لم نشك فى هذا الأمر. إذن.. فإبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى. إن الرسول الكريم قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم [(١)]»، وإبراهيم عليه السلام لم يشك بدليل منطق الآية السابقة.

إن إبراهيم عليه السلام يسأل ربه: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ أى إنه يطلب الحال التى تقع عليها عملية الإحياء. إن إبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى القدرة على الإحياء، ولنضرب هذا المثل فى حياتنا. وللّه المثل الأعلى من قبل ومن بعد. والمثل لتقريب المسألة من العقول؛ لأن اللّه منزه عن أى تشبيه. إن أحدنا يقول للمهندس المعمارى: كيف بنيت هذا البيت؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى محدَث هو البيت وقد تم بناؤه. إن صاحب السؤال يريد أن يعرف الكيفية. ولنا أن نسأل: وهل معرفة الكيفية تدخل فى عقيدة الإيمان؟ إن الإجابة هى: أن معرفة الكيفية لا تدخل فى

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٤٥٣٧] ومسلم [١٥١/٢٣٨].

obeikandl.com

عقيدة الإيمان، إنها ترف زائد عن عقيدة الإيمان. إن عقيدة الإيمان هى أن يعلم المؤمن أن اللّه يحيى الموتى، أما كيف يحيى الموتى؟ فلا مدخل لها فى قضية الإيمان.

ولذلك نجد أن بعض السطحيين قالوا - والعياذ باللّه . عن إبراهيم قال: أرنى كيف تحيى الموتى، فقال اللّه له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ قال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ﴾ إن كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ حين نسمعها هى جواب بما بعد النفى. إنها جاءت هنا بمعنى محدد هو: بلى أنا مؤمن بقدرتك سبحانك على الإحياء والإماتة. وهذا هو القدر الكافى فى العقيدة الإيمانية.

هذا البعض من الناس قال: إذا كان إبراهيم مؤمنًا، والإيمان كما نعرف هو اطمئنان القلب إلى قضية ما، بحيث لا تطفو لتناقش من جديد، ولذلك نسمى هذا الأمر عقيدة، أى أمر معقود، فكيف يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؟ أليس هذا القول دليلا على أن قلبه لم يكن مطمئنًا؟ ومعنى عدم اطمئنان القلب هو خلو القلب من الإيمان. لكن الرد على مثل هذا القول: هو سؤال محدد: إلى أى شىء أراد إبراهيم أن يطمئن قلبه؟ إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يطمئن إلى الكيفية، ويطمئن إلى أنه أدار بفكره الكيفيات التى يكون عليها الإحياء. إنه لم يعرف على أى صورة يكون الإحياء. إن الاطمئنان هنا قادم لمراد فى كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتخيلة.

هنا قال الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إن الحق يعلم أن إبراهيم عليه السلام مؤمن تمام الإيمان ولكنه يسأل عن الكيفية، والكيفية لا يمكن أن يتم شرحها بكلام إنما يتم شرحها بعملية واقعية. إن الحق يأمر إبراهيم عليه السلام أن يأخذ أربعة من الطير الحى ويضمهن إلى صدره ليتأكد من ذوات الطير، حتى لا يقول إن الحق سبحانه ربما أحضر إليه طيرًا آخر.

وقال المفسرون: إن الأربعة من الطير لم تكن من نوع واحد ؛ بل مختلفة ففيها غراب وطاووس وديك وحمامة، وكل نوع له شكلية مخصوصة.

وأمر الحق سبحانه إبراهيم أن يجعل على كل جبل من هذه الطيور جزءًا، بعد أن يذبحهن ويقطعهن، ثم يوجه إلى هذه الطيور الدعوة، فتأتى الطير إلى إبراهيم عليه السلام سعيًا. هذه العملية.. هل قام بها إبراهيم أم لم يقم بها؟ هل اكتفى إبراهيم بما شرحه اللّه تعالى له بالكيفية؟ إن القرآن الكريم لم يتعرض لهذه المسألة، فإما أن يكون اللّه قد قال لإبراهيم عليه السلام الكيفية فقال إبراهيم عليه

السلام: بدلاً من أن أقوم بهذه العملية فأنا مصدق لقولك يا ربى سبحانك وتعاليت، وإما أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قام بهذه العملية. إن الأمر فى الحالتين جائز ؛ لأن القرآن الكريم لم يتعرض لذلك.

وعندما يقول الحق: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وقد يقول قائل: ألم يكن من المقرر أن يقول الحق «يأتينك طيرانًا»؛ لأن الحديث يدور حول الطير، والطيران من خصائصه وليس السعى. إن الحق أراد بذلك أن يوضح الأمر بصورة محددة ؛ لأن الطير جاء طيرانًا، فهو يطير فى الجو، وقد يقول إبراهيم، إن الطير قد اختلط على بعضه وجاء إليه، إنما المجىء للطير بالسعى هو إيضاح كامل. وذلك ليكون إبراهيم عليه السلام متأكدًا بالكيفية. فجاءت الطير من أنواع مختلفة، وهو الذى قام بذبحها وتقطيعها، وهو الذى وضع على كل جبل جزءًا، وهو الذى دعا الطير.

إذن.. إبراهيم عليه السلام مؤمن إيمان الاستدلال، والمطلوب له الكيفية ؛ لأنه يجهل الحالة التى تكون عليها كيفية الإحياء.

❁❁❁

واتخذ اللّه إبراهيم خليلاً

قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ما هى حيثيات الخلة؟ أن يتبع أفضل دين، وأن يسلم وجهه اللّه، وأن يكون محسنًا، ويتبع الملة، وأن يكون حنيفًا.. هذه هى حيثيات الخلة. وكان إبراهيم عليه السلام فيه كل هذه الصفات. فإبراهيم عليه السلام قد أسلم وجهه اللّه بدليل أن قومه عندما ألقوه فى النار وجاءه جبريل عليه السلام وقال له: ألك حاجة . أى ألك حاجة تطلبها. فقال إبراهيم: أما إليك فلا . أى أنه لا يطلب من جبريل بذاته شيئًا وفى ذلك قمة الإسلام للّه.

ونحن نعرف مدى أُنس الناس بأبنائهم، ونحن نعلم أن إبراهيم قد جاءه ولد فى آخر حياته، وقد ابتلاه اللّه فيه، وكان الابتلاء غاية فى الصعوبة بأن يذبح إبراهيم ابنه. إن الابن لا يموت ولا يقتله أحد، ولكن يقوم الأب بذبحه. ولنتأمل كم درجة من الابتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام؟ إن إسماعيل هو الابن الوحيد الذى جاء إلى أبيه على كبر. ويكون الابتلاء بالقتل على نوع مخصوص.. أن يقتله الأب. وسارع إبراهيم لتنفيذ أمر اللّه، ولذلك نقرأ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] ويجعل الحق ذلك

رؤيا فى المنام لا بالوحى المباشر. ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام، إنه لم يقل: افعل ما بدا لك يا أبى، ولكنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات] أى إن إسماعيل وإبراهيم استسلما معًا لأمر اللَّه. فماذا كانت النتيجة؟ قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات]. كان الفداء لإسماعيل، والبشارة بإسحاق، جزاء الصبر على الإبتلاء.

وقول الحق: ﴿خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] كلمة: «خليل» مأخوذة من «الخاء واللام» و «الخلُّ»: هو الطريق فى الرمل، وهو ما نسميه فى عرفنا «مِدقّ»، والمدق عادة يكون ضيقًا، وحينما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان الود بينهما عاليًا، وإذا لم يكن بينهما ود، فأحدهما يمشى فى الأمام والآخر يمشى فى الخلف. ولذلك سموا الاثنين اللذين يسيران متكاتفين «خليل». فكلاهما متخلل فى الآخر أى متداخل فيه. والخليل هو من يسد خلله آخر ويسد هو خلل صاحبه. والخليل هو الاتحاد فى الخلال والصفات والأخلاق. والخليل هو من يتخلل إليه الإنسان فى مساتره، ويتخلل هو أيضًا فى مساتر الإنسان.

وكلمة خليل هنا معناها: أن اللَّه سبحانه وتعالى اصطفاه اصطفاءً خاصًا، فالحب قد يشارك فيه، فهو قد يحب واحدًا وآخر وثالث ورابع. والحق سبحانه يحب كل المؤمنين. فالحق قد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٧٦]. والحق يقول: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] وهو سبحانه يُعلمنا: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وهو يُعلمنا: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨] والحق أيضًا يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] ولكن الحق اصطفى إبراهيم خليلا، أى لا مشاركة لأحد فى مكانته. فالحب يعم، ولكن الخلة لا مشاركة فيها. ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن اللَّه تعالى قد اتخذنى خليلا [1]».

---

(١) أخرج البخارى [٣٦٥٦] ومسلم [٥٣٢/٢٣] واللفظ له عن جندب رضى الله تعالى عنه قال: سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً..» الحديث.

نبيُّ اللَّه إسماعيل عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم] يقول اللَّه سبحانه إن إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد، ومع أن كل الأنبياء كانوا صادقين فى وعودهم، ولكن هنا صفة تبرز فى شخصه عليه السلام وإن كانت موجودة فى غيره؛ لأنك من الممكن أن تصدق مع إنسان فى موعد أو لقاء أو قضاء مصلحة، ولكن إسماعيل صدق الوعد فى حياته التى هى أغلى شئ عند الإنسان، فحينما أخبره أبوه أنه رأى فى المنام أنه يذبحه، لم يتردد لحظة وقال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. فهذا صدق وعد فى القمة؛ لأن الإنسان يصدق الوعد فيما يملكه، لكن أن يصدق الوعد فى أمر يتعلق بحياته وهو أمر رآه غيره ولم يره هو، ورآه فى رؤيا، والرؤيا لا يثبت بها الحكم إلا عند الأنبياء، فشجع أباه على تنفيذ ما رأى، ووعده أنه سيكون من الصابرين وأسلم له رقبته ليذبحه.

فلما رأى الحق سبحانه وتعالى أن إبراهيم سلم أمره للَّه وكذلك إسماعيل رحمهما اللَّه من هذا العذاب، وعفا عن إسماعيل وفداه بكبش من أكباش الجنة، فاللَّه تعالى ابتلاهما بهذا البلاء العظيم فلما أظهرا الرضا بقضاء اللَّه وقدره، فدا اللَّه الذبيح إسماعيل من الذبح ووهب لإبراهيم ولدا آخر هو إسحاق. وهذه لقطة قرآنية تعطينا فكرة: أن الإنسان إذا استسلم لقضاء اللَّه وقدره، يرفع اللَّه عنه البلاء. والذى يزيد من عذاب الابتلاء على الناس أنهم لا يرضون به. لكن الذى يرضى بالقدر إما أن يرفعه اللَّه عنه، أو يبين للمقدور عليه خير هذا القدر.

ومن هنا نعلم أن كل شئ ينزل علينا من قضاء اللَّه لا رفع له إلا بالرضا فلا يُرفع قضاء عن خلق إلا إذا رضوا به. والرضا بقدر اللَّه يكون فى كل شئ؛ مثل الموت وأقضية الحياة التى لا تسر الإنسان ولا تسعده. فلو أن أحداً أقل منك كفاءة فى العمل ولكن أصبح رئيساً عليك فلا تناصبه العداء وتحقد عليه، لأنه لا أحد يأخذ شيئاً غصبا من اللَّه سبحانه، فإذا لم تحترم هذا الإنسان لشخصه فاحترم

قدر اللَّه فيه. ولذلك الرسول ﷺ يقول: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة [١]».

ومن صفاته عليه السلام كما جاء فى كتاب اللَّه تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾. قد يكون هذا شيئًا عاديا بالنسبة للأنبياء، ولكن ربنا سبحانه حين يذكر خصلة فلابد أنها كبيرة عنده تعالى. فمن أراد أن يأخذ خصلة من خصال النبوة فليأمر أهله بالصلاة، واختص الأهل بهذا الأمر؛ لأنهم البيئة المباشرة التى إن صلحت للرجل صلح له كل بيته، وصلحت له كل ذريته ؛ لأنه إذا كان يأمر أهله بأن يمثلوا بين يدى ربهم سبحانه وتعالى خمس مرات فى اليوم والليلة فهذا لا يجعل للشيطان مجالا للدخول بينهم. ولذلك الرسول ﷺ يقول: «رحم اللَّه رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح فى وجهها الماء. رحم اللَّه امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء [٢]».

ومن صفاته أيضاً: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ هنا القرآن ذكر أن إسماعيل عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، فلماذا تقرن الصلاة دائما بالزكاة؟ قالوا: لأن الصلاة تأخذ بعض الوقت، والزكاة تأخذ بعض المال، والمال فرع العمل، والعمل يحتاج إلى وقت، فكأن الزكاة محتاجة إلى وقت أيضاً، فإذا كانت الزكاة تأخذ شيئاً من نتيجة الوقت، والصلاة تأخذ الوقت نفسه تجد أن الصلاة فيها زكاة أقوى من الزكاة، فكما أن الزكاة نماء فكذلك الصلاة.

لأنك إذا أرسلت أى جهاز إلى صانعه لابد أنه سيعود إليك أفضل مما كان عليه، فأنت صنعة اللَّه، فإذا وقفت بين يديه خمس مرات فى اليوم والليلة لابد أنك ستتزود بطاقة إيمانية تعينك فى حركة حياتك وتساعدك فى عملك وأدائك لواجبك؛ لأن الصنعة التى يطلع عليها صانعها خمس مرات فى اليوم لا يمكن أن يوجد بها عطب أبداً. وإذا كان إسماعيل يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو يؤديها من باب أولى؛ ولأجل هذه الصفات المذكورة فيه فهو مرضىٌ عند اللَّه، وهو مرضىٌ أيضاً لأن اللَّه اختاره رسولا.

(١) رواه ابن ماجه [٢٨٦٠] وصححه الألبانى [٢٣٠٩] عن أنس رضى الله تعالى عنه. وبنحوه مسلم [١٨٣٨/ ٣٧].

(٢) رواه أبو داود [١٣٠٨] وصححه الألبانى [١١٦٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

نبيُّ اللَّه إسحاق عليه السلام

قال اللَّه تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروها عليهم لكفرهم وفجورهم، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء اللَّه تعالى.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات].

يذكر اللَّه تعالى: أن الملائكة قالوا: - وكانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل وإسرافيل - لما وردوا على الخليل حسبهم أولا أضيافًا، فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجلا ثمينًا من خيار بقره، فلما قرَّبه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فنكرهم إبراهيم: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: لندمر

عليهم. فاستبشرت عند ذلك سارة غضبًا للّه عليهم، وكانت قائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشارًا بذلك، قال اللّه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أى بشرتها الملائكة بذلك: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [هود: ٧١] أى: فى صرخة: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أى كما يفعل النساء عند التعجب، وقالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] أى كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضًا، وهذا بعلى أى زوجى، شيخًا؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه. ولهذا قالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود].

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر] أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه، فبشروهما ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق أخو إسماعيل، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر، وقال فى الآية الأخرى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾. وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ، وهو المشوى رغيفًا من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن، وعندهم أنهم أكلوا، وهذا غلط محض، وقيل: كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى فى الهواء.

وعندهم أن اللّه تعالى قال لإبراهيم: أما سارة امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة، وأبارك عليها وأعطيك منها ابنًا، وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه فخر إبراهيم على وجهه ـ يعنى ساجدًا ـ وضحك قائلا فى نفسه، أبعد مائة سنة يولد لى غلام، أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة؟!.

وقال إبراهيم للّه تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدامك، فقال اللّه لإبراهيم: بحق إن امرأتك سارة تلد لك غلامًا وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل، وأوثقه ميثاقى إلى الدهر ولخلفه من بعده، وقد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جدًا كثيرًا، ويولد له اثنا عشر عظيمًا، وأجعله رئيسًا لشعب عظيم.

فقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده بولد ولده يعقوب. أى يولد فى حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص

التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عُين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله.

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٨٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ﴾ [مريم: ٩٤].

وهذا إن شاء اللَّه ظاهر قوى، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم بن يزيد التيمى، عن أبيه، عن أبى ذر، قال: قلت: يا رسول اللَّه.. أى مسجد وضع أول؟ قال «المسجد الحرام» قلت: ثم أى؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» قلت: ثم أى؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد[(١)]».

وعند أهل الكتاب، أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه اللَّه.

وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام وهو - إسرائيل - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء. وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا، قال فى دعائه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم].

وما جاء فى الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل اللَّه خلالا ثلاثًا كما ذكرناه عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ [سورة ص: ٥٣]، - وكما سنورده فى قصته - فالمراد من ذلك واللَّه أعلم، أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحد أن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه. وهذا القول لم يوافق عليه، ولا سبق إليه. [قصص الأنبياء لابن كثير: ٢٠٠ - ٢٠٣].

---

(١) أخرجه البخارى [٣٣٦٦] ومسلم [١/٥٢٠].

نبيُّ الله لوط عليه السلام

يقول: الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: أن اللَّه كما أرسل نوحًا إلى قومه، وأرسل إلى عاد أخاهم هودًا، وإلى ثمود أخاهم صالحًا، أرسل لوطًا إلى قومه. ولذلك جاءت منصوبة. ولكن الحق بدأ الآية بقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وربما يقول قائل: ما دام لوط قد قال، فلا بد أنه أُرسل لقومه قبل حدوث هذا القول، إذ كيف يرسله اللَّه في وقت أن قال؟ نقول: إن ﴿إِذْ﴾ بمعنى الزمن، وإن معنى الآية: ولوطًا أرسلناه إلى قومه إذ قال.. فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه بمجرد أن يقال للرسول بلغ، فساعتها يقوم بالبلاغ. فكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ لا فاصل بينهما.

وكلمة «قومه» تعنى أنه عاش معهم فترة، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] ولم يقل هنا وإلى قوم لوط أخاهم لوطًا، ولكنه قال: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾، فكيف ذلك؟ لابد أن نتنبه إلى أن لوطًا لم يكن من هذا المكان، فلوط كان هو وإبراهيم في مدينة بعيدة، ثم جاء إلى هذا المكان فرارًا من الاضطهاد هو وإبراهيم، وفي هذه الحالة يكون طارئًا عليهم. ولذلك لم يقل أخاهم الذى كان يقيم معهم، ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة فعرفوا أخلاقه وصفاته، وأنسوا به لفترة من الزمان جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض. وهكذا نرى دقة التعبير في القرآن، لم يقل أخاهم لأنه لم يولد ولم يُرب معهم، ولكنه قال: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ لأنه عاش معهم فترة فعرفوه.

ماذا قال لوط لقومه؟ لم يقل لهم: إن ربى نهاكم عن العملية القذرة التى تقومون بها، ولكن أدب النبوة جعله يقولها بأسلوب الاستفهام. ولكنه استفهام تقريع واستفهام استنكار. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهكذا يحمل السؤال استنكارًا لما يحدث، يقول لهم: إن العقل الفطرى يستنكر هذه العملية القذرة. وهذا شيء لم يسبقهم إليه أحد، ولكنهم فعلوه للشهوة. إذن فرغم أنها عملية قذرة

والفطرة السليمة تأباها، فإنها كانت موجودة فى هذا المجتمع بقصد الشهوة والشذوذ عن الطبيعة. وكلمة فاحشة هى التزيد فى القبح؛ أى أن الشىء ليس قبيحًا فقط ولكن فيه زيادة فى القبح. ولكن الذى يأتى أنثى بدون زواج مثلا تكون فاحشة. ولكن يمكن أن يتزوجها بعد ذلك وتصبح حلالاً، أما إتيان الرجل الرجل ففاحشة بمعنى مركب؛ لأنه ليس مخلوقًا لهذه العملية، ولا يمكن أن يصير حلالاً أبدًا.. فهو فحش مركب.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول بعض الفقهاء إن ﴿مِنْ﴾ زائدة!! ولكن بالنسبة لكلام الحق سبحانه وتعالى فلا يوجد شىء زائد، فلو أننا قلنا ما سبقنا واحد أو اثنان أيْ عدد قليل جدًا لا يعتد به. ولكن إذا قلنا من أحد، فمعناه أنه لم يسبقنا أحد بالنفى القطعى. تمامًا كما تقول لإنسان: ما عندى مال، فقد تملك عشرة قروش أو عشرين قرشًا، ولكنك لا تعتبرها مالاً. ولكن إذا قلت له: ما عندى من مال، أى من بداية ما يقال له مال ولو مليمًا واحدًا. فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أى: من بداية ما يقال له أحد، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أى: ما يطلق عليه اسم العالمين. فالحق سبحانه وتعالى سماها أولا: فاحشة أى تزيد فى القبح، ثم أكد لنا أنه لم يسبق قوم لوط إليها من أحد، أى أنها بدأت بينهم وهذا استنكار فظيع.

ولنبحث المسألة عقليا، لما جعل اللّه الإنسان خليفة كان لا بد من بقاء النوع وخصوصًا أن الأعمار محدودة. وبقاء النوع مضمون بالزواج فهو الوسيلة لإبقاء النوع، واللّه تعالى تكفل للإنسان بالقوت الذى يقيم به صلبه.

إذن.. فالإنسان خليفة فى الأرض يريد إنجابًا ويريد قوتًا. ولذلك حين خلق اللّه تعالى الأرض قدر فيها أقواتها ليبقى الإنسان، وخلق فيها الذكر والأنثى لبقاء النوع، والإنسان لا يولد ومعه كل مقومات الخلافة؛ بل يمر بخمس مراحل. فهو يكون فى أول الأمر نطفة فى ظهر أبيه، ثم جنينًا فى بطن أمه، ثم يولد وهناك فترة طفولة محتاجة إلى عناية، وفترة تربية حتى يبلغ رشده ويصلح للخلافة فى الأرض

إذن.. فالمسألة تأخذ مراحل عدة بين الحمل والولادة ورعاية الطفل وهو صغير. وأطول الأجناس طفولة هو الإنسان، ما الذى يجعل الإنسان يتحمل كل هذه المتاعب؟ إنها الشهوة التى وضعها اللّه تعالى فى الذكر والأنثى؛ لكى يحفظ بها النوع، وعندما توضع فى مكانها ويتم منها الإنجاب تتحمل المتاعب فى التربية، وإذا عزلت الشهوة عن بقاء النوع تكون قد أفسدت فى سنة الكون؛ لأنك

عطلت الإنجاب وعطلت عمارة الأرض، وهذا يتم حين تكون الشهوة فى غير موضعها ولا يستفاد منها فى الإنجاب.

والحق سبحانه وتعالى حين تحدث عن الفاحشة لم يفصلها لنا فى الآية الأولى، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ومعنى ذلك أنها أمر معلوم بالفطرة، ولكن بعض الناس قد يطلب التفصيل، ولذلك فسرها فى الآية الثانية فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]. ما هو الإسراف؟ الإسراف هو تجاوز الحد، والله وضع لنا مصرفًا للشهوة وهى المرأة وجعلها وعاء للإنجاب فهى تعطينا الشهوة وتعطينا الإنجاب. ولكن إذا كانت هذه العملية مع الرجال فهى تجاوز للحد؛ لأنها بُعد عما شرع الله تعالى، وانقياد لشهوة الإنسان فى غير ما أحل الله؛ لذلك فهم مسرفون لأنهم تجاوزوا الحد.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى فى سورة الشعراء: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥] استنكاراً لهذا الفعل الشائن الذى انفرد به قوم لوط على سائر الناس. ولذلك يقول الله عز وجل فى آية أخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] يقول لهم نبيهم لوط، لماذا تفعلون الفاحشة وعندكم حرثكم الذى أنعم به عليكم ربكم. زوجاتكم عندكم مندوحة فى تصريف الغرائز وهى الزوجات، فلماذا تنقلون ما ينبغى فعله مع الزوجات، إلى فعل حرام غير جائز مع الذكران من العالمين؟ والآية تحتمل معنى آخر، هو أنهم كانوا يأتون نساءهم فى مواضع حرمها الله، كما يفعلون مع الذكران من العالمين.

إن الله جعل للأزواج محلاً للاستنبات فى زوجاتهم، قوم لوط تجاوزوا محل الاستنبات الحلال واستبدلوه بالموضع الحرام. محل الاستنبات الحلال الذى يجوز للرجل أن يأتى زوجته فيه هو الذى أشار إليه قول الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] بعض الناس فهم هذه الآية خطأ. فهموها على أن موضع الحرث مشاع فى أى مكان إن الآية واضحة وصريحة تقول: ﴿حَرْثُكُمْ﴾ ومعنى الحرث هو مكان استنبات الولد. والمرأة تضع الولد من مكان معروف من الأمام وليس من الخلف. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] العادى: هو الذى شرع له شىء يقضى «إربته» حاجته فيه فتجاوزه إلى شىء آخر حرام.

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] هنا لوط عليه السلام يقول لقومه مستنكرًا فعلهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ معنى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أى: وأنتم تتعالمون بها وتتجاهرون، مما يدل على أن الكل مجمع على هذه الفاحشة، وأنه لم يعد هناك حياء. أو أن المعنى: كيف تفعلون ذلك وأنتم تبصرون ما حل بأصحاب الفساد من عذاب وهلاك؟ ثم يقول بعد ذلك: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. كلمة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فى ظاهر الأمر أنها تخالف قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ لأنهم ما داموا يبصرون ويعلمون ويرون فكيف يجهلون؟

فالجهل هنا ليس ضد العلم، ولكنه مرادف السَّفه، لأن الجهل له إطلاقات.

الناس يفهمون أن الجهل عدم العلم، مع أن الأمية هى ألا تعلم، والجهل أن تعلم قضية مخالفة للواقع. ولذلك الذى يتعب فى الدنيا هو الجاهل وليس الأمى؛ لأن الأمى خالى الذهن، تقول له القضية فيأخذها وكفى. لكن الجاهل عنده قضية مخالفة، فأنت تحتاج معه إلى عملين اثنين: أن تنزع منه قضية الباطل أولاً، ثم تدخل له قضية الحق، وهذا شىء يحتاج إلى جهد كبير. فالذى يتعب العالم هو الجاهل لا الأمى.

❁❁❁

منطق أصحاب الفطر المطموسة

قال لوط عليه السلام للمسرفين من قومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف] ماذا قال له قومه؟ هل ناقشوه؟.. لا.. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. أى لم يكن فى العملية أى منطق، إلا أن قول لوط قد أشعر قومه بعقدة الذنب وفحش ما يحدث، فقالوا: الحل أن نخرج لوطاً وقومه من القرية؛ لأنه جاء ليفسد علينا شيئاً نتمتع به. وحتى فى علة الإخراج لم يكن هناك أى منطق، إلا أن لوطاً ومن آمن معه يريدون أن يتطهروا من قذارة هذه القرية وما يحدث فيها.

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] ما الذى يريدونه من نبيهم لوط؟ أن يكف عن لومهم ونهيهم عن فعل الفاحشة. و ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أى: من المطرودين خارج بلدتنا.

ولذلك يقول الحق عز وجل فى موضع آخر: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] لماذا أخرجوا لوطاً ومن اتبعه من قريتهم؟ لأنهم يتطهرون بفعل الحلال وإتيان ما أمرهم اللّه به، والعصاة الذين كذبوا لوطاً لا يريدون أن يكونوا من المتطهرين. وهكذا كل أهل الباطل، لا يحبون أن يكون بينهم من يأمر بالحق وينهى عن فعل الباطل. يضيقون به ذرعاً ويحاولون بشتى السبل أن يتخلصوا منه. إما بالنفى أو الحبس أو السجن أو القتل.

ماذا كان موقف لوط من هؤلاء المكذبين؟ ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ هناك فرق بين من يعمل العمل، وبين من يكره العمل، وبين من يكره عامل العمل نفسه. لوط عليه السلام قال لهم أنا كاره لعملكم وكاره لمن يفعل الفاحشة منكم.

❁❁❁

خيانة امرأة لوط

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٣] إذا سمعنا «أنجيناه» فإن ذلك يكون نجاة على أمر واحد. ولكن «نجيناه» يعنى من أشياء متعددة، أى من أخطار متعددة. ولأن اللّه سبحانه وتعالى هو المنجى فإنه ينجى بكلمة ﴿كُن﴾ ومهما تعددت الأخطار فإنها لا تحتاج من اللّه سبحانه وتعالى إلا كلمة: ﴿كُن﴾.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ الأهل هنا: إما أن يكونوا أهلاً له بالنسب، أو بالتدين والتبعية. فإذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] فهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى قد أنجى أهل بيت لوط وأتباعه الذين هم أهل كل رسول، فعندما حاول نوح عليه السلام أن يقنع ابنه بركوب السفينة ورفض الابن وأصر على كفره فغرق. قال نوح وهو يدعو اللّه تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥] فقال له الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦] فأهل الرسول هم أصحاب الأعمال الصالحة الذين يتبعون منهجه.

إذن.. فزوجة لوط لم تدخل فى الإنجاء.. لماذا؟ لأنها كانت من الغابرين، وغبر تأتى لمعان متعددة، فمعناها أقام، ومعناها مضى، ولذلك يقال هذا الشىء غبرت أيامه أى مضت، فأى معنى تتناوله الكلمة فى هذه الآية الكريمة؟ نقول: إن المعنيين ملتقيان، فمادامت لم تخرج مع لوط وبقيت فى مكانها، فقد بقيت فى المكان الذى سينزل فيه العذاب. ومادامت قد بقيت فى المكان الذى سينزل فيه

العذاب. فقد أصبحت من الماضين لأنها؛ ستهلك.. أصبحت تاريخًا.

والحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا التفاصيل فى هذه الآية عن أسباب هلاك امرأة لوط، ولكن المعنى يؤكد لنا أنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به، ولكنه جاء بالتفاصيل فى آية أخرى فى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم] وليس الغرض من المثل الذى ضربه اللَّه تعالى هنا أن يقال إن امرأة لوط كانت زانية.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الرسول مع أنه مرسل من اللَّه لا يستطيع أن يفرض إيماناً حتى على امرأته؛ لأن حرية الاعتقاد وحرية العقيدة قد كفلها اللَّه للإنسان ليكون الحساب عدلاً فى الآخرة. ولذلك فاللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أى الذين رفضوا منهج اللَّه ورفضوا أن يؤمنوا به، واللَّه سبحانه وتعالى لأنه أعطى كلا منا حرية الاختيار، أعطاها بعدله، حرية أن تختار الكفر أو الإيمان، ولم يقيد هذه الحرية حتى فى زوجات الأنبياء. ويجب ألا يعتقد أحد أن امرأة لوط كانت متكبرة متسلطة على لوط؛ لأن الحق سبحانه وتعالى نفى ذلك فى قوله جل جلاله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ ومعنى ذلك أن إمرة الرجل كانت عليها، ولم يكن لوط هو الذى يطيع أوامرها ولكنها كانت خاضعة له. ولكن حرية الاختيار جعلتها تختار الكفر على الإيمان.

ولذلك يجب ألا يأتى أحد ويقول: إن قول الحق سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام عن ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] معناه أنه ابن زنا، لا، ولكن معناه كما قال اللَّه وبين ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾، ولذلك لابد أن نتنبه إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠] لنفهم أن حرية الاختيار فى العقيدة هى التى جعلت هذا يحدث، وأن رسولين من رسل اللَّه تعالى لم يستطيعا أن يُرغما زوجتيهما على الإيمان، فالمسألة فى حرية العقيدة التى كفلها اللَّه للإنسان، ولا أحد يستطيع أن يجبر عليها أحدا بالقوة. وفى هذا ضرب اللَّه مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون، ليرينا أن فرعون المتجبر مدعى الألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن به وتكفر باللَّه. إذن فنبى لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن، ومدع للألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تكفر، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختيارى حماه اللَّه تعالى بكل أنواع الحماية، بحيث لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس اقتناع وليس على أساس قهر.

❁❁❁

فأنجيناه وأهله إلا امرأته

يقول تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] كلمة «أنجينا» تشير أولاً إلى أن عذابًا سيقع، وأن العذاب سيقع فى المكان الذى فيه قوم لوط. وأن النجاة لن تكون بقدرة لوط أو المؤمنين معه، ولكن بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى، فهو الذى سينجيهم من هذا العذاب. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ ونسب الفعل إلى ذاته سبحانه وتعالى، ولذلك فإن اللَّه هو الذى أخرج آل لوط وأنجاهم من العذاب.

قوم لوط قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] فجاءت إرادة الحق سبحانه وتعالى موافقة لما طلبه قوم لوط، أخرج اللَّه لوطًا ومن معه فعلا من القرية، ولكنه أخرجهم لينجيهم من العذاب، فكأن ما كان يحسبه قوم لوط خيرًا لهم بإخراج لوط ومن معه من المكان كان شرًا لهم؛ لأنهم بإخراجهم نزل العذاب على قوم لوط.

والحق سبحانه وتعالى قال فى آية أخرى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الحجر] والقوم المجرمون هم قوم لوط الذين عادوه وكذبوه، وهم الذين يفعلون المعاصى والمنكرات. وهل آل لوط كانوا ضمن القوم المجرمين؟ نحن نعرف أن الاستثناء هو إخراج ما بعد «إلا» مما قبلها. فآل لوط لم يكونوا فى القوم المجرمين؛ إذن فالاستثناء ليس من قوم لوط، ولكنه من مجرمين؛ لأن القوم كان أغلبهم فاسدين، فصار «قوم لوط» اسم علم على القوم. والاستثناء فى هذه الآية قضية لغوية أفاض فيها العلماء كثيرًا، فقالوا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أى إلى مجرمين ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ هذا استثناء، فنحن لم نرسل لآل لوط، إذا كنتم ستنجونهم فيكون الإرسال للإنجاء والإهلاك، نعم؛ لأنهم جاءوا فى الأصل لكى يهلكوا قوم لوط المجرمين ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ فاستثنى آل لوط من كلمة مجرمين.

ثم قال: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى آل لوط ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾. إذن فامرأة لوط لن تنجو، بل ستدخل فى عداد المجرمين، ولذلك قالوا: إذا توالت الاستثناءات على مستثنى منه، تأخذ المستثنى الأول من المستثنى منه، والمستثنى الثانى من المستثنى الأول، والمستثنى الثالث من المستثنى الثانى. وهنا الآية تقول: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾، واستثنى من آل لوط امرأته فتكون قد دخلت فى القوم المجرمين: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠].

ولكن هل الرسل هم الذين قدروا أم الذى قدر هو اللَّه تعالى؟

نقول: إن الفعل يصح أن ينسب إلى الآمر به وإلى المبلغ وإلى المباشر له، فاللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. ويقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] فمرة ينسب الفعل للآمر الأعلى سبحانه وتعالى، ومرة للمبلغ، ومرة لمن يباشر العملية، وقوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ حين تسمع كلمة «غابر» تظن أن الزمن الغابر هو الذى مضى، ولكن هنا غابر بمعنى باق، أو هو من أسماء الأضداد، فمعنى ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أى من الباقين فلن تخرج ولن تنجو؛ لأن الذى سينجو سيخرج من القرية، والذى سيبقى هو الذى سيهلك.

وفى موضع آخر أشار القرآن إلى من تكون هذه العجوز التى أهلكها اللَّه مع العصاة المكذبين من قوم لوط قال تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء: ١٦٩]. العجوز معروف وهو من تقدمت به السن وتجاوز الستين فى عرفنا هذه الأيام، و ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أى الهالكين. كأن اللَّه تعالى يخبر رسوله لوطًا، بأن هذه الزوجة التى لم تكن أهلاً للزواج من نبى اللَّه لوط وخانته فى نبوته، وأنها ستهلك مع العصاة المذنبين، إنها ستظل فى الدار ولا تخرج معك؛ مع الذين اتبعوا لوط. وسيصيبها ما يصيب غيرها من الهالكين. وفى المثل العربى «هذا أمر غبر وقته» أى: ذهب وقته ومضى.

❁❁❁

الملائكة فى بيت لوط

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧] أى: شعر فى نفسه بالسوء. وضاق ذرعًا، والذرع مأخوذة من الذراع. والذراع فيه الكف، والكف فيه الأصابع التى تدفع بها الأشياء عن نفسك، وأى شىء تستطيع أن تمد له ذراعك لتدفعه عنك فلا يصل ذراعك إليه يقال: ضقت به ذرعًا، أى أنت عاجز عن أن تدفع أذى جاءك. ولذلك يقال: «لو أن ذراعى طالته لحدث كذا وكذا» أى: أنك عجزت عن أن تصل إليه أى أنه فوق طاقتك.

الملائكة جاءت إلى لوط فما الذى ساءه وجعله يحس بعجزه؛ لأن الملائكة جاءت إليه على هيئة بشر، وهو يعلم ما يفعله قومه. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ لماذا؟ لأنه عندما رأت

امرأة لوط هؤلاء الرجال قادمين، صعدت إلى سطح البيت وأوقدت نارًا؛ لتحدث دخانًا كثيفًا إشارة إلى القوم أن هناك ضيوفًا قد وصلوا، وأنهم حسنو المظهر يستحقون أن يفعل بهم آل لوط ما يفعلونه بالرجال. لوط حين وصل إليه القوم: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ يعنى يوم صعب ومنه العِصابة التى يربطها الإنسان على رأسه فى يوم يعانى فيه من تعب شديد. ومنه العُصبة لأنهم جماعة يتكاتفون على فرد، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه، فيكون اليوم عصيبًا بالنسبة له؛ لأنه يلاقى فيه أذى كثيرًا.

امرأة لوط أوقدت النار وارتفع الدخان، وعرف أهل القرية أن عند لوط رجالا حسان المظهر، فلم يضيعوا وقتًا كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨] ومعنى ذلك أن قوم لوط جاءوا إليه مسرعين متدفقين. والإنسان حين يتعود على الإثم يفعله بسهولة ويسرع إليه، فالذى يسرق أول مرة يكون متهيبًا وخائفًا أن يمسك به؛ لأنه ليس له دراية بالسرقة أما الذى يسرق كل يوم، فهو يقدم على السرقة بجرأة ونشاط. وكلمة يُهرعون من ألفاظ اللغة العجيبة، كل فعل له فاعل مثل يضرب زيد عمرًا. من الذى ضرب؟ زيد. وضرب من؟ عمرا.. هذا فاعل وهذا مفعول ولكن كلمة يُهرع إذا سمعناها فالضمة على الياء، وهى ملازمة للبناء للمجهول، يُهرع مثل جُن بضم الجيم، ومعناها فلان أُصيب بالجنون، ولكن هل هو أحضر لنفسه الجنون؟ لا.. الجنون هو الذى جاءه، ونحن لا نعرف للجنون سببًا فبُنيت للمجهول، مثلا يُقال نكب فلان، ولكننا لا نعرف ما الذى نكبه؟ ولكن إذا جُهل الفاعل بنى للمجهول، إنما ما بعده يكون فاعلا.

قوله تعالى: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ الإنسان إذا أقبل على شىء باندفاع فهو عاشق إلى أن يذهب إلى ذلك الشىء، ولا يعشق إنسان أن يذهب إلى شىء، إلا إذا كان يذهب إلى ما يحب ودون أية هيبة، فيه اندفاع منه وفيه دفع من غيره، فأى جماعة تكون مقبلة على أمر محبب إلى نفسها تندفع إليه. فإذا كان هناك نقص فى مادة غذائية، ثم عرف الناس أنها موجودة فى محل معين هرعوا إليه، أى اندفعوا إليه ودفعوا غيرهم، وقوم لوط مدربون على هذا الإثم.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨] إذن فهم متدربون على هذا العمل، يعشقونه ويفعلونه بلا هيبة ولا حياء؛ لأن الحياء أن يفعل بعضهم ويخاف بعضهم، ولكن إذا كانوا كلهم يقومون بهذه السيئة، فلا أحد يخشى أو يمتنع؛ لأن ما يفعلونه مع الرجال من الفاحشة قد تعودوا عليه. أقبل قومه على بيته بسرعة واندفاع وفى أعداد كبيرة، وهو يعلم نيتهم من

سوابقهم، ويريد أن يصرفهم عن ضيوفه انصرافًا من جنس اندفاعهم. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] أيعرض لوط بناته عليهم؟ وما المانع، فالمرأة معدة لهذا، ومن الممكن أن يتم الزواج بينها وبين الرجل. ولكن هؤلاء كافرون ولوط رسول اللَّه، هل كان من الممكن أن يزوج الرجل ابنته لغير مؤمن؟ نقول نعم، ورسول اللَّه ﷺ زوج ابنته رقية لابن أبى لهب، ولأبى العاص بن الربيع، ولم يكن فى ذلك الوقت قد نزل التشريع بالتحريم.

لوط قال هؤلاء بناتى، هل قالها بالنسبة لبناته اللاتى من صلبه؟ أو لبنات أمته؟ أو بنات المؤمنين به؟ لوط لم يؤمن برسالته إلا هو وبنتاه. إذن فلم يكن المقصود بنتيه؛ لأنهما لا يكفيان هذا العدد الكبير. إن لوطًا كان يحاول أن يهدى قومه ويدفعهم إلى الزواج، ولذلك فقوله بناتى يعنى بنات القرية، بدليل أنه قال: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، أى: أن زواجكم من البنات أطهر لكم مما ترتكبونه من فاحشة مع الرجال. فالزواج شريعة اللَّه والفاحشة مع الرجال إثم عظيم.

ثم عندما لم يجد اقتناعًا منهم بذلك، حاول أن يستعطفهم بأن يحفظوا عليه كرامته بالنسبة لضيوفه. فقال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ﴾ [هود: ٧٨] كلمة ضيف مفردة وتطلق على الجماعة، يعنى إن كان هناك واحد يقال: هناك ضيف، وإن كان هناك اثنان يقال: هذان ضيف، وجماعة يقال: هؤلاء ضيف، فهو مفرد للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع، واللَّه سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. إذن.. فضيف كلمة مثلها مثل كلمة طفل تقال للمفرد والمثنى والمذكر والمؤنث والجمع. واللَّه تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ﴾ [النور: ٣١]. فكأن الطفل تطلق على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ﴾. ما هو الخزى؟ الخزى هو الفضيحة أمام الناس، فالإنسان حين يُهان لو كان بمفرده فهذا هوان، ولكن الخزى أن يهان أمام جمهرة من الناس. وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، أى: رجل يقف مع الحق ويمنع هذه المهزلة.

لما عرض لوط عليه السلام على قومه الزواج من بناته، قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ

﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] يعنى أنت تعلم أنه ليس لنا حق فى بناتك. وأنت تعلم أننا لا نريد البنات، ولكننا نريد ضيوفك هؤلاء، الضيوف الرجال ذوى الهيئة الحسنة لنرتكب معهم الفاحشة. لوط أحس بالضيق الشديد والخزى وبالعجز، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] ساعة تسمع ﴿لَوْ﴾ تكون للتمنى، أى أتمنى أن تكون لى قوة أدفعكم بها عن ضيوفى، لو أن عندى القوة لفعلت، وإن لم يكن عندك القوة الذاتية. فإنك تبحث عن قوى أو أقوياء، تستطيع أن تأوى إليهم ليدفعوا عنك السوء، وقوله تعالى: ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، أى أجد من الأقوياء من ينصرونى عليكم، فآوى إليهم ليدافعوا عنى.

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى توضح موقف قوم لوط من الملائكة الذين جاءوا إليه بالبشرى والحوار الذى دار بينهم وبينه، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧] أى: جاء أهل المدينة فرحين مستبشرين؛ لأن الاستبشار هو استشراف النفس إلى شىء مفرح وسار؛ لأنهم حينما سمعوا بأن لوطًا جاءه جماعة فى غاية الحسن والجمال: تحركت نوازعهم المنحرفة وقالوا: هذه فرصة، فجاءوا مستبشرين ومسرورين؛ فكأنهم رأوا أن هذه فرصة يجب ألا تفلت من أيديهم؛ لأنهم كانوا أهل منكر وانحراف، لا يستحون منه، بل كانوا يفعلونه بسرور واستبشار.

ولما جاءوا لوط قال لهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: ٦٨] وكان من عادة العرب أن الضيف يأخذ كرامته واحترامه من المضيف، ولا يسمح لأحد أن يناله بسوء وهو عنده؛ لأنه أخذ جواره، وأى اعتداء على الضيف يعتبر نقيصة وعارًا على المضيف. ﴿هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ هؤلاء جمع، وضيفى مفرد. وقوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾. الفضيحة هى هتك المساتير التى يستحى منها الإنسان؛ لأن هناك أشياء يفعلها الإنسان ولكنه يستحى أن يظهرها، هذه تسمى المساتير.

لأنك لو عرفت لمحسن حسنات متعددة، ثم اطلعت منه على سيئة فقد تلعنه وتقاطعه، فتحرم نفسك من حسناته فالمولى سبحانه يستر عنك هذه السيئة حتى تنتفع بحسناته ولذلك يقولون:

خذ بعلمى ولا تركن إلى عملى واجن الثمار وخل العود للنار

فهو يقول لهم: لا تفضحون لأنهم ضيفى، فهذه كرامتى. ثم يقول لهم:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ [الحجر: ٦٩] الفضيحة تكون أمام النفس. والخزى يكون أمام الناس. فردوا عليه بقولهم: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ألم نقل لك لا شأن لك بهذا الموضوع، وعن العالمين: العالم ما سوى اللّه تعالى، أى دعنا نفعل فى الكون ما نشاء، وإياك أن تناقش هذا الأمر معنا لا فى هؤلاء ولا فى غيرهم.

عندما بلغ الضيق بلوط منتهاه تكلمت الملائكة، فماذا قالوا؟ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: ٨١] لوط عليه السلام، لم يكن يعرف أنهم رسل؛ بل كان يعرف فقط أنهم ضيوف من البشر، ولم يكن يعرف لماذا جاءوا.

عندما رأى الملائكة لوطًا فى هذا الضيق الشديد، يحاول أن يحمى ضيوفه، ولكنه فرد أمام مجموعة من الشواذ لا يستطيع أن يفعل شيئًا، أطلعوه على الحقيقة وهى أنهم لم يأتوا ضيوفًا، ولكنهم رسل من اللّه، وأهل القرية لن ينالوا منهم شيئًا ولن يصلوا إليهم، بل لن يصلوا إلى لوط نفسه.

لـــــذلـــــك: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ الملائكة أعلموا لوطًا ألا يخاف من هؤلاء المتجمعين، فهم لن يصلوا إليهم، بل لن يصلوا إلى لوط نفسه، ثم أبلغوه أوامر اللّه، بأن يسير بأهله ليلا، هم قالوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ يعنى اخرج من هذه القرية ليلاً ولا يهم أى وقت من الليل سواء فى أول الليل أو فى آخره. إذن فهم أعطوه مهلة لكى يسير ويخرج من هذه القرية ليلاً، ويقال قطع من الليل أى ما يقطع الليل أى منتصف الليل، ثم أكملوا له ما يجب أن يفعله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ والالتفات هو الانصراف عن الشىء الذى أمامك، إلى الشىء الذى خلفك أو بجانبك، يكون الشىء أمامك فتنصرف عنه، وهل المقصود بذلك الالتفات الحسى أو الالتفات المعنوى؟ إن لوطًا وأهله يخرجون من ديارهم ويتركون أموالهم ومتاعهم وما اعتادوا عليه من حياة. إذن الأمر معناه: إياكم أن تتجه قلوبكم أو أنظاركم إلى ما تركتم، اخرجوا وأنتم مصممون على الخروج، وسيعوضكم اللّه تعالى عما فاتكم، هذه هى اللفتة المعنوية، إنهم لا ينظرون إلى ما تركوه وفى قلوبهم حسرة. واللفتة الحسية هى اللفتة بالنظر، هى أن تلتفت أنظاركم إليهم.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢﴾ [الحجر] ، و ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أى: لا أعرفكم، لم أركم من قبل، كما أن مجيئهم إليه حرك همومه وأثار فى نفسه خواطر واسعة؛ لأنه يعلم رذيلة قومه، وهؤلاء ملائكة جاءوا على أجمل صورة، فهذه المسألة ساءت لوطاً عليه السلام

كثيراً. ولذلك يقول ربنا فى آية أخرى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] لأنه يعرف ما سيحدث من قومه، ولكن الملائكة طمأنوه، قال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ فقد أعلموه أنهم جاءوا للقوم الذين أتعبوه، وكانوا يمترون ويشكون فى أن اللّه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. فنحن جئنا لنحقق لك رغبتك فى هؤلاء المفسدين، الذين يمترون ويشكون فى عذاب اللّه أن يقع بهم فى الدنيا قبل الآخرة، ثم يقول تعالى: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٤] مثل قولهم لإبراهيم: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٥٥] وبعد ذلك أعطوه المنهج الذى يتبعه حتى ينجو هو وأهله.

قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ الفعلان «سرى» و «أسرى» يتواردان على معنى سريت أنا وأسريت، أى مشيت بالليل، ومرة أسرى تكون هى المتعدية، مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ﴿بِأَهْلِكَ﴾ الأهل كناية عن المرأة والأولاد وما يتبعهم. ولذلك فإن الناس عندنا فى القرى لا يتكلمون عن نسائهم بأسمائهن، وإنما يقولون: الأولاد قالوا كذا، أو الجماعة يريدون كذا، ولا يذكرون اسم المرأة. يعنون بذلك نساءهم فكأن اسم المرأة دائمًا مبنى على الستر؛ ولذلك نجد المرأة فى كثير من الأحكام مطمورة فى حكم الرجل إلا فيما يتعلق بها خاصة.

وقوله تعالى: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قطع: جمع أو اسم جمع، مفرده قطعة. وعندنا الذى يدل على أكثر من واحد، ننظر هل تغير فيه شكل المفرد أو لم يتغير؟ فإن لم يتغير يطلق عليه: جمع سالم، سواء كان مذكرًا أو مؤنثًا؛ لأن المفرد سلم من التغيير وألحقت به علامات الجمع مثل: كاتب.. كاتبون أو كاتبات. أما إذا تغير المفرد فيسمى جمع تكسير مثل: رجل.. رجال، قلم.. أقلام. فإن دل اللفظ على جمع وليس من هذا ولا ذاك، يكون «اسم جمع» أى يدل على الجمع، فيفرق بينه وبين مفرده بالتاء، مثلا تقول: هذا تمر، معناه شىء كثير، مفرده تمرة وعنب مفرده عنبة، فعنب جمع ولكن ليس من جموع التكسير ولا من الجموع السالمة. فدل على جماعة وليس من واحد منها، فهذا نطلق عليه «اسم جمع».

إذن.. قطع جمع قطعة، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ هذا منهج النجاة، يخبرون به لوطًا عما يفعله بالنسبة لأهله والمؤمنين به. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ هذا أمر ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ هذا زمان الإسراء أى المشى أو الرحيل. و ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ الدبر هو الخلف، ولماذا يتبع أدبار القوم؟ ليحثهم على السرعة، وكان من

طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ورحلوا عنه، فكل واحد منهم يضع رحله على ناقته وأهله فيها. وبعد ذلك يركبون ويبدأون السير ويتخلف رئيس القوم، ويسمى «معقب». لينظر هل نسوا شيئًا من أمتعتهم أو سقط منهم متاع أو غيره، ويطمئن عليهم. ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ كن خلفهم، لكى تحثهم على السير حتى يسرعوا بسرعة، ولتحمى أمراً سنأمرك به فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: لا يلتفت أحد منكم خلفه، وحتى تراقب من يلتفت لابد أن تكون متخلفًا عنه.

ولماذا لا يلتفت منهم أحد؟ لأن الالتفات يأخذ وقتًا فيؤخر السير. ونحن نريد السرعة. وأيضًا فإن القوم إذا التفتوا إلى مواقع انتمائهم من الأرض التى نشأوا عليها وعاشوا فيها واعتادوها قد ينتابهم الحنين إلى بلادهم ويقوى عندهم الانتماء. ونحن لا نريد ذلك، بل نريد أن تسرعوا إلى الأمام ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أو أن الحق سبحانه لا يريد أن يلتفت أحد خلفه؛ حتى لا يشهد عذابًا أو مقدمة عذاب للقوم، فتأخذه بهم الشفقة. ولذلك يقول سبحانه فى إقامة حد من حدوده: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] يدل على أن الموقف سيؤثر فى النفس، مع أنهم فعلوا جريمة، ولذلك قلنا إن بشاعة الجريمة بمرور الوقت تزول وتبقى بشاعة العقوبة. أو أنه سبحانه يريد أن يعجل بهم قبل أن يوجد العذاب ولو بالتفزيع فقط، من هول ما يرون من إنزال العذاب بالقوم.

فهنا كم أمر؟ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ والظرف ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ والكيفية ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ و ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ و ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾. ولماذا لا نأخذ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ مؤكدة لقوله: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أى: لتكن وجهتكم الأمامية والغاية، وليس لكم شأن بمن تركتموهم.

❁❁❁

عاقبة المجرمين من قوم لوط

قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] والمطر عادة هو الذى يأتى بالماء، والماء أساس كل خير، ولكن هذا المطر لم يكن خيرًا ولم يكن ماء، بل كان حجارة انهالت عليهم من السماء؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود] إذن.. فالمطر كان حجارة، وكان حجارة من النار.

الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن نعتبر بما حدث لقوم لوط حتى لا نقع فى نفس المعصية أو نقترب منها فيقول: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: اعتبر يا من تسمع هذه القصة بما يحدث للمجرمين الذين يصادمون ويعاندون دعوة اللّه تعالى ويصرون على المعصية فينزل عليهم غضب اللّه.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] و ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أى: إلى لوط، بمعنى أوحينا إليه أو أعلمناه. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤].

بعد أن تكلم سبحانه عن الإنجاء لآل لوط، تكلم عن العذاب لقومه المنحرفين. أى أوحينا إليه أن ﴿دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ﴾ أى قوم لوط ﴿مَقْطُوعٌ﴾ وقطع دابره، أى آخره كما نقول: أخرجه من جذوره. أو أن الدابر هو الأصل. ولذلك فى القرآن الكريم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. أى: أن هؤلاء القوم مأخوذون عن آخرهم، أو مخلوعون من جذورهم فلا يبقى منهم أحد.

متى يحدث ذلك؟ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ فأنتم ستسيرون بقطع من الليل وهم سيؤخذون مصبحين. وأخذ الصبح هذه طريقة العرب. وطريقة الحروب عندهم:

إنا إذا نزلنا بساحة قوم ... فساء صباح المُنْذَرين

فالصبح؛ لأنهم يكونون نائمين ومسترخين، وليس عندهم استعداد للمقاومة، فيؤخذون على غرة. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أى: فى حالة صباح وهى لا تتناقض مع قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] فكأن بدء الصيحة كان صُبحًا وأخذهم ونهايتهم كان فى الشروق. والصيحة: كما نرى الآن فى الألعاب العنيفة مثل الكاراتيه والجودو، كلها تبدأ بالصياح، فهذه الحركات الإرهابية للخصم تبدأ بالصيحة فيحدث اضطراب للخصم يفقده توازنه الفكرى، وكذلك أيضا عند التحام الجنود فى القتال.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ويقول فى آية أخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] و ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أى وقت الشروق. ثم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] أى: قُلبت رأسًا على عقب. وكون هذا الانتقام جعل عاليها سافلها، فلابد أنه كان انتقامًا منظمًا ومدبرًا بدقة. ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤] مثل حادثة الفيل. ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] المتوسم: هو الذى يدرك حقائق المستور بمكشوف المظهور، أى يتوسم من

الظاهر فيقول مثلاً: أنا توسمت فى فلان كذا، فأخذ من الظاهر ما يدل على الحقيقة.

وما حدث لقوم لوط لا يحتاج إلى توسم ولا فراسة؛ لأن المسألة واضحة. لذلك يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦] و ﴿وَإِنَّهَا﴾ أى: قرية سدوم التى نزل بها العذاب، ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أى: على الطريق، والطريق ثابت؛ لأن هناك سبيلاً عارضًا. مثل إقامة مدن فى أكثر من جهة من الطريق. ولكن «سبيل مقيم» أى طريق مستقيم وثابت. كما نسميه الآن مرصوف، ويقول فى آية أخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ . . . ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات] أى: أنكم ترونه؛ لأنه ما دام طريقًا ثابتًا فإن التغيير وعوامل التعرية لن تخفيه؛ لأنه محكم التكوين والرصف والتثبيت. ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] بعدما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ فكأن من حق المؤمن أنْ يتفحص فى أدبار الأشياء، ويعرف الأشياء بسيماها، ويكون عنده فراسة. ولذلك قيل: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور اللَّه[1]» والحق تبارك وتعالى قال فى آية أخرى فى سورة الشعراء: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء] كلمة «مطر» تعنى الماء النازل من السماء إلى الأرض، وهو فى غالب الأحوال «غيث» يغيث الناس وينقذهم من الجدب والعطش، يروى الأرض ويشرب الناس منه، هذا المطر يكون مطر رحمة. المطر الذى أصاب قوم لوط، مطر من نوع آخر، مطر عذاب، ولذلك قالوا عنه: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فرد عليهم بقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا . . . ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف] لماذا جاء الحديث عنها بلفظ «مطر» الذى هو بشير خير؟ ذلك للإيناس؛ حتى يظنوا أنه بشير خير، فيخيب ظنهم وينقلب عليهم نذير شر، كما قالت الآية: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢] قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أى: جاء أمر اللَّه بالعذاب، يدل على أن الأمر حين يصدر من الحق جل جلاله يستجيب كل شىء قهرًا. القرى التى كان يعيش فيها لوط وقومه خمس قرى. قرية اسمها دومة، وقرية اسمها سدوم، وقرية اسمها حيوان، وقرية اسمها عامو راء، وقرى أخرى. اللَّه سبحانه وتعالى قال عن هذه القرى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أى: انقلبت فأصبح أعلى مكان فيها هو الأسفل،

(١) جزء من حديث رواه الترمذى [٣١٢٧] وضعفه الألبانى [٦٠٧].

والأسفل هو الأعلى، واقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] المؤتفكة: من الإفك، والإفك هو الكذب المتعمد. أى: أن تعرف الحقيقة وتقول ما يخالفها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ تأتى دائمًا فى العذاب، وأمطرنا عليها حجارة يعنى نزلت كالمطر.

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] هل هى حجارة صلبة أم طين لين، نقول إن الطين الذى يمطره اللَّه عليهم من السماء يكون أصلب من حجارة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ [هود: ٨٣] أى: معلمة كل حجر ينزل على صاحبه مثل الصواريخ الموجهة، كل صاروخ متجه لهدف معين بدقة لا ينحرف عنه. نحن البشر استطعنا أن نصنع صواريخ نوجهها للهدف الذى نريده. اللَّه سبحانه وتعالى جعل هذه الحجارة كالصواريخ الموجهة، كل حجر منه يعرف صاحبه ويصيبه بدقة. قوله تعالى: ﴿مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] أى منظمة ولها أوامر خاصة بها من اللَّه سبحانه وتعالى، متى أمر انهمرت، معدة من قبل وموجودة. على أنه فى آيات وردت: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]. وفى سورة الفيل قال الحق جل جلاله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ [الفيل].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. قلنا إن القصص القرآنى قد جاء لتثبيت الرسول والمؤمنين بأنباء من سبق من الرسل. لذلك يقول اللَّه سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] ولذلك يقص علينا القرآن الكريم أنباء المعارك التى قامت بين الرسل المؤيدين بمعجزات من اللَّه تعالى، وبين الكافرين وهذه القصص تنتهى دائمًا بانتصار المؤمنين على الكافرين، إلا أن الرسل السابقين لم يكلفوا هم ومن آمن بهم أن يقاتلوا من أجل نصرة الإيمان ويحاربوا الكفر. ولذلك كان اللَّه يعاقب المخالفين ويهلكهم. أما أمة الحبيب محمد رسول اللَّه ﷺ فقد عافاها اللَّه من الاستئصال، ببركة دعاء نبينا الحبيب ﷺ.

نبيُّ اللَّه شعيب عليه السلام

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤] قصة أخرى من القصص التى أخبرنا بها اللَّه تبارك وتعالى عن موكب الرسالات التى بدأت من عهد آدم عليه السلام، واختتمت برسالة النبى الخاتم محمد ﷺ.

كلمة ﴿مَدْيَنَ﴾ اسم قبيلة سكنت هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم. فكأن خطاب اللَّه تبارك وتعالى موجَّه إلى أهل هذه القبيلة أو القرية، أما نبيهم فهو شعيب عليه السلام، واللَّه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يخاطب المكان ويقصد به المكين، المكان هو البقعة من الأرض التى يقع فيها الحدث، والمكين هم أولئك الذين يقيمون فى هذا المكان. ولذلك تجد مثلا فى سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] هل مطلوب منا أن نسأل القرية أو نسأل أهل القرية؟ وهل نسأل العير أو الذين قدموا بالعير؟ المفروض أن نسأل أهل القرية والذين قدموا بالعير.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أى: وإلى أهل مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وشعيب عليه السلام ككل رسول جاء إلى قومه، اختير من أهله وعشيرته؛ ليكون معروفا لهم قبل الرسالة وبعد الرسالة، فيستطيعوا أن يشهدوا له قبل الرسالة بالخلق الكريم والصدق والأمانة، فيكون تكذيبهم له بعد الرسالة حجة عليهم وسببًا لهلاكهم، وتسقط حجتهم فى عدم تصديقه.

شعيب جاء ككل رسول بقضية التوحيد، وهى أن اعبدوا اللَّه وحده لا شريك له ولا إله غيره. هذه هى قمة الدعوة الإيمانية.. وحدانية الألوهية التى جاء بها كل الرسل.

شعيب حين أُرسل لقومه قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾. أى: اعبدوا الحق سبحانه وتعالى، والعبادة ليست هى الصلاة والصوم والزكاة والحج فقط. هذه هى أركان الإسلام، ولكن لا بد أن نتنبه إلى أن كل تكليف إيمانى لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٨٤] يعنى إياك أن تأخذ الأمر بـ «افعل ولا تفعل» إلا من اللّه سبحانه وتعالى، فلا تكليف من أحد آخر؛ لأن هناك إلها واحدا، وإياك أن تستدرك حكما على اللّه جل جلاله. وإلا فكأنك تقول: إن هذا الحكم فات على اللّه.. بمعنى أنه حكم جديد.

إذن.. فالأمر الأول لكل رسالة هو التوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ منذ آدم حتى خاتم المرسلين ﷺ، الدين فى أصله واحد، إلهنا إله واحد أحد، نتجه إليه جميعا. هذا هو جوهر الرسالات كلها والتى أكملتها وختمتها رسالة رسولنا محمد ﷺ.

❁❁❁

شعيب يطلب من قومه عدم الإفساد فى الأرض

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود] حينما جاء شعيب إلى قومه يطلب منهم ألا ينقصوا المكيال والميزان، لم يفطنوا إلى الحكمة الحقيقية فى ذلك. إن الذى يحكم البائع والمشترى هو المكيال والميزان، فإنك إذا كنت مشتريا فالمطلوب من البائع أن يعطيك حقك، من جانبك عليك أن تعطيه حقه. إذن فالقضية ليست قضية كتل يوزن بها، ولكنها قضية حقوق الناس، فيما بينهم فساعة ترى قضية المكيال والميزان قد اختلت فى مجتمع عليك أن تعرف أن المجتمع قد اتبع هواه، وأنه انصرف عن الحق، أى أنه مجتمع تضيع فيه حقوق الناس، ذلك أن الأمر المشهود من العدل بين الناس فى البيع والشراء هو: الكيل والميزان. ولكن كل الأمور التى تحدث فى الحياة معنوية وليست مادية فقط، فلا بد أن يطبق عليها مقياس الكيل والميزان.

ولكى لا يأخذ أحدٌ حق غيره لا بد من ميزان لكل حركة الحياة؛ حتى تأخذ الناس حقوقها بالكامل؛ وحتى لا يقوم العالم على الظلم فينتشر فيه السحت وأكل أموال الضعفاء والفتن وغير ذلك؛ ولأن الحياة كلها تمضى بميزان فالتعامل بين الناس غنيهم وفقيرهم، جاهلهم ومتعلمهم لا بد أن يتم بميزان، ولو اقتنع كل إنسان أنه أخذ حقه تمامًا لاعتدل المجتمع بكل ما فيه. والكيل والميزان يكون بالزيادة وبالنقص. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود] وهذان أمران مختلفان؛ لأن الكلام ليس فى المكيل أو الموزون ،وإنما الكلام فى المكيال والميزان سواء وفيته أم لم توفه. فالآية الأولى تنص على عدم الإنقاص، والثانية تنص على الوفاء.

على أننا لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ ما هو الخير فى هذه المعصية؟ نقول: إنه لا خير فى معصية أبدا، ولكن: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ لأن عندكم ما يكفيكم من مال لحياتكم، وما يغنيكم عن سرقة غيركم، فاكتفوا بالخير الذى أمدكم اللّه به، وليأخذ كل واحد منكم حقه. وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس، فالبائع.. يبيع صنفا واحدا أو صنفين، فهو إن غش فى صنف أو صنفين، سيغشه غيره فى كل ما يَشترِي وهو كثير. فإذا كنت مثلا قَصَّابًا[1] تُنقص الوزن فى اللحم، فسوف ينقص لك كلُّ من يبيعك كلما اشتريت تكون أنت الخاسر. فقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ لأن حقوق الناس تضيع هنا، واللّه وكيل على حقوق عباده جميعا، لا يظلم أحدا ولا يتقرب إليه أحدٌ إلا بالتقوى. ولذلك فإذا اختلس منك أحد حقا من حقوقك فعاتبْه، وإذا بغى عليك وظلمك فحاسبْه. ولذلك يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

إذن.. فالمسألة أن اللّه تعالى يسمع ويرى، وأن الميزان فى الحياة إذا اختل فسدت الحياة وضاعت الثقة بين الناس، حتى يقال فى بنى فلان رجل أمين.

ولذلك الحق سبحانه وتعالى فى سورة الرحمن يقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن].

فى هذه الآيات البينات، يلفتنا الحق سبحانه إلى أن الكون كله لا يستقيم إذا اختل الميزان فيه، ولا يظن ظان أن المقصود هنا ميزان الجرام والدرهم فقط؟ لا. إنما يقصد ميزان الحياة، فالعبرة بالميزان وليس بالموزون، فالميزان يجب أن يكون دقيقا فى كل الأمور.

---

(١) القصاب: الجزار المعجم الوسيط [٢/ ٧٣٧].

الحق تبارك وتعالى حين يقول: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] أى: عذاب يوم لن يفلت منه أحد، فإذا أفلَت فى الدنيا أو احتمى فيها بذى نفوذ، كان عذاب اللَّه تعالى ينتظره فى الآخرة، فعذاب الدنيا من الممكن أن يحتال البعض للنجاة منه، ولكن فى الآخرة لن ينفع شىء من هذا.

فى هذه الآية يقول: ﴿أَوْفُوا﴾ والاثنان مطلوبان؛ لأنه ليس المقصود هو المكيال وإنما الكيل بإطلاقه، وليس المقصود هو الموزون ولكنه الميزان بإطلاقه، فاعدل ولا تنقص ولا تزد، واقرأ قوله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين]، إذن.. فالمطلوب لا إفراط ولا تفريط، لا زيادة ولا نقص؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. أى بالعدل.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥] هذا كلام عام ليس فيه كيل ولا مكيال ولا ميزان ولا موزون، فى كل شىء خذ حقك وأعط الناس حقوقهم.

قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] البخس هو الضرر، إما بالنقص إذا كان للشىء وزن أو حجم أو كم أو كيل، وإما بإنقاص القيمة المعنوية للشىء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ من المعلوم أن الإنسان مطالب بعمارة الأرض وإصلاحها، وأقل الصلاح أن تترك الصالح على صلاحه، فإن استطعت أن ترقى به فافعل. وقول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تدل على أن المجتمع مأمور كله بعدم الإفساد فى الأرض، وبذلك يكون على كل واحد منا أن ينفذ ذلك على نفسه وأهل ولايته، إنما الآفة أن كل واحد منا يريد أن ينفذه على غيره.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى: ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير من كل ما تحصلون عليه من حرام. وأنت تتوهم أنك عندما تحصل على مال من حرام قد ربحت، ولكنك فى الحقيقة أخذت من المال الحلال بركته، فلو أبقيت مالك كله حلالاً لكان خيرا لك من أن تضيف إليه حراما؛ لأن الذى أخذ غير حقه من أى شىء يسلط اللَّه عليه أبوابا تنهب منه الزائد الذى لم يأخذه حلالا.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: إن كنتم مؤمنين بأن اللَّه رقيب عليكم، وأن اللَّه قيوم، وأنكم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا دُون أن يراكم فراقبوا اللَّه فى أعمالكم، واقنعوا بما آتاكم حلالا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أى: أنا لا أستطيع أن أحافظ عليكم من النار، بل كل واحد يحافظ على نفسه. ولذلك فإن كل عمل تعمله لا تنظر إلى قيمته الدنيوية، بل احرص على قيمته فى الآخرة. ومادمت قد رضيت ببقية من اللّه لها بركة. فهذا خير لك من الحرام الذى لا يأتى إلا بالشر، ولا يعطيك إلا كل ما يؤذيك فى الدنيا الآخرة.

❁❁❁

الغش أهلك أمة

ماذا كان داء قوم شعيب؟ الداء الذى كان منتشرا فيهم علمناه من قول اللّه تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء]. الكيل: ما يقدر به الشىء المكيل. ومثله «الكيلة» فى تقدير الحبوب. والميزان فى تقدير أوزان السلع والبضائع. هناك شىء يكال، وهناك شىء يوزن. ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ يعنى اجعلوا ما تكيلون به صحيحا ولا تغشوا فيه. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ المخسر: هو الذى يُخَسِّر الذى يقابله، إن كان يشترى فهو يزيد فى وزن السلعة التى يشتريها. وإن كان يبيع فهو يجعلها أنقص من وزنها الحقيقى. فالذى يقابله خسران سواء اشترى منه أو باع له، هو مخسر فى كلتا الحالتين.

قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ «زنوا» أى: اجعلوا آلة الوزن مضبوطة. «القسطاس» هو العدل المطلق الذى فى قدرة البشر. لماذا جاء بالكيل والميزان؟ هل وسائل العيار أو البيع والشراء هى الكيل والميزان فقط؟ لا.. فهناك أشياء كثيرة يمكن قياسها بالمتر أو بالذراع. المهم هو العدل فى أداء الاستيفاء فى كل شىء له تقدير.

الآيات ذكرت الكيل والميزان فقط؛ لأن الأمم فى ذلك الوقت كانت بدائية لا تعرف إلا هذين اللونين من التعامل. ونحن نعرف أن المبادلات كانت هى وسيلة البيع والشراء فى الأزمنة الماضية، ولذلك كان الإنسان بائعا ومشتريا فى نفس الوقت، يعرض سلعة يملكها ويأخذ مقابلها سلعة يحتاجها، وبالتالى لا يكون البائع بائعا على حدة، ولا المشترى مشتريا على حدة. ولم يعرف الناس البيع والشراء بأثمان إلا بعد صكّ العملة.

والسلع التى فيها مقايضة كان فيها انتفاع مباشر، كل واحد يقايض بالسلعة

التى يحتاج إليها. كل سلعة كان فيها بيع وشراء. ولذلك قال القرآن فى سورة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] القرآن قال: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ مع أنهم باعوه. وهكذا لو قدرت أن كل واحد فى الصفقة بائع ومشتر لقلت: شرى وباع. هذا النوع من التعامل الذى كان سائدا فى زمن شعيب عليه السلام ورد ذكره بتفصيل أكثر فى سورة كاملة هى سورة «المطففين» وفيها يقول الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين]، اكتال عليه وكال له.. ما الفرق بينهما؟ «كال» يعنى أعطى و«اكتال» أى: أن غيره يعطيه. إذا كانت الآية وصفتهم بأنهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ فما ذنبهم؟

اللوم عليه؛ لأنه يستوفى عندما يكون الأمر لنفسه وعندما يكون لغيره يطفف و«المطفف» هو الذى يأخذ شيئا طفيفا. فإذا كان الويل لمن أخذ شيئا يسيرا فكيف يكون عذاب من أخذ الكل؟ إذن.. فالويل للقوم الذين أرسل إليهم شعيب لأنهم كانوا يأخذون الوزن كاملا عندما يشترون لأنفسهم ويبيعونه بالنقص إذا كان لغيرهم. الأصل الشرعى فى البيع والشراء أن تعدل، فتوفى لنفسك عندما تشترى من غيرك، وتوفى لغيرك عندما يشترى منك. والحديث الشريف يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1]» فلا تكن أنانيا تحب لنفسك الخير وتكرهه لغيرك. هذا هو الحال المطلوب فى الأخذ والعطاء فى البيع والشراء. فما هو حال من يعطى أكثر، بمعنى إذا اشترى منه واحد قدرا معينا من السلع أعطى له زيادة عليه؟ مثل هذا، أجره على الله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

قول الحق سبحانه: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢] يدخل فيه ضرورة القياس المضبوط العادل أيضا. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ البخس معناه النقص. ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ حقوقهم.

الآيات تنهى عن النقص فى الكيل والميزان عند البيع والشراء. فما هو حال من يغتصب السلعة كلها؟ أو يتصرف فيها من غير أمر صاحبها؟ هذا كله يدخل فى إطار النهى عنه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾. إذن.. كل شىء ينقص بالأخذ منه، أو بغصبه، أو بالتصرف فيه عن غير رأى وإذن صاحبه، كل ذلك يسمى بخسا للشىء.

❁❁❁

(١) أخرجه البخارى [١٣] ومسلم [٤٥/ ٧١] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه.

سؤال قوم شعيب

قال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧] هنا نلاحظ أن قوم شعيب لم يقولوا له أإلهك أو أدينك يأمرك، وإنما قالوا أصلاتك تأمرك.. لماذا؟ لأن الصلاة هى الركن الدائم فى الإسلام الذى لا يسقط أبدا. فالإسلام بنى على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

إيتاء الزكاة يشترط فيه وجود فائض من المال، ولذلك فإن الزكاة تسقط عن الفقير، وصوم رمضان يشترط فيه الصحة وعدم السفر، فالمريض لا يصوم وكذلك المسافر لا يصوم. وحج البيت يشترط فيه الاستطاعة، فغير المستطيع يسقط عنه الحج.

إذن.. فالزكاة قد تسقط، والصوم قد يسقط، والحج قد يسقط، وقول: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه يكفى أن تقال مرة واحدة فى العمر، ولم يبق من أركان الإسلام إلا الصلاة. الركن الذى لا يسقط أبدا. ولذلك روى أن: «الصلاة عماد الدين[(١)]» والصلاة هى الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه خمس مرات كل يوم، ودوام الولاء للَّه لا يتوقف. فالمؤمن يصلى قائما، فإن عجز يصلى قاعدا، فإن عجز يصلى مضطجعا، فإن عجز عن الحركة يصلى إيماءً بعينيه وبرمش عينيه، ويجرى الصلاة على قلبه. حتى فى حالة الحرب والقتال دائر لا تسقط الصلاة ولكن تقام صلاة الخوف.

إذن.. فقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ لأن الصلاة هى الركن الدائم الذى لا يسقط أبدا، أعطاها اللَّه سبحانه فى التشريع، ما يناسب كل تكليفات الإسلام. وكان دين اللَّه من أوله إلى آخره، بوحى من اللَّه تعالى لجبريل، ثم ينزل جبريل بالوحى إلى رسول اللَّه ﷺ، إلا الصلاة استدعى اللَّه نبيه عليه الصلاة والسلام إلى سدرة المنتهى فى السماء السابعة، وهناك عند سدرة المنتهى كلف اللَّه تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالصلاة، فكانت وحدها بالتكليف المباشر لأهميتها وعظم أمرها.

سؤال قوم شعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ نعم الصلاة تأمر؛ لأنك إن أثبت لشىء حكما فإنك أثبت له مقابله، واللَّه سبحانه وتعالى يقول عن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ومادام الشىء له نهى فله

---

(١) من وصية الإمام على لولديه الحسن والحسين رضى الله عنهم، لما طعنه عدو الله ابن ملجم. رواه الطبرانى فى الكبير [١/ ٩٧/ ١٦٨].

أمر، إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلابد أنها تأمر بالإيمان وبالالتزام وبالمعروف، ولابد أنها تأمر بالخير والبر.

إذن.. فقول قوم شعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ كان لابد أن يقول لهم نعم صلاتى تأمرنى، إن أردت بالصلاة عماد الدين ورمزه، وبماذا تأمره الصلاة فى هذه الحالة؟ تأمره بألا يقلد آباءه ويقلد الناس تقليدا أعمى؛ لأن إيمان المقلد لا ينفع.

قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ هى رد على قول شعيب: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٨٤] وقولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ رد على قول شعيب: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ واللَّه سبحانه وتعالى قد حدد حركة الحياة التى تفسد فى الأرض، فلو أنه أباح الربا مثلا.. لازداد الغنى غنى، وازداد الفقير فقرا، وهذا ما نراه فى عالمنا اليوم، فالدول الغنية تزداد غنى، والدول الفقيرة تزداد فقرا، مما خلق فجوة كبيرة فى العالم تهدد الكتلتين: الغنية والفقيرة، وبدأت المؤتمرات فى محاولة للوصول إلى حل وسط، هذه إحدى نتائج الربا: الغنى الفاحش والفقر المدقع الذى يخل بميزان الحياة، وتنشأ عنه الحوادث والكوارث والإرهاب والعداء المستحكم بين الشعوب والأفراد. ولذلك قيد اللَّه حركة المال هنا. كذلك تقييد حركة المال فى الميزان حتى لا ينتشر الفساد فى المجتمع، وتبنى العمارة فتسقط فوق ساكنيها، وتفسد المرافق ويعانى الناس.

إذن.. فقوانين اللَّه سبحانه وتعالى فى حكم المال وحركته فى الحياة هى لصالح البشر، وكان يجب عليهم أن يطالبوا بها.

وكلام قوم شعيب هنا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ موجودة هنا على شكل تهكم، فالمنافقون مثلا كما قال عنهم اللَّه سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] كيف يكذب المنافقون وقد شهدوا أن محمدًا رسول اللَّه؟، اللَّه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن المنافقين ينطقون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، فهم بألسنتهم يشهدون لمحمد ﷺ بالرسالة، ولكن هذا الكلام لا يوافق ما فى قلوبهم من كفر.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] ومادام قوم شعيب يعترفون بأنه الحليم الرشيد، كان من الأولى أن يتبعوا آياته؛ لأنه جاءهم بالحق، ولكنهم لا يريدون الحق؛ لأنهم يريدون أن يوافقهم على عبادة غير اللَّه ونقص المكيال والميزان، ويتعجبون كيف يأمرهم بترك هذا وهو الحليم والرشيد.

وأسلوب التهكم يأتى كثيراً فى القرآن الكريم، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى عن عذاب ذلك الرجل، الذى طغى وتجبر وماذا يحدث له فى الآخر، الملائكة يقولون لهذا الرجل وهم يعذبونه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أيذيقونه كل هذه الذلة، ثم يقولون له أنت العزيز الكريم.

وفى موقف آخر عن أهل النار: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ [الكهف: ٢٩] فكأنهم يبشرونهم بأنهم ماداموا قد استجاروا، واستغاثوا من العذاب، فإن اللّه سيغيثهم، ثم يأتى الغوث، واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩] إذن.. فهم استغاثوا من العذاب، فجاءتهم الإغاثة أشد من العذاب.

وقول قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هم يتهكمون، فلو كانوا يؤمنون فعلا بأنه حليم ورشيد لاتبعوه وعلموا أنه لا يمكن أن يأتى بافتراءات أو أكاذيب.

❁❁❁

تودد شعيب لقومه لعلهم يؤمنون

قال شعيب عليه السلام لقومه كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ [هود: ٨٨] أى: يا قوم إن كنت على يقين وحجة ومنهج صادق من ربى، وأعطانى الخير كله من رزق وعلم، وأعطانى قبل ذلك كله النبوة. ثم جاء شعيب بالحجة الدامغة لصاحب المذهب الحق، صاحب الرسالة الصحيحة: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾؛ ذلك أن صاحب المنهج المعوج والرسالة غير الصادقة، يأمر الناس أن يفعلوا شيئاً وهو يفعل عكسه، يأمرهم مثلا بأن يتبرعوا بأموالهم للفقراء ثم يأخذها هو ليصبح غنيًا، يأمرهم بأن يقاتلوا ويختبئ هو فى مكان أمين، فإذا انتصروا خرج وأخذ الغنائم بلا قتال. وهكذا كل أوامره لا ينفذها هو، وكل نواهيه يفعلها هو، فكأن شعيبًا يقول لقومه: أنا آمركم ألا تنقصوا المكيال والميزان، ثم بعد ذلك أحله لنفسى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ هناك خالفه إلى كذا وخالفه عن كذا، فهنا أنا لا أريدكم أن تتركوا نقص المكيال والميزان لأذهب أنا إليه. فمثلاً إذا وجدت إنساناً يشرب الخمر، ونهيته ثم شربت أنت، فأنت خالفته إلى ما نهيت عنه. ولكن إذا قمت وتوضأت وأذن للصلاة وفات الوقت ولم تصل، ثم جئت إلى رجل تأمره

بالصلاة، قال لك تأمرنى بأمر وأنت لا تفعله. إذن.. فالمخالفة هنا عن أن تأمره به.

شعيب يقول: اللَّه سبحانه وتعالى اصطفانى بالنبوة وتلقيت الوحى منه، وربى كلفنى بإبلاغ المنهج وسأكون أول مطبق له، ولن تجدونى أفعل أبداً ما أنهاكم عن فعله.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: لا أريد إلا الصلاح.. صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتى، واللَّه لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى: أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقا بين العمل وبين أن توفق فى العمل، قد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة للَّه سبحانه وتعالى، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق؛ لأن الأعمال بالنيات وبالإخلاص للَّه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ حين تسمع إنساناً يقول: على اللَّه توكلت، قل له: أتوكلت على اللَّه وحده؟ فإن قال لك: وعليك أيضاً، فاعلم أن مسألته لن تقضى، أما إذا توكل على اللَّه وحده فلابد أن يقضى اللَّه حاجته، ذلك مثل الرجل الذى يدخل المسجد؛ لأنه يريد أن يتكلم مع فلان الذى دخل إلى المسجد فى أمر من أمور الدنيا، ساعة يحدث هذا يجب أن تقول له إن اللَّه لن يقضى هذا الأمر، تماماً كالذى جاء يبحث عن ناقته التى ضلت، جاء يبحث عنها فى المسجد، فقال له رسول اللَّه ﷺ ما معناه: لا ردها اللَّه عليك [١]. والذى جاء لعقد صفقة فى المسجد قال له عليه الصلاة والسلام: لا اربح اللَّه تجارتك [٢].

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ غير قول: «توكلت عليه» فإذا قلت توكلت على اللَّه، قد تعنى أنك توكلت على اللَّه وعلى فلان وعلى فلان. ولكن قولك عليه توكلت، أى: لا أتوكل على أحد غيره. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. أى أرجع إليه، فاللَّه سبحانه وتعالى خلقنا من عدم فى البداية ثم إليه مرجعنا جميعا فى النهاية.

وما دامت المسألة أن التوفيق بيد اللَّه، وعليه التوكل وإليه العودة، فأنت غير محتاج إلى غير اللَّه جل جلاله، ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ يقول: «إنى لأستغفر اللَّه فى اليوم مائة مرة» [٣].

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٥٦٨/ ٧٩] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه.
(٢) جزء من حديث رواه الترمذى [١٣٢١] وصححه الألبانى [١٠٦٦].
(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٧٠٢/ ٤١] عن الأغر المزنى رضى اللَّه تعالى عنه.

يقول شعيب لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]. قوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يعنى لا يجعلنكم تجرمون. أى: عداوتكم لى واختلافكم معى لا يجعلكم تنحرفون إلى الإجرام؛ لأن عداء قد نشب بينى وبينكم، أنى جئتكم بمنهج من اللّه تعالى وأنتم تريدون منهجاً من عند أنفسكم، فالعداوة من هنا بدأت، لأنكم تريدون عبادة الأصنام ونقصا فى المكيال والميزان وإفسادا فى الأرض؟!. الخلاف واضح بين المنهجين وشعيب يحذر قومه: لا تقفوا من منهج اللّه موقف العداء؛ لأن الذين سبقوكم عندما فعلوا ذلك أنزل اللّه عليهم العذاب، منهم من أغرقوا بالطوفان، ومنهم أهلكوا بالصاعقة ومنهم من أخذتهم الصيحة، لا تغريكم العداوة لى أن تجرموا جرماً يصيبكم به مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح.

ويذكرهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] أى: أن قوم لوط قريبون منكم مكاناً وزماناً، ولو أنكم فكرتم قليلاً لعدتم إلى اللّه تبارك وتعالى، ذلك أنه إذا كان العبد مصراً على شىء من المعصية، فاللّه تعالى لا يغلق أمامه باب التوبة أبداً. يكون العبد عاصياً ولكن كما أخبرنا رسول اللّه ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فإنفلتت منه وعليها طعامه وشرابه[1]» وانظر إلى الصورة جيداً لتتأمل عمقها، عندما يكون هناك إنسان معه بعير «جمل» وعليه كل ما يملك، طعامه وماله وملابسه وشرابه، ثم يتوه منه البعير فى صحراء قاحلة ليس فيها أى شىء، ويبحث الرجل عنه فلا يجده، وينام ثم يستيقظ فيجد البعير الذى عليه كل ما يملكه واقفا إلى جواره، كيف تكون فرحته بعودة هذا البعير إليه؟ اللّه سبحانه وتعالى أشد فرحًا بتوبة عبده من صاحب هذا البعير بعودة بعيره.

ولذلك يقول شعيب لقومه كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] أى: رغم كل ما فعلتموه فإن باب التوبة مفتوح، ولا يتطلب منكم إلا أن تستغفروه. ومادمتم طلبتم المغفرة فسيقبلكم فتوبوا إليه، أى استغفروا من الذنوب التى سبقت، وتوبوا إليه فلا تعودوا لهذه الذنوب أبدًا. واللّه تبارك وتعالى رحيم ودود، لا يرد من يقف ببابه، رحمته سبقت عذابه، ومغفرته تسع الذنوب جميعاً. واللّه رحيم واسع المغفرة، ودود محب لعباده.

كان المفروض وقد لفتهم شعيب إلى الطريق إلى اللّه سبحانه وتعالى والعودة

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٧/٢٧٤٧] عن أنس رضى اللّه تعالى عنه.

إليه أن يعودوا؛ لأن اللَّه تبارك وتعالى محب لهم عطوف عليهم. وفى الحديث القدسى يقول اللَّه عز وجل: «يا ابن آدم لا تخف من ذى سلطان مادام سلطانى باقياً فسلطانى لا ينفد أبداً. يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبداً. يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب وضمنت لك رزقك فلا تتعب. فوعزتى وجلالى إن رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندى محموداً. وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البرية. ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك. يا ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعْىَ بخلقهن أيعيينى رغيف عيش أسوقه لك. يا ابن آدم لا تسألنى رزق غد كما لم أطلب منك عمل غد. يا ابن آدم أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محباً[1]».

❁❁❁

جرأة قوم شعيب عليه

عندما لفت شعيب قومه إلى أن اللَّه سبحانه وتعالى رحيم ودود وطلب منهم أن يستغفروه ليغفر لهم، ويتوبوا إليه.. ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١] لا نفقه أى: لا نفهم، فعندما يكون القلب مشغولاً بالكفر لا يوجد فيه مكان للإيمان، ولكى يدخل الإيمان إلى القلب لابد أن يخرج منه الكفر أولاً. ولذلك فإن الإنسان المشحون قلبه بالكفر لا يدخل قلبه الحق، فهم قالوا لشعيب: إننا لا نفهم شيئاً مما تقوله،

---

(١) لم أقف عليه فيما عندى من مراجع. وفى معناه عند أحمد [٢/ ٣٥٨]: بإسناد صحيح عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال النبى ﷺ: قال اللَّه عز وجل: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا، ولم أسد فقرك». والترمذى [٢٤٦٦] بمثله إلا أنه قال: «إلا تفعل ملأت يدك شغلا»، وابن حبان فى صحيحه [٣٩٣] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير [١٩١٤] معزوا لأحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم، كما ذكره فى السلسلة الصحيحة [١٣٥٩] وعدد طرقه وقال: ووجدت للحديث شاهداً قوياً عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول ربكم تبارك وتعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى، وأملأ يدك رزقاً، يا ابن آدم! لا تباعد منى فأملأ قلبك فقرا، وأملأ يدك شغلا». وأخرجه الحاكم [٤/ ٣٢٦] من طريق سلام بن أبى مطيع ثنا معاوية ابن قرة عنه. وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبى.

ثم أضافوا: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أى أنت ضعيف لا قوة لك بحيث تستطيع أن تتحمل هذا الرجم، وهذا إقرار بإعجاز النبوة؛ لأنه مع أن شعيبًا ضعيف وهم أقوياء، إلا أنهم لم يقدروا عليه، فالضعيف يصرخ فى وجوههم بالحقيقة، والأقوياء يقولون: أنت ضعيف ولكنهم لا يفعلون شيئاً، بل يتعللون.

ولذلك قالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١] رهطك يعنى أهلك، والرهط: الجماعة من الرجال خاصة من ثلاثة إلى تسعة، ورهط الرجل: قومه وقبيلته. لماذا يخشى قوم شعيب أهل هذا النبى ويمتنعون عن قتله؟ إما أن يكون هؤلاء الأهل مع الكفار، ولذلك فهم يخافون إن اعتدوا على شعيب أن يغضب قومه الذين هم مع الكفار ويعلنوا إيمانهم، وحينئذ يقوى جانب شعيب وقد يتبعه آخرون. واللَّه سبحانه وتعالى يسخر الكفر دائما لخدمة الإيمان، عم رسول اللَّه ﷺ الذى كفله ورباه هو أبو طالب، الذى ظل على كفره ومات كافراً، ولكنه قال لابن أخيه: قل ما شئت من الدعوة وأنا معك، ورغم أن أبا طالب وقف حامياً لرسول اللَّه ﷺ من أذى كفار مكة وعلى رأسهم قريش، فإنه ظل على دينه ومات كما قال على ملة عبد المطلب.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أى: نحن لا نفهم ما تقوله والحقيقة أنهم لا يريدون أن يفهموا، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ لا تتحمل وقوفا أمامنا. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أى لولا أهلك لقتلناك رجماً بالحجارة. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى أنت لا تعز علينا، ليس لك منعة عندنا ولا عزة، نستطيع أن نأتى بك فى أى وقت، وأن نفعل بك ما نشاء.

ماذا كان جواب شعيب؟ هل خاف وهرب وهو الضعيف الواقف وحده وهم الأقوياء بعددهم وبتضامنهم وبقدرتهم؟

قام شعيب عليه السلام يذكر قومه بمن هو أقوى منهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢] أى إنكم تخافون عائلتى وهم عدة أفراد، فتمتنعون عن إيذائى خوفاً منهم، ولكنكم لا تخافون اللَّه القادر على أن يهلككم بينما أنا رسول اللَّه، يحمينى اللَّه بقوته وقدرته. كان المفروض أن يتذكروا اللَّه أولاً، وكان قوم شعيب يعتقدون أنهم ماداموا قد قالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ فإنه سيحتمى برهطه؛ لأنهم هم الحماية له، ولكن الذى قال: على اللَّه توكلت لا يحتمى بأحد غير اللَّه سبحانه وتعالى، بل إنه يلوم قومه، كيف يخشون قوة عدد محدود من الرجال ولا يخشون قوة اللَّه؟!

وقوله تعالى: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]، أى: أنتم جاملتم رهطى، وإكراماً لهم لم ترجمونى، ولكنكم نسيتم اللّه سبحانه وتعالى، الذى تأتى منه العزة جميعاً، وقال: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ ساعة تقول: أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك يعنى أنك جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ولم تحسب له حساباً ولم تخشه، شعيب يقول لهم: أنتم لم تأبهوا بعزة اللّه سبحانه وتعالى، وبحماية اللّه وبقدرة اللّه، ولكنكم التفتم إلى خلق لا حول لهم ولا قوة، ثم يلفتهم إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل ما يفعلونه ظاهراً وباطناً فيقول: ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى: يعلم ما تفعلونه علم إحاطة لا يخفى عليه شىء، ولكنكم أنتم نسيتموه وخفتم بعض خلقه أو رهطاً من خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قلنا إن هناك عملاً وهناك فعلا العمل يطلق على ما يحدث، أى شىء يحدث يقال له عمل، وجوارح الإنسان كثيرة اختص اللّه سبحانه وتعالى منها اللسان بالقول والجوارح كلها بالفعل، فالقول هو عمل اللسان، والفعل هو عمل كل الجوارح. عمل العين وعمل الأذن وعمل اليد وعمل القدم وكل شىء. ولكن إذا طابق القول الفعل، أى عندما نقول قولا يقابله فعل يكون هذا عملاً. ولذلك نجد قول الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف] وهكذا فصل الحق سبحانه وتعالى بين الفعل والقول، ولكن لماذا اختص الحق تبارك وتعالى اللسان بالقول وكل الجوارح بالفعل؟ لأن القول هو وسيلة الإعلام الأولى عن اللّه جل جلاله.

ثم يقول شعيب لهم كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣] نلاحظ هنا أن شعيباً قد أخذ لهجة التهديد.. لماذا؟ لأنهم خافوا من أهله ونسوا اللّه تعالى، فأراد أن يعلمهم أنه مستند إلى أقوى قوة، وهى التى خلقت هذا الكون، وهو يأوى إلى هذا الركن الشديد. وكأنه يقول لهم افعلوا ما تستطيعون، افعلوا ما فى وسعكم، وسأفعل أيضاً ما فى وسعى، فأنا آخذ أوامرى من اللّه تعالى الذى بعثنى، وأنتم بشر ضعاف من خلقه واللّه هو القوى. ولذلك فأنا مستغيث به، اعملوا أنتم على قدر إمكاناتكم على قدر ما تستطيع الدنيا أن تعطيكم بأسبابها، وأنا سأعمل، سأعمل ماذا؟ سيبشر بالمنهج وبما جاءه من اللّه، ولن أسكت عن الدعوة، وسوف تعلمون قريباً من يأتيه العذاب والخزى فى

الدنيا والآخرة. سيبين لنا الزمن المستقبل من الذى يأتيه العذاب والخزى، ومن الذى يكون له النصر.

والخزى هو الفضيحة بين الخلق، وإصابة النفس بالهوان هى الفضيحة فى ذات النفس. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾. أى من الذين سيأتيهم العذاب الذى سيفضحهم؟ ومن هو الكاذب ومن هو الصادق؟ وشعيب يقصد هنا طبعاً أن هؤلاء الذين رفضوا الإيمان وكذبوه سوف يأتيهم العذاب، وأنهم سيعلمون من هو صادق ومن هو كاذب، فهم سيسلط اللّه عليهم عذابا يفضحهم بين الخلق ويهينهم فى أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾. كان المنطق أن يقال ومن هو صادق. ولكن الحق سبحانه وتعالى جاراهم فى منطقهم، فلم يقل ومن هو صادق، ولكنه قال: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]. وذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كيف يمكن أن يقال للقوم الكافرين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. كيف هذا؟ إن رسول اللّه ﷺ ومن معه يقينا على الهدى والمسألة لا تحتاج إلى تشكيك، إنما هذا اسمه مجاراة الخصم. يريد اللّه سبحانه وتعالى أن يقول: إن الضلال والهدى لا يجتمعان أبداً. ونحن مختلفون لا نجتمع على رأى، فلابد أن أحدنا على هدى والآخر على ضلال، وسنترك الزمن يكشف لنا من على هدى ومن على ضلال.

❁❁❁

تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين

ماذا قال الكافرون من قوم شعيب عندما جاءهم هذا الترغيب وهذا الترهيب من اللّه تعالى؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف]. الملأ الذين استكبروا هم السادة والأعيان والمترفون الذين يقفون أمام كل دعوة حق؛ لأنها ستسلبهم الميزات التى يتمتعون بها من أكل حقوق الناس وظلمهم. ماذا قال الذين استكبروا؟ قالوا: لنخرجنك يا شعيب من قريتنا. وهكذا ارتكبوا نفس المعصية التى ارتكبها قوم لوط حين قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] وكلمة قرية قد أخذت الآن معنى غير معناها الحقيقى، فهى الآن البلدة

الصغيرة التى يسكنها عدد محدود من الناس. ولكن القرية فى اللغة معناها: المكان الذى تتوافر فيه كل متطلبات الحياة، بدليل أننا نقول على مكة المكرمة أم القرى.

ومعنى تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين أنهم سيخرجونهم من المكان الذى تتوافر فيه كل متطلبات الحياة إلى مكان قفر لا يصلح للحياة، فكأن المترفين من الذين يقاومون المنهج قد أعطوا لشعيب ومن آمن معه خيارين. إما أن يعودوا كفاراً أو يخرجوا من القرية، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] معناه أن الذين آمنوا بشعيب كانوا يعتنقون ملة أهل القرية، ثم خرجوا منها وآمنوا باللّه وبرسالة شعيب، وهم يريدونهم أن يعودوا إلى الكفر.

ولكن لابد أن نتنبه هنا إلى أن الخطاب موجه لشعيب؛ لأن الخطاب أخذ شعيبا والذين آمنوا معه. ومن آمن مع شعيب من الجائز أنه كان على ملة القوم أولاً ثم آمن، ويطلبون منه أن يعود مرة أخرى إلى ملتهم، أما شعيب نفسه فلا يعقل أنه كان على ملة القوم. ولكن الخطاب هنا هو تغليب للكثرة، فالكثرة من المؤمنين مع شعيب كانوا فى ملة القوم، ثم آمنوا ويطلبون منهم العودة، واللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وهنا لابد أن نتنبه إلى قول الحق: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فعندما كان هؤلاء فى الظلمات لم تكن قد بلغتهم الرسالة، فكيف يصفهم اللّه سبحانه وتعالى بالذين آمنوا أى نفى عنهم الكفر، ثم يقول إنه أخرجهم من الظلمات إلى النور. نقول إن التكليف بالنسبة للإنسان موجود فى خلقه مختاراً.

فالإنسان مادام قد خلق مختارًا فهو يستطيع أن يتبع سبيل الإيمان أو أن يتبع سبيل الكفر، وكونه يختار اتباع الإيمان يكون قد ترك اتباع الكفر، فكأنه خرج من قدرة اختياره لسبيل الكفر واتبع قدرة اختياره لطريق الإيمان. ومن هنا فإن خروج الإنسان من الظلمات إلى النور لا يعنى بالضرورة أنه كان كافراً، إنما يعنى أنه خرج من قدرته على اختيار سبيل الكفر، إلى قدرته على اختيار طريق الإيمان. وهنا يستقيم المعنى ويصبح المقصود بالنسبة لشعيب: أنه خرج من القدرة على اختيار سبيل عدم الإيمان إلى القدرة على اختيار طريق الإيمان، وهذا ما يحدث بالنسبة للمؤمنين.

❁❁❁

شعيب يحتكم إلى اللَّه تعالى

بماذا رد شعيب عليه السلام على القوم الكافرين: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ . . . ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف]. نلاحظ هنا أن شعيبا والمؤمنين معه قد أعلنوا كراهيتهم للعودة إلى الكفر، ونلاحظ أيضاً أن الكفار فى كلامهم قد نسوا اللَّه، فخيروا شعيبا بين أن يعود لملتهم أو يخرج من قريتهم. ونسوا أن اللَّه سبحانه وتعالى قد قسم شيئاً غير هذين الاختيارين، كأن يكون قد قسم أن يهلك هؤلاء الكافرين ويبقى المؤمنون فى القرية، فلا يخرج المؤمنون من القرية ولا يعودون إلى ملة الكافرين.

وقول شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: أننا ضيقنا النطاق على قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، فالكذب هو أن تقول كلاما غير الواقع، فإذا كنت لا تعرف الحقيقة فهذا مطلق كذب، وإذا كنت تعرف الحقيقة فهذا افتراء كذب، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] نقول: إن المنافقين كذبوا حين قالوا: نشهد إنك لرسول اللَّه، والشهادة هى أن يوافق اللسان ما فى القلب. والمنافقون شهدوا ولكن قلوبهم منكرة لهذه الشهادة، فهم يقولونها باللسان وقلوبهم منكرة لها فقد كذبوا حين قالوا نشهد.

إذن.. فقوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩] دليل على أن المؤمنين يعرفون أن دين اللَّه هو الحق. ولذلك إذا عادوا لملة الكافرين يكونون قد افتروا الكذب؛ لأنهم يعرفون الحقيقة ويقولون غيرها. وقول الحق: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ أى أن اختيارنا كان إلى جانب الحق فنجونا. أما قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩] هذا الكلام يذكرنا الحق فيه بطلاقة القدرة للَّه تعالى، فاللَّه يفعل ما يشاء متى شاء ولا قيد على قدرته، ورسول اللَّه ﷺ قال: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع اللَّه عز وجل يقلبها[1]». والخليل إبراهيم قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فكأنه سلم للحق سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة فى كونه، فما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقول شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أعطى طلاقة

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٣/ ١١٢] وقال الاناؤوط إسناده قوى على شرط مسلم.

القدرة للحق سبحانه وتعالى وفى نفس الوقت اللّه سبحانه وتعالى لا يشاء العودة للكفر لمعصوم، وقول الحق: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] أى: أن اللّه سبحانه وتعالى يعلم كل ما يتم وما يقع الآن من المستكبرين. وإذا كان مع هؤلاء المترفين قوة الدنيا فإن شعيبا والذين آمنوا معه قد توكلوا على اللّه وأسلموا أمرهم له. ومادام معهم اللّه فشعيب والمؤمنون هم الأقوى.. وهم المنصورون.

ثم بعد ذلك ماذا قال شعيب والمؤمنون بعد أن أعلنوا أنهم توكلوا على اللّه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ حينما نسمع كلمة فتح نفهم أن هناك شيئاً مغلقا ونريد أن نزيل إغلاقه وأن نفتحه. والحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة يوسف عندما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم وهم يحملون البضائع التى أحضروها: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥] ومعنى فتح المتاع هنا أنهم أزالوا كل ما كانوا يحيطون به أمتعتهم من سلاسل وأحبال، هذا فتح حسى. ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]. ومادام هناك أبواب يكون الفتح حسيا. ولكن هناك فتحا معنويا فى قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦] وهذا حديث اليهود ليخفوا عن المسلمين ما أنزل اللّه فى التوراة، فكأنما إنزال التوراة من اللّه فتح ولكنه فتح معنوى، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] وقوله جل جلاله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وكان القاضى فيما مضى يسمى الفاتح لأنه يزيل الإشكالات. ولكن قول شعيب وقومه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ أى: يارب احكم بيننا وبين قومنا وأنت لا تحكم إلا بالحق: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

ماذا رد الكافرون من قوم شعيب؟ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] الخطاب هنا من الكافرين لمن؟ للذين آمنوا أم للذين كفروا، مادام المتحدثون هم الكفار، ومادام المؤمنون قد اتبعوا شعيبا وآمنوا به يكون الخطاب هنا من أئمة الكفر لأتباعهم، فلابد أن الكافرين قد وجدوا أتباعهم بدأوا يميلون إلى الإيمان مما رأوه من قوة وشجاعة وثبات الذين معه. ولذلك حذرهم سادتهم بقولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ نلاحظ هنا استخدام اللام الشرطية، وعندما تستخدم اللام الشرطية لابد أن يأتى جواب

الشرط، وجواب الشرط هنا ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ماذا سيخسر هؤلاء الأتباع، سيخسرون إيواء السادة لهم وسيخسرون نزواتهم التى يقيدها المنهج.

❁❁❁

قوم شعيب يستعجلون العذاب

بعد أن فَصَّلَ شعيب عليه السلام لقومه ما هو مطلوب منهم، ماذا كان ردهم على نبيهم؟ قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء] نحن قلنا: المسحر هو من سحره سواه، وهذه مبالغة فى الفعل لأن الفعل سحر مفعوله مسحور. لكن سَحَّرَ - بتشديد الحاء وفتحها - مفعولها مسحر وهى للمبالغة فى السحر. والمعنى أنهم يصفون رسولهم بأن عقله مختل وأن الناس قد سحروه. ومادمت مسحورا فلن نسمع لكلامك لأنه كلام مجنون. وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. قوم صالح عليه السلام قالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ . وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

وقوم شعيب قالوا له هنا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ . وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فزادت هنا الواو فى قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فهناك اتفاق فى اتهام الرسل فى شيئين بأنهم مسحورون وأنهم مثلهم. ومادام مسحرا فلن يسمعوا له لأنه مجنون، ومادام بشرا مثلهم فلماذا يتميز عليهم بالرسالة؟ هم كانوا يقولون لأنبيائهم ذلك ويطلبون منهم الآيات الدالة على صدق رسالتهم. ولذلك قالوا لشعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فأنت بشر مثلنا وما نظنك إلا من الكاذبين. وإن كنت صادقا فيما تقول فأسقط علينا قطع العذاب من السماء.

قال تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فهم يستعجلون نزول العذاب عليهم ،والعجيب أن كل قوم كذبوا رسولهم واستعجلوا نزول العذاب عليهم، وحينما يحل بهم العذاب يدعون اللّه أن يكشفه عنهم أو أن ينظرهم إلى وقت آخر أو يعطيهم الفرصة للتوبة. والكسف جمع كسفة مثل قطع وقطعة، وكلمة كسف جاءت على لسان جميع الذين كذبوا الرسل، فالكفار فى مكة قالوا لرسول اللّه ﷺ مثل ذلك: واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء] وفى آية أخرى قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟

﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهذا دليل على حماقتهم؛ لأنهم لو كانوا عقلاء لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب، واستعجلوا العقوبة.

ولكن ماذا كان رد نبى اللّه شعيب عليهم؟: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أى ربى يعلم أحوالكم ومطلع على سرائركم، فإن كان سبحانه يعلم أن فى قلوبكم خيرا، وأنكم ستندمون وتتوبون إليه سيؤخر عنكم العذاب ويحفظكم منه وإذا علم أنكم مستمرون على كفركم وعنادكم فسينزل عليكم العقاب الذى تستحقونه من عذاب الهلاك والاستئصال. فأنا لا أعلم ما سيفعله بكم ربى ولكنى أكل الأمر لصاحب الأمر الذى يعلم أمرى وأمركم. ولكن ماذا كان موقفهم؟ استمروا فى تكذيبهم.

❁❁❁

هلاك قوم شعيب بالصيحة

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] وفى آية أخرى يقول الحق: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] بدون تاء التأنيث، نقول: إن القرآن جاء على لغة قريش، وليس هذا لعلو قريش، ولكن لأن لغة قريش مصفاة من لغات جميع القبائل؛ لأن القبائل كلها كانت تأتى للأسواق والحج، فتأخذ قريش صفوة اللغة. ولكن ليس معنى هذا أن اللغات الأخرى تطمس، لا.. فيؤتى من كل لغة بكلمة أو كلمات حتى لا تأخذ قريش سيادة إسلامية بلغة القرآن كما كان لها سيادة جاهلية، فتأتى مرة تاء التأنيث فى المؤنث الحقيقى، فيقال: الصيحة، والغرفة، والحجرة هذا مؤنث صحيح، وهناك مؤنث مجازى، أى يتجاوزون فيه فمرة تأتى تاء التأنيث ومرة لا تأتى، فصل بين التاء وبين الفاعل، الفاصل يكون قائماً مقام التأنيث، فمرة يقول: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ومرة يقول: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

قول الحق: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ كلمة ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ تدل دائماً على العذاب. ولذلك نجد فى آية: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] وفى آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٨] وفى آية أخرى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨] ووقت الصبح هو وقت الهجعة بالنسبة للغافل النائم طوال الليل، ومازال ناعساً فى نومه: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ كان من

المفروض أن يقول: دارهم وليس ديارهم. ولكن القرآن احتاط أن يكون واحد منهم فى مكان آخر أو فى عمل أو فى زيارة. ولذلك قال ﴿فِي دِيَرِهِمْ﴾، ولقد كان أحدهم فى مكة فلم تصبه الحجارة؛ لأن اللّه جعل بيته آمنا، وعندما عاد كانت تنتظره، فكأنها كانت تتبعهم أو تنتظرهم. وقوله تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ الجيم والثاء حينما يوجدان، بصرف النظر عن الحرف الثالث الموجود فى الوسط، مثل جدث الجيم والثاء تعنى شيئاً من الهلاك أو شيئاً من المصائب. فقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. أى ملقون على بطونهم ليس بهم حراك.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] أى: على ركبتيها دليل الذل والخضوع، والجثة لا تقال إلا للميت، وكل إنسان يكون له شأن فى الدنيا. ولكن فى اللحظة التى يموت فيها، ينسى كل شىء حتى اسمه، ويلقب بالجثة، فيقال غسلوا الجثة، كفنوا الجثة، ادفنوا الجثة.. انتهى من الدنيا فإذا وضع فى النعش سمى الخشبة. فإذا وضع فى القبر نسيه الناس، لا تقبله إلا أمه الأرض، تمتص كل ما ينزل منه من صديد وروائح كريهة، كل الناس تتأبى عليه إلا أمه الأرض، هى التى تتقبل منه كل شىء، والإنسان وهو حى مادام فيه الروح يكون إنسانا. فإذا مات وخرجت الروح يصبح جثة.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أى: كأنهم لم يوجدوا فيها، تمر على هذه الديار فلا تشعر أنهم كانوا يعيشون، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] أى كأن لم يعش فيها أحد من قبل ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [يونس: ٩٥] ﴿أَلَا﴾ عندما تسمعها فى القرآن أو أى كلام عربى، أداة استفتاح يفتتح بها الكلام وليس لها دلالة، وإنما هى لتنبيه السامع، والمتكلم قبل أن يتكلم تكون هناك نسبة ذهنية فى عقله. فإذا بدأ الكلام فإنه متنبه لما يقول، ولكن السامع قد يكون فى عقله شىء آخر، أى لا يكون منتبها لما سيقال. ولذلك فعندما يبدأ المتكلم الكلام ينبه السامع بكلمة ﴿أَلَا﴾. ولذلك تجد فى القرآن الكريم آيات كثيرة على هذا النحو منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وقوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] كلها لتنبيه السامع.

قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: ٩٥] كلمة ﴿أَلَا بُعْدًا﴾، معناها أنك تدعو عليه بالبعد، أى أنهم مروا وهلكوا وانتهوا، فبعدا لكل ما كان منهم. مادة الباء والعين والدال، تستعمل استعمالين: مرة تريد بها الفراق مثل لقاء لا تحب أن يقع فتقول: بعدا، وفى الموت تقول: بعدا: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أى: أن الذى أخفى ثموداً، وما فعلت وما حدث لها، يخفى قوم شعيب.

نلاحظ هنا فى عهود هذه الرسالات أن العالم كان منعزلا حتى أنه تم إرسال رسولين فى وقت واحد، هما إبراهيم ولوط عليهما السلام، وكان كل منهما يعالج داء من الداءات فى وقت واحد. ولكن سبق فى علم اللّه أن العالم سيتوحد، وبالتالى ستصبح الأمراض والداءات واحدة. ولذلك جاءت وحدة المعالجة ممثلة فى رسالة رسول اللّه ﷺ. ونحن نرى الآن كيف أن العالم يصبح أصغر فأصغر كل يوم، لا من ناحية الحجم، ولكن من ناحية وحدة الداءات ووحدة المعالجة.

ويقول الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١] و ﴿الرَّجْفَةُ﴾ هى الهزة العنيفة التى ترج الإنسان رجا، و ﴿جَاثِمِينَ﴾ أى: جالسين على ركبهم وقد ماتوا على هذه الهيئة إمعانا فى إذلالهم فهم استكبروا فى الأرض فأراد الحق أن يميتهم أذلاء.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢] أى أن القرية التى كانت غنية بمن كذبوا شعيبا، وغنى بالمكان أى أقام فيه مدة طويلة. و ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: خسروا كل شىء، جاه الدنيا ونعيم الآخرة، ماذا فعل شعيب بعد أن أخذ اللّه الكافرين بالعذاب، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣] فكأن شعيبا قال للكافرين بعد أن أخذتهم الصيحة: أنه قد أبلغهم رسالة اللّه ونصح لهم وألح عليهم أن يعودوا إلى رشدهم فهو لم يقصر فى حقهم.

❁❁❁

أصحاب الأيكة

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ [الحجر: ٧٨] الأيكة مفرد أيك، والأيك هو الشجر الكثير الملتف والمثمر. وشعيب عليه السلام أُرسل إلى أهل مدين وإلى أهل الأيكة. ومدين بلد، أما أصحاب الأيكة فكانوا مثل ضاحية بينهم

وبين البحر، وكان فيها الشجر الملتف. ولذلك ربنا سبحانه قال عن «سدوم» وهى بلد قوم لوط: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦] ولكن هنا قال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قد يقول قائل: من أين جاءت هذه التثنية مع أنه يتحدث عن أصحاب الأيكة فقط؟ نقول: إنه ضم إليها مدين أيضا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، الإمام هو ما يؤتم به فى الحركات والسكنات، وما يؤتم به فى الفتيا وفى الرأى. وكذلك يطلق على الطريق المؤدى إلى الغايات المختلفة «إمام» لأنه يدلنى على الأماكن التى أريدها. وله بدء وله منتهى، وفى كل جزئية منه «من» و «إلى» التى نرقمها الآن بالكيلو مترات. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أى: مدين وأصحاب الأيكة، ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أى طريق واضح، هذا الطريق الواضح يأتم به السائر.

وقد قال الحق سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] لما استمر القوم فى تكذيبهم لرسولهم وتمسكوا بضلالهم وكفرهم عاقبهم اللّه بعذاب يوم الظلة، وهو عذاب مشهور حيث سلط اللّه عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام. وحجز عنهم الريح إلا بمقدار ما يمسك رمق الحياة فصارت حياتهم لا تطاق من شدة الحر، فالتمسوا غمامة تظلهم رأوها قادمة فى الجو فهرعوا نحوها مسرعين فلما اقتربوا منها أنزلت عليهم نارا أحرقتهم وأبادتهم.

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف] وعذاب يوم الظلة كان عذابا عظيما ليس لقوته وإحاطته بهم فقط، ولكن لأنه عذاب جاء بعد طمع فى راحة؛ لأنهم ظنوا أن هذا السحاب سيظلهم وينزل منه المطر الذى يرويهم ويرطب أجواءهم فكان منه العذاب الذى أحرقهم وأبادهم.

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠] قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من مواكب الرسل، وما حدث للرسل وما حدث لأممهم.

ويقول تعالى فى موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] فالمعنى: أن فى ذلك الذى

حدثتم به من قصص الأنبياء السابقين مع أممهم وما آلوا إليه من نصر الأنبياء ودحر الكافرين عبرة لكم؛ لأن معنى «آية» أى عبرة، ونحن قلنا كلمة عبرة أى تعبر من شىء إلى شىء، فهم قوم عندهم لدد وخصومة؛ فحتى يعتبروا، عليهم أن يعبروا من هذا الموقف المعادى إلى الإيمان. ولذلك نقول: «نحن نعبر الطريق» لأننا ننتقل من مكان إلى مكان. فالعبرة أن تنتقل من حال أنت عليها من لدد وجحود وكبرياء عن اتباع الرسل إلى الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠] حماية لأن منهم من قد يهتدى إلى طريق الحق ويؤمن.

obeikandl.com

نبيُّ اللَّه يعقوب عليه السلام

قال ابن كثير: ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج «رفقا» بنت بتوابيل فى حياة أبيه، كان عمره أربعين سنة، وأنها كانت عاقراً فدعا اللَّه لها فحملت، فولدت غلامين توأمين: أولهما اسمه «عيصو» وهو الذى تسميه العرب «العيص» وهو والد الروم. والثانى خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه «يعقوب» وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل.

قالوا: وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب، لأنه بكره ؛ وكانت أمهما «رفقا» تحب يعقوب أكثر ؛ لأنه الأصغر.

قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاماً، وأمره أن يذهب فيصطاد له صيدًا ويطبخه له ؛ ليبارك عليه ويدعو له، وكان العيص صاحب صيد، فذهب يبتغى ذلك، فأمرت «رفقا» ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه، ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه، ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له، فقامت فألبسته ثياب أخيه، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين ؛ لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك. فلما جاء به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك. فضمه إليه وجَسَّه وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب، وأما الجس والثياب فالعيص. فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدرًا، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده، وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره والده فقربه إليه، فقال له، ما هذا يا بنى؟ قال: هذا الطعام الذى اشتهيته، فقال: أما جئتنى به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا واللَّه، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك، فوجد فى نفسه عليه وجدًا كثيرًا.

وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى، أن يجعل لذريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم.

فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها «لابان» الذى بأرض حران، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه، وأن يتزوج من بناته، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له. ففعل.

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء فى موضع فنام فيه، وأخذ حجرًا فوضعه تحت رأسه ونام، فرأى فى نومه ذلك معراجًا منصوباً من السماء إلى الأرض، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون، والرب تبارك وتعالى يخاطبه، ويقول له إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك.

فلما هب من نومه فرح بما رأى، ونذر للّه لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين فى هذا الموضع معبدًا للّه عز وجل، وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون للّه عشره. ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به، وسمى ذلك الموضع: «بيت إيل» أى بيت اللّه، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى.

قالوا: فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران، إذا له ابنتان: اسم الكبرى: «ليا» واسم الصغرى «راحيل» وكانت أحسنهما وأجملهما، فخطبها من خاله فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين. فلما مضت المدة على خاله «لابان» صنع طعامًا وجمع الناس عليه، وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى «ليا» وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فلما أصبح يعقوب إذا هي «ليا» فقال لخاله غدرت بى؟ وأنت إنما خطبت إليك «راحيل». فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها.

فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها. وكان سائغاً فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة. وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ؛ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته؛ لأنه معصوم، ووهب «لابان» لكل واحدة من ابنتيه جارية، فوهب ل«ليا» جارية اسمها «زلفى» ووهب ل «راحيل» جارية اسمها «بلهى». وجبر اللّه تعالى ضعف «ليا» بأن وهب لها أولادًا، فكان أول من ولدت ليعقوب، روبيل، ثم شمعون، ثم لاوى، ثم يهوذا، فغارت عند ذلك «راحيل» وكانت لا تحبل، فوهبت ليعقوب جاريتها «بلهى» فوطئها فحملت، وولدت له غلاماً سمته «دان» وحملت وولدت غلاماً آخر سمته «نيفتالى» فعمدت عند ذلك «ليا» فوهبت جاريتها «زلفى» ليعقوب عليه السلام فولدت له: جاد، وأشير، غلامين ذكرين ثم حملت «ليا» أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته «إيساخر» ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته «زابلون» ثم حملت وولدت بنتاً سمتها «دينا» فصار لها سبعة من يعقوب.

ثم دعت اللّه تعالى «راحيل» وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب، فسمع اللّه نداءها وأجاب دعاءها، فحملت من نبى اللّه يعقوب، فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته «يوسف».

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى، فصار مدة مقامه عشرين سنة.

فطلب يعقوب من خاله «لابان» أن يسرحه ليمر إلى أهله، فقال له خاله: إنى قد بورك لى بسببك فسلنى من مالى ما شئت. فقال: تعطينى كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبْقَع وكل حمل مُلْمع أبيض بسواد، وكل أملح ببياض، وكل أجْلَح أبيض من المعز. فقال: نعم.

فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس، لئلا يولد شىء من الحملان على هذه الصفات، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم.

قالوا: فعمد يعقوب عليه السلام إلى قطبان رطبة بيض من لوز ولب، فكان يقشرها بلقًا

وينصبها فى مساقى الغنم من المياه، لتنظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها، فتصير ألوان حملانها كذلك.

وهذا يكون من باب خوارق العادات، وينتظم فى سلك المعجزات. فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد، وتغير له وجه خاله وبنيه، وكأنهم انحصروا منه.

وأوحى اللّه تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعده بأن يكون معه فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته، فتحمل بأهله وماله، وسرقت راحيل أصنام أبيها.

فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم، لحقهم «لابان» وقومه، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه فى خروجه بغير علمه، وهلا أعلمه فيخرجهم فى فرح ومزاهر وطبول، وحتى يودع بناته وأولادهن. ولم أخذوا أصنامه معهم؟

ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئاً، وكانت راحيل قد جعلتهن فى برذعة الجمل وهى تحتها، فلم تقم، واعتذرت بأنها طامث. فلم يقدر عليهن.

فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها: «جلعاد» على أنه لا يهين بناته، ولا يتزوج عليهن، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر، لا لابان ولا يعقوب، وعملا طعاماً وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر، وتفارقوا راجعين إلى بلادهم. فلما اقترب يعقوب من أرض «ساعير» تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم. وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له. فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة راجل.

فخشى يعقوب من ذلك، ودعا اللّه عز وجل وصلى له، وتضرع إليه وتمسكن لديه، وناشده عهده ووعده الذى وعده به. وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص، وأعد لأخيه هدية عظيمة وهى: مائتا شاة، وعشرون تيساً، ومائتا نعجة، وعشرون كبشاً، وثلاثون لقحة، وأربعون بقرة، وعشرة من الثيران، وعشرون أتانا، وعشرة من الحمر، وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده. وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة، فإذا لقيهم العيص فقال للأول: لمن أنت؟ ولمن هذه معك؟ فليقل: لعبدك يعقوب، أهداها لسيدى العيص، وليقل الذى بعده كذلك، وكذلك الذى بعده، وكذلك الذى بعده، ويقول كل منهم: وهو جاء بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهارًا، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية، تبدى له ملك من الملائكة فى صورة رجل، فظنه يعقوب رجلاً من الناس، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه، فظهر عليه يعقوب فيما يرى، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب، فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال: يعقوب. قال: لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل. فقال

له يعقوب: ومن أنت؟ وما اسمك فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله. فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء!

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة راجل، فتقدم أمام أهله. فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات، وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان. وكان مشروعاً لهم، كما سجدت الملائكة لآدم تحية له، وكما سجد إخوة يوسف وأبوه له كما سيأتى.

فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى، ورفع العيص عينيه، ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب اللّه لعبدك، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له. ودنت «ليا» وبنوها فسجدوا له، ودنت «راحيل» وابنها يوسف فخرا سجدًا له. وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها. ورجع العيص فتقدم أمامه، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأغنام والمواشى والعبيد قاصدين جبال «ساعير».

فلما مر بساحور ابتنى له بيتاً، ولدوابه ظلالاً، ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية، واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة، فضرب هنالك فسطاطه، وابتنى مذبحاً فسماه «إيل» إله إسرائيل وأمره اللّه ببنائه ليستعلن له فيه. وهو بيت المقدس اليوم، الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام. وهو مكان الصخرة التى علمها بوضع الدهن عليهما قبل ذلك، كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة «دينا» بنت يعقوب بنت «ليا» وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذى قهرها على نفسها، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتها: إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا، فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم. فلما كان يوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم، مضافاً إلى كفرهم، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة.

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً هو «بنيامين» إلا أنها جهدت فى طلقها به جهدًا شديداً وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب فى «أفراث» وهى بيت لحم، وصنع يعقوب على قبرها حجرًا، وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم، وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً، فمن «ليا» روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وإيساخر وزابلون. ومن «راحيل»: يوسف وبنيامين. ومن أمة «راحيل» دان و«نيفتالى»، ومن أمة «ليا» جاد وأشير عليهم السلام.

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها. كما قدمنا.

قصص الأنبياء [٢٥٩-٢٦٤].

نبيُّ اللَّه يوسف عليه السلام

قصة يوسف جاءت بالشخص وهو يوسف عليه السلام، تدور حوله أحداث كثيرة: رأى الشمس والقمر والنجوم تسجد له، تآمر عليه إخوته وألقوه فى الجب شراه السيارة بثمن بخس وباعوه للعزيز. امرأة العزيز أعجبت به وراودته عن نفسه دخل السجن، ثم أصبح حاكمًا لمصر، إذن فهو شخص دارت حوله أحداث، وفى نفس الوقت هى أحداث دارت حولها أشخاص إخوته وماذا فعل الحقد بهم. امرأة العزيز وكيف كادت له، أبوه وكيف واجه فقده. الصراع حول السلطة والنفوذ، كل هذا موجود فى قصة يوسف فهى جاءت بشخص حوله أحداث وبحدث حوله أشخاص.

وقصة يوسف عليه السلام تكلمت عنها الكتب التى سبقت القرآن الكريم، ولكن عندما جاءت القصة فى القرآن، ترك علماء اليهود كتبهم وأخذوا يقرأونها فى القرآن الكريم؛ لأن القصة فى القرآن فيها إعجاز صياغة الأداء والقدرة على هز ما هو داخل النفس، وإظهار المواقف المختلفة فى النفس البشرية، كل هذا فى قمة أداء البيان فهى أحسن القصص؛ لأن الكل يعرف تاريخها وأحداثها؛ لأنها نزلت فى الكتب السابقة.

ثم هى أحسن القصص، لأنها اشتملت على عبر متعددة، فى الطفولة وفى الشباب وفى الشيخوخة، والحقد بين الأخوة والتمرد على الأب وخداعه، وحب كل من ربى يوسف له، ودخوله السجن مظلومًا ومع ذلك لم يهتز، ثم بعد ذلك عفو يوسف عن إخوته. ولذلك فهى أحسن القصص تزيح غطاء الصدور وتعرفنا ماذا يدور فى القلوب. وهى تعرض للنفس البشرية فى العمر الزمنى والعمر العقلى والعمر العاطفى. وأطوار الإنسان حينما يكون مغلوبًا على أمره، وحينما يكون قويا يستطيع أن يسيطر.

وهى أحسن القصص لأنها رويت بأشكال مختلفة، ولكن القرآن جاء بها بإعجاز فى البلاغة، والقصة إعجاز لا يقدر عليه أسلوب البشر.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] ومعنى من قبله أى من قبل أن

يوحى إلى محمد ﷺ هذا القرآن. كان ﷺ معروفًا بالصفات الخلقية العالية، وهى الصدق والأمانة، والوصفان مطلوبان فى الرسالة؛ لأنه مادام لا يكذب على الناس فإنه لا يكذب على اللَّه، ومادام أمينًا فإنه لن يخون الرسالة وسينقلها بصدق وأمانة، وقد كان أبو بكر الصديق والمؤمنون إذا قال رسول اللَّه ﷺ شيئًا يقولون: إن كان قد قال فقد صدق.

وعندما حدثت معجزة الإسراء والمعراج، وقفت بعض العقول مشدوهة أمام هذه المعجزة، وإذا بأبى بكر الصديق رضى اللَّه تعالى عنه يقول دون أن يناقش الوقائع: «إن كان رسول اللَّه ﷺ قال فقد صدق» وعندما قيل لأبى بكر: كيف تقول صدق؟ قال: أنصدقه فى خبر السماء ونكذبه فى هذا؟

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾. الغافل لا يُتهم؛ لأنه لا يعلم القضية فهو ﷺ لم يقرأ كتابًا ولم يجلس إلى معلم فمن أين يعرف قصة يوسف؟، ومن بين معجزات رسول اللَّه ﷺ أن اليهود قالوا للكفار اسألوه عن: إخوة يوسف، وقوم يعقوب عندما خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر، وعندما سألوه هذا السؤال أنزل اللَّه سبحانه وتعالى عليه آيات قصة يوسف، فدهشوا وقالوا: هذا لم يقرأ ولم يكتب فمن علَّمه؟

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الوحى إعلام بخفاء بحيث لايفهم إلا الموحى والموحى إليه، واللَّه سبحانه وتعالى يوحى للملائكة وللرسل وللمؤمنين، ويوحى للأرض وللسماء وللنمل وللنحل، ولكن الوحى الشرعى أى الوحى المتعارف عليه هو وحى أخذ بمعناه الشرعى وحى من اللَّه لرسله.

ويقول اللَّه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] كلمة يا أبت أصلها يا أبى ولكن يقال فى اللغة العربية يا أبى ويا أبت ويا أبتاه.

ورؤيا يوسف للشمس والقمر والكواكب تتميز بإعجاز؛ لأننا جميعًا نرى الشمس والقمر والكواكب ولكن الشىء العجيب فى هذه الرؤيا أنه رأى الشمس والقمر يجتمعان معًا! نقول: إنه لا القمر ولا النجوم نراها مع الشمس. فالشمس بضوئها الشديد تحجب هذا كله عن أعيننا. شئ آخر فى هذه الرؤيا: أن يوسف رأى أحد عشر كوكبًا وعرف عددها، ومعنى ذلك أنها واضحة. إذن فالإعجاز الأول اجتماع الشمس والقمر معًا، والإعجاز الثانى رؤيته لأحد عشر كوكبًا من دون الكواكب التى تملأ السماء، ولم يقل يوسف عليه السلام رأيتهم ساجدين أى

الشمس والقمر والكواكب، وإنما قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فكأنه رآها أولاً ثم رآها مرة ثانية وهى تسجد له ذلك لأنك إذا قلت: هذا الشئ سجد لى، فلابد أن ترى هذا الشئ قبل أن يسجد ثم تراه ساجدًا؛ لأنه لو رآهم من أول الأمر ساجدين فقد يكون هذا وصفهم، وليس هناك سجود ولكنه لابد أنه رآهم بدون سجود، ثم رآهم يسجدون له.

ولقد تكررت كلمة رأى فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وفى قوله جل جلاله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وتكرار كلمة رأى هنا أظهر لنا أنه رأى الشمس والقمر والكواكب أولاً، وقام بِعَدِّ الكواكب حتى عرف أن عددها أحد عشر كوكبًا، تدل على أن الكواكب تميزت من دون كواكب السماء، وقوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ لها معنى: فهو لم يرهم ساجدين على إطلاقها فقد تكون ظاهرة طبيعية أو أى شئ من الظواهر الفلكية، ولكن يوسف عليه السلام قال إنهم كانوا ساجدين له، فلابد أنه رأى فيهم من مظاهر الخضوع لذاته ما جعله يتأكد أن السجود له أو أنهم يسجدون له، و ﴿سَاجِدِينَ﴾ جمع مذكر سالم ولا يجمع المذكر السالم إلا إذا كان للعاقل، والشمس والقمر والكواكب ليسوا عاقلين نقول: أرآهم يوسف يسجدون له، ولا يكون عندهم عقل؟

ما هى مهمة العقل؟ أن يختار بين البدائل ويرى مصالح الدين ومصالح الدنيا، وأسمى آيات الخضوع فى الدين هو السجود، ولكن هل سجدت الشمس والقمر والكواكب ليوسف من نفسها أو بأمر يوسف؟ لا، بل سجدت بأمر اللَّه تعالى سجود التكريم، لا سجود العبادة تمامًا كسجود الملائكة لآدم، وما داموا قد سجدوا فعبر عنهم بصيغة سجود العقلاء، وهم ليسوا عاقلين لك أنت، ولكن عاقلين عن ربهم.

واقرأوا قول الحق تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق] أذنت من الإذن أى سمعت من اللَّه، فمجرد أن سمعت أطاعت وعقلت، وانشقت؛ والكون كله مكون من عوالم اللَّه تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. ونحن البشر مع أننا نتفاهم بلغة اللسان، ولكن إذا التقى اثنان منا لا يتكلمان لغة واحدة، لا يتفاهمان إلا بواسطة مترجم يعرف اللغتين، هذا فى لغة الإنسان اللغة اللسانية، فإذا كانت اللغة ليست لغة لسان فمن المستحيل أن تفهمها، ولذلك فنحن لا نفهم لغة الحيوان ولا لغة النبات ولا لغة الجماد ،إلا إذا أفهم اللَّه سبحانه بعض خلقه هذه اللغات.

ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٩٧] والجبال تسبح مع داود ومع غير داود فهى مسبحة دائمًا، ولكن اللَّه تعالى أفهم داود تسبيح الجبال وجعل تسبيحها يوافق تسبيحه، فكل ما فى هذا الكون من أعلى الكائنات إلى أدنى الكائنات مسبح للَّه تعالى، ولكننا لا نفهم تسبيحهم، فإن علمنا اللَّه نفهم، وإن لم يعلمنا لا نفهم.

اللَّه سبحانه وتعالى علَّم سليمان منطق الطير فكأن للطير منطقًا، ألم يبتسم سليمان عندما سمع النملة تتكلم كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ . . . ﴿١٩﴾﴾ [النمل]، إذن فكل شئ له لغة والذى يفهم كل هذه اللغات هو خالقها وخالق لغاتها. إذن فسجود الشمس والقمر والكواكب كما رآها يوسف فى المنام سجود تكريم وليس سجود عبادة، وسجود لأمر اللَّه تعالى وليس سجودًا لأمر يوسف.

ويعقوب عليه السلام أبو يوسف قال له: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ [يوسف: ٥] ومعناها يا ابنى وعندما تخاطب ابنك تقول له يا بنى؛ لأن الخطاب للابن يخرج من القلب، وإذا كان الخطاب ليوسف وهو صغير السن تكون العاطفة فيه أكبر، وتحس بعاطفة الأب القوية تجاه يوسف التى أثارت حقد أولاده، واقرأ قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] إذن فيوسف قال يا أبت ويعقوب قال له يا بنى دليل على قوة العاطفة التى تربط بينهما وكلما أصاب الإنسان شىء مفزع أسرع إلى من يحبه ليقص عليه ما حدث، وقال الأب يابنى وهو لفظ مملوء بالحنان والعطف، يعطينا الإحساس بأن يوسف ما زال صغيرًا وأنه ليس له ذاتية ولكنه محتاج إلى حكمة الأب ونصيحته.

الأب الممتلئ قلبه حنانًا ،خاف على ابنه من حقد إخوته وهو يعلم شعورهم نحوه؛ لذلك أسرع يقول له: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] كلمة: ﴿رُؤْيَاكَ﴾ لفتتنا إلى أنها رؤيا؛ لأن يوسف رأى الشمس والقمر والكواكب ساجدين له، والشمس والقمر والكواكب لا تسجد لأحد.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ تلفتنا إلى أنها رؤيا منام؛ لأن اللغة من دقتها تجعل رأى واحدة، ولكن يختلف المصدر فيها باختلاف من يرى، أرأيت وأنت مستيقظ أم وأنت نائم؟ إن رأيت وأنت مستيقظ تقول: رأيت رؤية، وإن رأيت وأنت نائم فقل: رأيت رؤيا، الأولى بالتاء المربوطة والثانية بالألف.

والرؤيا هى مصدر رأى فيها اتفاق، فأنت رأيت فى المنام كما ترى فى اليقظة هذا رأى وهذا رأى. إذن فهناك التقاء فى أنه رأى، ولكن الاختلاف فى حالة الرائى أهو يقظان أم نائم؟ ولقد فرق اللَّه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بين الرؤيا فى المنام والرؤية فى اليقظة، إلا فى آية واحدة عندما أسرى برسول اللَّه ﷺ إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى سدرة المنتهى. قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وهذه الآية كانت مثار جدل، يستشهد بها من قال إن الإسراء والمعراج تم فى المنام؛ لأن اللَّه تبارك وتعالى وصفه بأنه رؤيا، وقالوا لو كان فى اليقظة لقال رؤية بالتاء. نقول لمن يروج هذا الكلام: أنت لم تفهم عن ربك؛ فاللَّه سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن ما رآه رسول اللَّه ﷺ رؤية العين فى معجزة الإسراء والمعراج شئ عجيب، لا يحدث حتى فى الأحلام، ولكنها ليست أحلامًا بدليل أن اللَّه تعالى قال: ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

وهل إذا حدّث إنسان إنسانًا آخر بأنه رأى فى المنام كذا وكذا أيكون هذا فتنة لأى شخص آخر؟ هل إذا قال الإنسان إنه رأى فى المنام أشياء لا يصدقها عقل أيكذبه أحد؟ طبعًا لا. إذن فما دامت ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فلابد أن تكون رؤية يقظة.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾. أى يعقوب يقول ليوسف: أنا مأمون عليك، ولكن إخوتك ليسوا مأمونين عليك، إذا رويتها لى أرشدتك للصالح فيه، وإذا رويتها لإخوتك حقدوا عليك، ولو أن يوسف رواها لإخوته لعرفوا تفسيرها ولزاد حقدهم عليه وكراهيتهم له، ويعقوب بما آتاه اللَّه من علم يعرف أن هذه الرؤيا ستتحقق؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، وإخوة يوسف وهم أولاد يعقوب هم أسباط ولا نأخذ موقفهم من يوسف ليكون فى قلوبنا شىء ضدهم؛ لأن هؤلاء من خيار البشر، ولكنهم لم يكونوا أشرارًا؛ لأن الشرير هو من يتصاعد عنده السوء، فإذا كان هناك شرير غضب على إنسان فإنه يقول: عندما أقابله سأضربه ثم يقول: سأحطم عظامه من الضرب ثم يتصاعد فى الشر، ولا يقول: أقتله، ثم يقول: سأضربه ثم يقول: سأوبخه أو سأعفو عنه. إخوة يوسف قالوا: اقتلوا يوسف، ثم تصاعدوا فى الخير فقالوا: اطرحوه أرضًا يعيش فى الصحراء بعيدًا، ثم تصاعدوا فى الخير فقالوا: ألقوه فى غياهب الجب يلتقطه بعض السيارة. إذن فهم ليسوا أشرارًا. الحق سبحانه يقول: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ معنى الكيد: احتيال مستور لمن لا تقوى على مواجهته، إذن فلا يكيد إلا الضعيف، أما القوى فإنه يواجه.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أى كما أراك ربك هذه الرؤيا التى أنبأتك بأنه سيكون لك شأن عظيم بالنسبة لإخوتك. ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ أى ينزل عليك من حمايته ما يعطيك الأمان ويحفظك من كيد إخوتك، بل يجعل هذا الكيد لصالحك أى لصالح يوسف عليه السلام فيعلمه تأويل الأحاديث، ويجعل أصحاب الجاه والنفوذ والسلطان يلتفتون له، ثم بعد ذلك يصير حفيظًا لخزائن الأرض حين يعم الجدب والمجاعة، ثم يصبح عزيز مصر وحاكمها.

وقول الحق تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ وتمام النعمة ليس بنعم الدنيا ولكن بالنعمة الكبرى، بأنه سيكون رسولاً وهذه النعمة هى نعمة الرسالة لا تسلب منه أبدًا؛ لأننا نعيش فى عالم متغيِّر، هناك أشياء تأتى ثم تُنزع ولكن الرسالة والملك الذى سيأتى ليوسف عليه السلام لن ينزع منه.

واللَّه سبحانه وتعالى سيتم نعمته عليه، بأن يصل نعيم الدنيا بنعيم الآخرة، فهو مُنَعَّمٌ فى دنياه، وفى الآخرة مع الرسل أصحاب المقام العالى، فكما أنعم اللَّه عليه بالرؤيا ليجتبيه ويحميه من كل سوء ويعلمه من تأويل الأحاديث، أتم عليه النعمة بالرسالة.

ومعنى تأويل الشىء معرفة معناه أو ما سيؤول إليه، والإنسان حينما يرى رؤيا فى المنام تأتى فى كثير من الأحيان بشكل غير مفهوم، بحيث يحتار من رآها فى تفسيرها، بالنسبة ليوسف عليه السلام تأتى بإلهام من اللَّه تعالى، ولذلك لا يأتى بشر ويقول: إنه يستطيع أن يعلمك علم تفسير الأحلام أو أن هناك علمًا خاصًا بتفسير الأحلام، فالرؤيا لا يفسرها إلا إلهامًا من اللَّه سبحانه وتعالى أو شفافية خاصة ولكنها ليست علمًا بشرياً.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفت يوسف إلى أن ما سيفعله به إخوته ليست عداوة بينهم وبينه، بل هى زلة ستنتهى، وسيعود الإخوة متحابين وستعمهم جميعًا نعمة اللَّه.

ولذلك قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى أن اللَّه أعلم حيث يجعل رسالته، وحكيم كل ما يفعله يتم بحكمة إلهية بالغة.

❁❁❁

فى يوسف وإخوته آيات للسائلين

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى كان فى أمر يوسف وإخوته؛ لأن ﴿فِي﴾ تدل على الظرفية فكأن القصة ستدور حول يوسف؛ موضوعها وأحداثها هو يوسف وإخوته. ويوسف اسم أعجمى وليس عربيا؛ فهو ممنوع من الصرف لو كان اسمًا عربيا لقال اللَّه سبحانه: «فى يُوسُفِ» لأن ﴿فِي﴾ حرف جر، ولكن يوسف ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة.

فقوله تعالى: ﴿آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] والآيات جمع آية. والآية هى الأمر العجيب اللافت للنظر ولو أن الإنسان نظر فيه لوجد فيه أشياء كثيرة.

إن كلمة: «آية» ترد فى القرآن بثلاثة معان: آيات كونية، وآيات هى المعجزات التى يؤيد اللَّه سبحانه وتعالى بها رسله لتثبت صدق بلاغهم عن اللَّه، وآيات القرآن وهى التى تحمل لنا أحكام المنهج.

والآيات الموجودة فى سورة يوسف من آيات العجائب، التى تثبت القدرة للَّه تعالى، وأنه جل جلاله هو الخالق والفاعل والمسيطر، فيوسف عليه السلام يلقى فى الجب، ربما كان المقصود بهذا أن ينتهى أمره بالنسبة لأبيه وإخوته، ولكن إلقاءه فى الجب جعله اللَّه سببًا لكى يأخذه عزيز مصر؛ ليُربى فى أعز بيت فى مصر ثم يصير له شأن فى الحكم.

إن إخوة يوسف كانوا يكيدون له لكى يبعدوه عن أبيهم، فنصره اللَّه عليهم وأعاده إلى أبيه، ولقد جاءت قصص الأنبياء؛ سلوى لرسول اللَّه ﷺ وتثبيتًا له.

وقوله تعالى: ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ تدل على أن هناك من سأل؟ فمن الذى سأل؟ إنهم اليهود بعثوا من قريش من يسأل محمدًا عليه الصلاة والسلام عن قصة يوسف وإخوته. وهم لثقتهم أن رسول اللَّه ﷺ لم يقرأ شيئًا ولم يجلس إلى معلم وهو أمى، اعتقدوا أنهم لو سألوه مثل هذا السؤال لأحرجوه، ولقال لا أعرف شيئًا أو أتى بقصة من خياله، تختلف مع ما ذكر فى الكتب السابقة.

ولكنهم تعجبوا عندما نزلت سورة يوسف تحكى كل شىء بالتفصيل وبإتقان وإحكام، وهى تروى لهم العجائب التى حدثت ليوسف وإخوته.

والقصة من أولها إلى آخرها، قد تستغرق ساعة أو أكثر فى قراءتها. رسول اللَّه ﷺ عندما نزل عليه الوحى بالسورة رواها للصحابة، وطلب منهم أن يحفظوها ويكتبوها، ثم تمر سنة ويأتى رسول اللَّه ﷺ ليقرأ قصة يوسف فلا يغير فيها حرفًا واحدًا.

ولو أنك طلبت من إنسان أن يردد ما قاله بعد يوم واحد ما استطاع أن يأتى بنفس الألفاظ ولا بنفس الكلام. ولكن اللَّه سبحانه وتعالى يقول لرسوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ . . . ۝٧﴾ [الأعلى] وما دام اللَّه سبحانه وتعالى قد قال لرسوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾. فمعنى ذلك أنه لن ينسى ولا حرفًا واحدًا.

❁❁❁

إيثار يعقوب ليوسف وأخيه

اللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] فلاحظ هنا أن اللَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وقبل ذلك قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] إن الإخوة ثلاثة أقسام: قسم قد يكون من ناحية الأب والأم، وقسم قد يكون من ناحية الأب دون الأم، وقسم قد يكون من ناحية الأم دون الأب.

قوله تعالى: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾، فلابد أنهما شقيقان: والباقون أولاد زوجة أو زوجات أخريات، ولقد قالوا: إن أولاد يعقوب كانوا اثنى عشر. اثنان منهم أخوان شقيقان هما يوسف وأخوه، والباقون أولاد الزوجات الأخريات فيكون مجموعهم اثنى عشر، ستة إخوة من واحدة، وأربعة من سريتين هما زلفى وبهلى. ولما ماتت ليا زوجته الأولى تزوج بأختها أراحيل، وأنجب منها يوسف وبنيامين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ﴾ اللام موطئة للقسم، أى أنهم يقولون: واللَّه ليوسف، فاللام دلت على القسم، والمعنى واللَّه ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، لماذا أتى بالقسم؟ القسم لا يأتى إلا بصدد إنكار؛ لأن هذه القضية قضية الحقد على يوسف ومحاولة التخلص منه، الإخوة اختلفوا فيها: واحد قال نقتله، والثانى قال: نطرحه فى الصحراء، والثالث قال: نلقيه فى الجب يلتقطه بعض السيارة. كل هذا مجمعه أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم، وهنا لابد أن يأتى القسم ليؤكد هذا الحب، ولكنهم لم يقولوا: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾، ولكن من غفلتهم البشرية قالوا: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وكان هذا هو السبب فى حب الأب ليوسف وأخيه؛ لأنهما صغيران.

وهذه مسألة أوجدها اللَّه تعالى فى قلوب البشر، دون اختيار منهم حتى فى الحيوانات مادام الابن صغيرًا وضعيفًا وفى حاجة إلى الرعاية، فإنه يتمتع بحماية الأب والأم حتى يكبر، ولذلك عندما سألوا المرأة الأنمارية: أى أولادك أحب

إليك؟ قالت: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها. قالوا لها: فمن تحبين أكثر؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يعود، والمريض حتى يشفى.

إذن.. فالضعيف يتوجه إليه الحنان أكثر وهذه نراها فى واقع الحياة، والابن الصغير أحب دائمًا إلى أبويه عمن هم أكبر منه. ويقولون: إن هذا من عدل اللَّه سبحانه وتعالى، ذلك أنه مهما عاش الولدان مع أبيهما فإن الصغير قد تمتع بخير أبيه سنوات أقل من الكبير؛ فيعوضه اللَّه سبحانه وتعالى بزيادة الحنان عن قصر المدة. وإذا كانت امرأة لها ولدان: ولد غنى يقوم بحاجتها وولد فقير لا يأتى بشئ فقلبها يكون مع الفقير، والحب مسألة عاطفية لا تقنين لها ولا تكليف فيها، ولذلك نجد القرآن الكريم يجردنا من هذه العاطفة فى الحكم بين الناس، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فاللَّه سبحانه وتعالى حرص فى هذه الآية الكريمة لا على أن يقول أبغض من تحب، أو أحب من تبغض، وإنما طلب منا الحق سبحانه أن لا نجعل عواطفنا تتدخل فى العدل فى الحكم بين الناس. قد يعترض البعض ويقول إن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين[1]» نقول له: إن عمر رضى اللَّه تعالى عنه قال: يا رسول اللَّه إنى أحبك عن ولدى وعن مالى، أما عن نفسى فلا. ولكن رسول اللَّه ﷺ كرر نفس الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». فرأى عمر فى تكرار الحديث إلزام عقيدة وتكليف؛ فأدرك أنه ليس حب العاطفة وإنما هو حب العقل، فقال: يا رسول اللَّه الآن أحبك أكثر من نفسى فقال له رسول اللَّه ﷺ: «الآن يا عمر». أى الآن فهمت أن هناك حبا عقليا وحبا عاطفيا، فالحب العقلى أن تؤثر النافع على الضار، فتحب الدواء المر وإن كانت عاطفتك لاتقبله ولكن عقلك يحبه؛ لأنه الطريق إلى الشفاء هذا حب العقل. فرسول اللَّه ﷺ حينما قال لم يكن يتحدث عن حب العاطفة.

وعمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه حين مر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب، قال له رجل: يا عمر هذا هو قاتل أخيك، فقال له: وماذا أفعل به وقد هداه اللَّه للإسلام؟ ثم لفت وجهه عنه، فقال له الرجل: أتلفت وجهك عنى؟ فقال له عمر: نعم؛ لأننى لا أحبك. فقال له الرجل: أو عدم حبك لى يمنعنى حقا من حقوقى؟ فقال عمر: لا، فقال له الرجل: إنما يبكى على الحب النساء.

---

(١) أخرجه البخارى [١٥] ومسلم [٤٤/٦٩] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه.

كان يجب على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب أبيهم ليوسف وأخيه انفعال طبيعى لا يسيطر عليه الأب، ولكنهم لم ينتبهوا إلى ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، يفهم منه أن المؤامرة ستكون ضد يوسف وأخيه بنيامين ولكن انتقامهم انصب على يوسف، مع أن أخا يوسف أحب إلى أبيهم منهم. ولكنهم ربما عرفوا عن الرؤيا التى رآها يوسف، فقالوا: إن يوسف هو الذى سيأتى منه الخطر؛ فقرروا أن يبدأوا به، ومن العجيب أنهم يقولون: ونحن عصبة ولم ينتبهوا إلى أن العصبة من عشرة فأكثر، وهم عصبة متكاتفة متعصبة يقضون مصالح بعض ويعينون بعضهم، وهم يباشرون كل شىء وأبوهم شيخ كبير لا يباشر شيئًا. نقول لهم: كونكم عصبة يجعل حب الأب لمن ليسا عصبة أكثر؛ لأنهما ضعيفان صغيران، وهذا أمر طبيعى.

ثم نأتى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] نتيجة لا تنسجم مع المقدمات؛ لأن يوسف وأخاه صغيران، وأنتم عصبة فى غنى عن الأب وعطفه فكيف تقولون: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ نقول: إن الناس تأخذ كلمة ضلال على المعنى الواسع، هناك ضلال مقصود؟ طبعاً لا، ولكن أن تعرف الحق وتذهب إلى الباطل فهذا ضلال مقصود مذموم، وقد يوجد الضلال غير المقصود؛ لأن الإنسان لا يعرف الحق أو لأنه نسى مثلاً. واقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فالضلال هنا ليس متعمداً، ولكنه عن نسيان. وفى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى] خصوم الإسلام أخذوا هذه الآية الكريمة، وأخذوا يشككون فيها بأن رسولا للّه ﷺ قد ضل. نقول لهم أنتم لا تعرفون اللغة العربية رسول اللّه ﷺ لم يكن يعرف أين طريق الحق وأين طريق الباطل، إلى أن هداه اللّه إلى الحق، فاتبعه فالهداية جاءت هنا هداية دلالة إلى طريق. الحق؛ لذلك يقول اللّه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالضلال المذموم هو أن تعرف الحق ثم تذهب إلى الباطل. وإخوة يوسف لم يكونوا يعرفون الفرق بين حب العاطفة وحب العقل، ومن هنا وصلوا إلى نتيجة أن أباهم كان يجب أن يحبهم أكثر، والنتائج الضارة لا تنشأ إلا من مقدمات باطلة، ولو أن كل مقدمة بحثت مع الحق لخرجت النتائج، فكأن قولهم: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ مقدمة خطأ؛ لأنهم ما كان يجب أن ينظروا إلى حب أبيهم ليوسف وأخيه، وإنما كان يجب أن ينظروا إلى أنهم عصبة، وأن كل ما يملكه أبوهم فى

أيديهم، ولكنهم تركوا هذا واتجهوا إلى حب أبيهم ليخطئوه.

ثم ماذا فعلوا؟ بدأوا يتآمرون على يوسف وقالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] إذن فهم يقدرون أنهم سيفعلون ذلك، ثم يتوبون فيتقبل الله توبتهم ويكونون قوماً صالحين ولكنهم لم يقولوا لنا من يضمن لهم أن يعيشوا إلى أن يتوبوا. وقوله تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ الوجه المقصود به المواجهة والابتسام والحنان، والانفعال كله يظهر على الوجه فهم يريدون أن يقولوا: إن وجه أبيهم سيصفو لهم بالحب والحنان بعد ذلك، كأنهم يقولون: عندما ننتهى من قتل يوسف أو طرحه أرضاً نرتاح مع أبينا وينتهى كل شىء.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠] الجب هى البئر المطوية، التى تحفر لكى يتجمع فيها الماء من باطن الأرض.

والبئر المطوية يأتيها استطراق الماء من أسفل، إذن ففى غيابة الجب أى فى فجوة من الجب حتى لا يراه أحد، وكلمة غيابة أى المنطقة الخفية من الجب، فالجب مخفى بالنسبة للواقف على سطح الأرض، ولكن كونهم يريدون أن يخفوه ولا يراه أحد لا يتلاءم مع قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ ولقد قلنا إن الشر عند الأخيار يتناقص؛ لذلك بدأوا بالقتل ثم قالوا: اطرحوه أرضًا أخف من القتل، فقد ينجو وقد تفترسه الوحوش، ثم قالوا: ضعوه فى الجب عملية أقل ضررًا، على الأقل يجد الماء الذى يشرب منه ويحفظ حياته مدة طويلة، ثم يقولون: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾.

والله تعالى لم يقل لنا من الذى قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ وإنما قال: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ لأن الله تعالى لم يردنا أن نكره الآخرين فجعلها مجهلة، وقوله تعالى أى أن هناك أملاً ألا يفعلوا ويتراجعوا عن هذا كله. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١].

ساعة تسمع ﴿قَالُوا۟﴾، والكلام لواحد من الجماعة تعرف أنهم تحدثوا معًا واتفقوا على الكلام الذى يقال، ثم قام واحد منهم بالكلام نيابة عنهم، فكأنهم تكلموا جميعًا؛ لأنهم اتفقوا ووافقوا على ما سيقال، لماذا؟ لأن المؤمّن أحد الداعين.

إذن.. قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ يعنى إنهم اتفقوا عليه، فكأنهم جميعًا قالوا. وقوله تعالى: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وما داموا قالوا لا تأمنا فكأن هناك محاولات سابقة منهم أن يأخذوا يوسف ولكن أباهم رفض. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] أى سينصحونه ولن يأتيه شر. ثم يقول الحق تبارك وتعالى حكاية عنهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولماذا قالوا يرتع ويلعب؟ لأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل، ولابد أن يجدوا حجة ليأخذوا بها يوسف، فهو لا يصلح للرعى ولا العمل، ولكنه سيرتع ويلعب واللعب وقت الطفولة مسموح به؛ لأنه ليس هناك تكليف بعد، واللعب أن تنشغل بمباح بقصد انشراح النفس.

والشرع لا يمنع اللعب بشىء قد يطلبه الجد مستقبلاً، كتعلم السباحة والرماية والمصارعة وركوب الخيل. أمر يمكن أن ينفعه فى المستقبل وهذا هو اللعب، أما اللهو فهو شغل يلهى عن واجب مثل ألعاب التسلية التى تضيع الوقت، وتأخذهم عن الصلاة وعن ذكر الله، هذا لهو ولو أنهم بمجرد سماع الأذان قاموا إلى الصلاة وتركوا ما فى أيديهم لا يكون هذا لهواً ولكنه تسلية.

قولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ تقول: «مالك» حينما تريد أن تعرف السبب، وقولهم كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف]، إذن.. فالمسألة من يعقوب ليست مجرد خوف على يوسف، ولكن فراق يوسف يحزن يعقوب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣] ولقد قال بعض الناس إن يعقوب نبه أذهان أولاده إلى مسألة الذئب، فاستخدموها كذبًا ولذلك عندما جاءوه بقميص يوسف وقالوا: إن الذئب قد أكله قال يعقوب: هذا ذئب حليم رحيم أكل يوسف ولم يمزق قميصه! أى عرف الكذب.

وهم الذين سبق أن قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أى: أن يعقوب قال لهم: إنى أخاف أن يأكله الذئب ليس وأنتم منتبهون، ولكن أنتم عنه غافلون، وهو بذلك يريد أن ينبههم إلى أنهم بشر تأخذهم الغفلة، ولم يستطيعوا أن يردوا عليها فقالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أى لا يكون عندنا أى نوع من الرجولة إن أكله الذئب ونحن مجموعة من الرجال.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا

﴿إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] قوله تعالى: ﴿وَأَجْمَعُوٓا﴾ دليل على أن المسألة كانت أخذًا وردّاً فيما بينهم، إلى أن قرروا أن يلقوه فى الجب، وفى هذه اللحظة لحظة الضيق وإخوة يوسف يخلعون عنه قميصه ويلقونه فى الجب. جاء الوحى من اللَّه تعالى؛ ليثبت يوسف قبل أن يصل إلى مبلغ التكليف بالرسالة، جاءه وحى من اللَّه بأنه سيبلغهم ما فعلوه فيه وهم لا يشعرون، بأن أخاهم يأتيه وحى من اللَّه بأنه سيقص عليهم نبأ ما فعلوه به.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعضهم قال إنهم لا يشعرون بالوحى أو بما يوحى ليوسف، وبعضهم قال: إنهم لم يشعروا بأن أخاهم قد علم شيئًا، ولكنهم لم يشعروا بالوحى؛ لأن الوحى إعلام بخفاء، ولذلك لم يشعروا بأن يوسف قد أعلمه اللَّه بأنهم سيأتون إليه للحصول على الميرة[1] وأنه سيخبرهم. واللَّه سبحانه وتعالى أبلغ يوسف بما سيحدث. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وأوحينا إليه أى ألهمه اللَّه؛ حتى يؤنسه وهو يواجه هذه المحنة التى يلقى فيها فى البئر، يواجه مصيرًا مجهولاً، والتى يبعد فيها عن حنان أبيه وأنس أخيه، والتى يفارق فيها بلده وأهله وكل من عاش معهم.

إنها لحظة صعبة على النفس والإنسان يترك كل ما أحب ليواجه مصيرًا مجهولاً ولهذا كان لابد أن يلهمه اللَّه أن هؤلاء الذين ألقوه فى الجب سيأتونه وهو عزيز؛ ليعترفوا بخطئهم وذنبهم، ويطلبوا منه أن يدعو اللَّه سبحانه ليغفر لهم. إن هؤلاء الإخوة الذين فعلوا بك هذا سيأتون إليك؛ ليطلبوا أقواتهم وستعرفهم وستنبئهم بما فعلوه معك.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] نلاحظ أن القرآن قد صور بدقة الانفعالات التى توجد داخل النفس البشرية، إخوة مكروا بأخيهم وأخذوه وألقوه فى الجب، وهم يعلمون أن أباه يحبه، وكان لا يأمنهم عليه، فكيف يواجهونه؟ لابد أن يواجهوه بانفعال نفسى كاذب، ولابد أن يكون الانفعال الكاذب مستوراً بظلام الليل؛ حتى لا يكتشف الأب، بما أودعه اللَّه تعالى من نور فى قلبه الانفعال المصطنع على وجه أولاده، ولذلك جاءوا وقت العشاء؛ ليستر الظلام وجوههم؛ حتى لا تفضحهم انفعالاتهم المصطنعة، فاتفقوا على أن يعودوا إلى أبيهم وقت العشاء، وبكاؤهم كان بكاءاً مصطنعاً.

---

(١) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه المعجم الوسيط [٢/ ٨٩٣].

فالانفعال الطبيعى فى البكاء أو الضحك غريزى، ليس لإنسان اختيار فيه؛ لذلك فإنك ترى إنساناً يريد أن يخفى حزنه وبكاءه أمام الناس، ويتظاهر بالتجلد، ولكن دموعه تفضحه، وإنساناً آخر فى موقف لا يصح الضحك فيه ولكنه يضحك رغمًا عنه، فالضحك والبكاء هما انفعالان وغريزتان من اللّه تعالى، ولذلك يقول تبارك وتعالى ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] إذن.. فالإنسان يستطيع أن يفتعل البكاء والضحك، ولكنه لا يملك الضحك الطبيعى والبكاء الطبيعى.

إخوة يوسف أرادوا أن يستر الظلام انفعالاتهم للبكاء؛ حتى لا يكشفهم أبوهم، فلا يعرف أنهم لا يبكون ولكنهم يتباكون. كل هذه الانفعالات التى أرادوا أن يخفوها فضحها ضوء النهار؛ لذلك فقد اختاروا وقت العشاء، إنهم جاءوا بالليل ليخفوا هذه الانفعالات.

بعد أن تأخر إخوة يوسف إلى أن جاء وقت العشاء؛ ليستروا انفعالاتهم فى الظلام ماذا قالوا؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] كلمة: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ لا تكون إلا بين عدة أشخاص يتسابقون فى الجرى؛ ليعرف من الذى سيسبق الآخر.

إذن.. فيستبقون يعنى يتسابقون، والاستباق له أنواع متعددة، استباق فى الجرى من ناحية المسافة، واستباق فى رمى السهام أو فى التصويب بإطلاق النار، واستباق فى إصابة الهدف، والتسابق لإصابة الهدف هام جدًا؛ لأنه ينفعك حين تواجه عدوك، والإسلام يبيح اللعب والتسابق بشرطين:

الشرط الأول: ألا يؤدى بك ذلك إلى لهو عن طاعة اللّه.

الشرط الثانى: أن ينفعك هذا اللعب فى وقت الجد، فمثلاً أنواع الرياضة التى تعطيك القوة والسرعة والحكمة فى الأداء بشرط ألا تلهيك عن واجب فرضه اللّه عليك، ولا تظهر فيها بالمظهر الذى يكشف عن عورة أمر اللّه بسترها.

إخوة يوسف ذهبوا يتسابقون وتركوا يوسف عند متاعهم ليحرسه؛ لأنه صغير السن ولا يستطيع أن يتسابق معهم، وهم بهذا قد خالفوا اتفاقهم مع أبيهم ،الذى كان قد اشترطه لخروج يوسف معهم؛ لأنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فأين الحفظ فى أن يتركوه وحده عند متاعهم؟ وذلك يجعل منه عرضة لأن تفتك به وحوش الصحراء.

ثم هم طلبوا من أبيهم أن يذهب معهم يوسف ليرتع ويلعب؛ لأنه ما زال صبيا صغيرًا لم يبلغ التكليف ومباح له اللعب، ولكنهم بدلاً من أن يجعلوه يرتع ويلعب تركوه عند أمتعتهم وأخذوا هم يلعبون ويتسابقون، وكانوا فى كذبهم هذا لا تتطابق المشاعر على وجوههم مع الكلام الذى يقولونه، ولكن الليل كان يسترهم.

أولاد يعقوب أحسوا حتى والليل يسترهم أن أباهم يعرف أنهم يكذبون؛ لذلك ظهرت ريبتهم من أنفسهم، واقرأ قولهم لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] وهذا ينطبق عليه المثل الذى يقول: يكاد المريب يقول خذونى، وهم كانوا يعلمون أن أباهم يحب يوسف، وكانوا يعرفون أيضًا أن أباهم يعرف كراهيتهم ليوسف، بدليل أن يعقوب قال ليوسف وهو يروى له الرؤيا: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] إذن.. فمعرفة يعقوب بعداوة أولاده ليوسف، جعلته لا يصدقهم وهم أحسوا بذلك، ولذلك قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ ويؤمن له أى يصدقه، وهم فى تخبطهم حاولوا أن يتهموا أباهم بأنه لا يصدقهم، وفى هذا محاولة لمداراة الإثم الذى يشعرون به.

❁❁❁

قميص يوسف

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] ودم كذب يعنى دم مكذوب، ولكن الدم لا يكذب، وإنما الذى يكذب هو من أتى بالدم من شاة ذبحها ولطخ بدمها قميص يوسف.

وفى اللغة العربية يعطى لشىء الوصف المصدرى للمبالغة، وكأن الدم نفسه هو الذى كذب، كأن تقول فلان عدل فكأن فلانًا تجمعت فيه كل صفات العدل، أو أن تقول فلان شر أى أنه هو الشر نفسه هذه صيغة المبالغة.

وإخوة يوسف قالوا إن الذئب قد أكله، فلو كان هذا صحيحًا يكون الدم صادقًا، أى مصدقًا للقول الذى قالوه، أما إن لم يكن هذا هو دم يوسف، فيكون دمًا مكذوبًا فيه، أى مكذبًا لما يقولونه.

ولقد أتى إخوة يوسف معهم بدليل كذبهم؛ إذ لو كان هذا الدم دم يوسف والذئب قد أكله فعلاً ،والدم سينزل من لحمه، تكون بقع الدم على القميص من الداخل للخارج، ولكنهم عندما ذبحوا الشاة لطخوا القميص من الخارج ،كما أنه

لو أن الذئب أكل يوسف، فلابد أن يكون قد مزق قميصه بأنيابه ومخالبه؛ لكى يصل إلى اللحم، ولكنهم جاءوا بقميص يوسف سليمًا غير ممزق.

ويقال: إن يعقوب عليه السلام سمعهم وهم يتشاورون ماذا يقولون لأبيهم؟ فقال أحدهم: قولوا لأبينا إن اللصوص قتلوه، فقال يعقوب فى نفسه: اللصوص أحوج لقميصه منهم لدمه ماذا سيفعلون بقتله؟ ولكنهم إذا سرقوا قميصه فسيبيعونه ولكن إن قتلوه فلن يستفيدوا شيئًا وهذه هى فراسة الاستنباط من يعقوب، وهذه الفراسة هى التى يستعملها القاضى فى معرفة الحقيقة من المتهم فى قضية اتهم فيها عدد من الناس؛ لأن القاضى يعرف أن الكذاب تخونه ذاكرته دائمًا، ولذلك قالوا: إذا كنت كذوبًا فكن ذكورًا؛ لأن الكذاب لا يذكر ماذا قال بالأمس، أما الإنسان الصادق الذى يستوحى من الواقع فهو يروى نفس القصة بتفاصيلها.

فى أحد القضايا سأل القاضى أحد الشهود: كيف رأيت هذا القاتل يرتكب جريمته؟ فقال الشاهد: كان القمر بدرًا ينير الكون فرأيته وهو يرتكب جريمته، ثم يمشى محاولاً أن يترك المكان، وسأل القاضى باقى الشهود، فقال: وأنتم من أين أتيتم؟ قال أحدهم: كنا فى المدينة. فسأله القاضى: ماذا كنت تفعل فى المدينة؟ قال الشاهد: كنت أشترى يوميش العيد، فسأله القاضى كيف يكون القمر بدرًا فى ليلة عيد الفطر التى هى ليلة الأول من شهر شوال؟هذه هى الفراسة التى تفضح الكذاب.

يعقوب ساعة رأى قميص يوسف وهو غير ممزق وملطخ بالدم من الخارج، قال لأولاده كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، ﴿سَوَّلَتْ﴾ بمعنى سهلت أو يسرت، أى أن أنفسكم يسرت لكم الكذب ،وقوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] الصبر مطلوب فى هذا الموقف، وأنت إما أن تصبر على كذا وإما أن تصبر عن كذا، تصبر على شىء فيه ألم لك، وتصبر عن شىء فيه شهوة لك، فتصبر عن شرب الخمر أو لعب القمار أو الربا، وتصبر على المرض.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فكأن هناك صبرا غير جميل، والصبر الجميل الذى ليس فيه شكوى ولا جزع.

والصبر غير الجميل هو الذى فيه شكوى ونواح وبكاء وجزع، واللّه سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥] الصبر الذى ليس فيه هلع ولا جزع ولا شكوى.

الذين يريدون أن يتصيدوا بجهل أشياء متناقضة، يقولون إنه ما دام يعقوب قد قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ والصبر الجميل لا شكوى فيه، فإن يعقوب نفسه الذى قال:

﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكيف يكون الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا حزن ولا جزع؟ ثم يقول يعقوب إنه يشكو بثه وحزنه إلى اللَّه، نقول: إنكم لم تفهموا، هناك فرق بين شكوى إلى اللَّه تعالى، وشكوى من قدر اللَّه، وصبر جميل يعنى لا أشكو من قدر اللَّه إلى بشر، ولا أعلن حزنى وسخطى من قدر اللَّه، ولكن الشكوى للَّه هى دعاء وقرب من اللَّه وما بين العبد وربه هو بلا حدود فالذى يشكو إلى اللَّه هذا صبر جميل، والذى يشكو من قدر اللَّه هذا صبر غير جميل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] كأن الصبر شاق على النفس فيعقوب لا يستطيع أن يصدق ما يقوله أولاده، وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يجمع الناس ويقول لهم: أبنائى كذابون، لقد أخذوا يوسف ولم يعودوا به فابحثوا لى عن يوسف، تمامًا كالرجل الذى قالوا له: ابنك قتل أخاك، فقال: نقول للنفس: تعسا وتعزية، إحدى يدى أصابتنى ولم ترد كلاهما خلفًا عن فقد صاحبه، هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى. فالمعونة من اللَّه فى مثل هذه الحالة أن نطلب منه أن يرزقنا الرحمة والصبر من قسوة ما حدث، ولا نتجه بذلك إلى خلق اللَّه؛ لأن الخالق موجود.

ولذلك علمنا رسول اللَّه ﷺ أنه إذا حدث أمر جلل فزع الإنسان إلى الصلاة. وأنه إذا صادفه أمر يفوق أسبابه فزع للصلاة، ووقف بين يدى اللَّه[1].

❁❁❁

يوسف يباع بثمن بخس

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ [يوسف: ١٩] ولم يقل لنا من أين جاءت هذه القافلة، وهل هى كانت ذاهبة إلى مكان ما أو عائدة؛ لأن هذا لا يهم فى سياق القصة، المهم أنهم وصلوا إلى مكان البئر التى فيها يوسف، وكلمة سيارة معناها جماعة سائرون، ولكن اللَّه سبحانه لم يقل سائرون لأن السائر هو الذى يقوم بالسير مرة واحدة.

إنك إذا وجدت باب حجرتك مخلوعًا ،وجئت بقطعة خشب وشاكوش لتصلح الباب لا يقال عنك نجار، ولكن يقال عنك ناجر؛ لأن النجار هو الذى

---

(١) روى أبو أبو داود [١٣١٩] عن حذيفة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى. وحسنه الألبانى [١١٧١].

صنعته النجارة، أما الناجر فإنه يفعلها مرة واحدة بغير خبرة.

كذلك سيارة معناها قافلة تحترف السير من مكان إلى مكان، ولذلك فهى تعرف دروب الصحراء، وتعرف مواقع المياه وتعرف أن هنا جبا فيه ماء.

أما السائر العادى فلا يعرف؛ لأنه لا خبرة له. حينما تأتى القافلة وتريد الماء لايذهبون جميعًا إلى البئر، إنما يذهب بعضهم ليأتى للباقى بالماء، وهذا اسمه الوارد أى أن الوارد، هو الذى يرد الماء ليأتى به لبقية القافلة.

لذلك يقول اللَّه سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ والدلو هو «الجردل» و «أدلى» أى ربطه فى حبل وأنزله إلى مستوى الماء، فإن كان مستوى الماء بعيدًا يطيل الحبل، ويسمون الحبل «الرشاء» فكلما كان الماء بعيدًا أطال الرشاء؛ ولذلك يقول الشاعر فى أولئك الذين يبالغون فى مدح الأمراء ليأخذوا منهم العطاء:

وإذا امرؤ مدح امرأً لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه

لماذا؟ لأنه لو لم يقدر أن الماء على بعد كبير ما أطال الرشاء أو الحبل. ساعة جاء وارد القافلة وأدلى بالدلو رأى يوسف شيئًا فتشبث به؛ ليخرج من هذا الجب حينئذ أحس الذى ألقى الدلو بثقل غير طبيعى على عضله، فنظر ليرى ماذا فى الجب، والذى قد سبب هذا الثقل الشديد، كأن حاسة العضل هى التى تعرفنا ثقل الأشياء. فهكذا نعرف أن للإنسان حواس أخرى غير الشم والسمع والبصر والذوق واللمس، منها حاسة العضل التى تدلك على ثقل ما تراه أمامك، فأنت حين ترى أمامك حقيبتين متشابهتين فى الحجم لا تعرف أيهما أثقل بالنظر أو بالشم أو بالسمع أو بالذوق أو باللمس، ولكن لابد أن تستعمل حاسة العضل وترفع كلا منهما عن الأرض لتعرف أيهما أثقل.

كذلك هناك حاسة البين فى الأنامل؛ تبين لك سُمْك القماش لتعرف أن هذا غليظ وهذا رقيق، ولا يمكن أن تعرف أى نوع من القماش أرق إلا إذا أخذت القماش بين أصبعيك لتعرف سمكه.

وارد الماء حين ألقى دلوه ووجده ثقيلاً بشكل غير عادى، نظر داخل البئر ليرى ماذا حدث؟ فوجد غلامًا قد تشبث بدلو الماء. غلام جماله يلفت النظر. فما كان منه إلا أن قال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ حينما يقول يا بشراى فهو يريد من أفراد القبيلة أن يأتوا ليشاهدوا بشرى حسنة، شىء يهمهم ويفرحهم كأنه يقول لهم: تعالوا وأسرعوا انظروا ماذا وجدت فى البئر، إنه غلام.

ثم يقول تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أى أخفوه وسط أمتعتهم؛ خوفًا من أن يكون أهله يبحثون عنه فيأخذونه منهم؛ ولذلك أخفوه كأنه بضاعة، وقرروا أن يبيعوه كالبضاعة. ويقول الحق: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] إذن فالضمير فى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ هنا تأخذ معنى آخر معنى أنهم باعوه بثمن بخس؛ فشرى تأتى هنا بمعنى باع وأخذ الثمن، وكان البيع بثمن بخس والبخس هو النقص، والنقص إما أن يكون فى الكمية أو فى الثمن، شىء يساوى مائة درهم تبيعه بعشرين. ولماذا باعوه بثمن بخس؟ لأنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا منه بسرعة؛ خوفًا من أن يأتى ذووه أو أهله ويأخذوه منهم، فهم أسرعوا ببيعه بأى ثمن ليفوزوا بالمال، قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أى لم يكونوا يرغبون فيه ولا فى الإبقاء عليه.

❁❁❁

يوسف فى مصر

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١] ومن هنا نعلم أن سبب الشراء أن الرجل لم يشتره لنفسه بل اشتراه لامرأته؛ ربما لأنها لم تكن تنجب وكانت هذه المسألة تحزنها، فعندما نعلم أن الرجل اشتراه لامرأته تعطينا لقطة كبيرة عن دخول الفساد فى البيوت، التبنى والخدم الذين بلغوا الحلم سواء من الرجال أو النساء هم وراء هذا الفساد؛ ولذلك فإن اللّه سبحانه وتعالى يأمر بغض البصر والفصل بين النساء والرجال حتى فى البيت الواحد، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١].

قول الذى اشتراه لامرأته أكرمى مثواه، المثوى هو: الإقامة، أى أعدى له مكانًا طيبًا ليقيم فيه فسيكون فيه منفعة عندما يكبر أو نتخذه ولدًا. وهذا دليل على أن الزوجة لم يكن لها ولد.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] أى بعد ما كان ملقى فى الجب بدون قميص يلبسه وإخوته له كارهون، أخذه عزيز

obeikandl.com

مصر وقال لزوجته أكرمى مثواه. قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أى أكرمناه وهيأنا له بيت عزيز مصر.

وقوله جل جلاله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١] كأن هناك نقلة أخرى ستحدث ليوسف من علمه بتأويل الأحاديث، والأحاديث هى الرؤى التى يراها النائم، وقد أدت هذه الرؤى إلى أن يأخذه الملك ويجعله عزيز مصر.

هذا الحديث يرينا أن الإنسان لا يصلح حكمًا على الأحداث، فإخوة يوسف أرادوا به شرًا فألقوه فى الجب، ولكن اللَّه تعالى جعل هذا الشر الظاهرى من أسباب الخير العميم الذى سيصيب يوسف ويجعله عزيز مصر، ولو علم إخوته أنهم بسبب إلقائهم له فى الجب سيرتفع شأنه، ما ألقوه أبدًا لأنهم لا يريدون له خيرًا، وهذا شأن جميع الظالمين؛ ولذلك يقال: لو علم الظالم ما أعده اللَّه للمظلوم لضن عليه بالظلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] لأنه لا قوة فى الأرض ولا فى هذا الكون تستطيع أن ترد أمرًا للَّه تبارك وتعالى، فبالنسبة للإنسان يخشى إن أراد شيئًا أن يأتى من هو أقوى منه فيرد الشئ ولا يحقق له ما يريد، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى الذى لا إله إلا هو قال للأرض: كونى فكانت، وقال للسماء كونى فكانت، وقوله سبحانه ﴿كُن﴾ نافذ فى كونه.

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. لا يعلمون ماذا؟ لا يعلمون أنهم لا قدرة لهم فى هذا الكون، ولا قوة لهم إلا بما شاء اللَّه، إنهم يخططون ويحسبون أنهم يفعلون ويظلمون الناس، واللَّه يُرى المظلوم انتقامه من الظالم، وكم رأينا فى التاريخ ظالمين اجتمعوا على ظلم الناس، ولو أن الناس الذين ظلموا تمكنوا منهم ما صنعوا فيهم ما صنعوه هم فى أنفسهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] والبلوغ هو الوصول إلى الغاية، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ يعنى وصل إلى غايته من النضج والاستواء، فكأن مهمة الإنسان فى الكون تبدأ حين يبلغ أشده، ويصبح صالحًا لأن ينجب مثله، تأتيه الغريزة التى نسميها سن البلوغ؛ لأنه فى هذه السن يبدأ نضج العقل ويستقيم تركيب الجسد، وما دمت فى عمر تستطيع فيه أن تنجب مثلك، تكون قد دخلت التكليف وتحاسب عليه.

يوسف عليه السلام تربى فى بيت نعمة وأكرم العزيز مثواه، وأمده اللَّه بالحكمة والعلم ليحرسه، وقد بلغ أشده؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ما هو الحكم؟ هو الفصل بين قضيتين، بين خصمين متعارضين حق وباطل، ومادام اللَّه تعالى أعطاه العلم فهو يقدر أن ينقل ما تعلمه لغيره.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إذن فكل إنسان يدخل فى مقام الإحسان، يقوم الليل يسبح ويصلى ويعبد اللَّه كأنه يراه، يعطيه اللَّه تبارك وتعالى ثمرة إحسانه بأن يمده بحكمة وعلم، وكل واحد يصير على قدر اللَّه، إذا خلقه فقيرًا ،فيكدح ويقوم بأى عمل، ويتقنه ويخلص لعمله يقول اللَّه تبارك وتعالى له: قبلت قدرى وأحسنت عملك فخذ جزاءك؛ ولذلك تجد عظماء الدنيا كلهم من هذا النوع، أعطاهم اللَّه تعالى الحكم والعلم؛ لأنهم أحسنوا استقبال قدر اللَّه ولم يتأبوا عليه، واللَّه جل جلاله عندما يقول حكمًا من الأحكام بالنسبة لنبى أو رسول ثم يعمم الحكم بعد ذلك، فالحكم ليس له خصوصية للرسول ومادام اللَّه تبارك وتعالى قد قالها عمومًا، تكون لكل محسن فمن أحسن يعطه اللَّه حكمًا وعلمًا، لأنه سبحانه قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

❁❁❁

امرأة العزيز.. تراود يوسف عن نفسه

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾. معناها أنها تراوده ليس من الشرفة أو فى الشارع أو وهما يركبان عربة، إنما هو فى بيتها. إذن فهى متمكنة بحكم المكان منه، وهى التى تراوده فالمسألة مجموعة عليه من عدة جهات:

هو تربى فى البيت كخادم لها، وجوده معها فى حجرة واحدة مسألة لا تثير استغراب أحد، وهى تلاطفه وتحتال عليه. هنا نجد أدب التناول فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٣٢] إذن.. فالحادث فيه مبالغة؛ لأنها غلقت الأبواب ولم تغلق بابًا واحدًا، بل عدة أبواب؛ حتى لايفاجئها أحد، مما يدلنا على أن القصر مبنى وكل حجرة ليس لها باب واحد، بل لها أبواب، وهكذا القصور تدخل من باب إلى باب.

قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾. معناها أنها غلقت بابًا وراء باب، مما يدل على إدراكها تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح؛ ولذلك فهى حريصة على أن

تخفى ما ستفعل، وكونها غلقت الأبواب دليل على أنها تريد إذا فتح باب أن تتنبه فلا يفاجئها أحد.

اللّه سبحانه يقول: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾. أى أنها تهيأت له، انتقلت من الاحتيال والمراوغة إلى الوضوح فى الطلب. يوسف عندما رأى هذا قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾. والمعاذ هو ما تستجير به، وأنت لا تستجير إلا إذا كان الأمر فوق قدراتك وطاقاتك، فتستجير بمن ينجدك ممن هو أقوى منك.

يوسف عليه السلام لم يجد معاذًا إلا اللّه؛ لأنه هو سبحانه الذى أعطاه الحكم والعلم، وقال له: هذا حلال وهذا حرام، ولأن اللّه تبارك وتعالى قادر دائمًا على أن يعيذ عباده ويمنع عنهم ما يكرهون. وكلمة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ عند المؤمن إذا قالها فلابد أن الأمر عصيب.

الحق جل جلاله يقول: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ إذن فيوسف لم يوافق على ما تريده، وطلب المعونة من اللّه، وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أى نجانى من الجب ومن شر إخوتى، وهيأ لى مكانًا رغدًا لأعيش فيه فلا أكافئه بأن أعصيه وأن أجعل نعمه علئ وسيلة لمعصيته خصوصًا أن العزيز زوجها قد أكرم يوسف وقال: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣] معناها أن اللّه سبحانه وتعالى يجازى على الإحسان بالإحسان وعلى الظلم بالسوء، فلا يفلح من ظلم.

❁❁❁

معنى وهمت به وهم بها

جاء فى القرآن الكريم أن اللّه سبحانه وتعالى يقال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]. ولقد اختلف العلماء فى تفسير هذه الآية، والهمّ: هو حديث النفس بالشىء قد يفعل الإنسان أو لا يفعل، ومن رحمة اللّه تعالى بخلقه أنه من همّ بحسنة ليفعلها ولم يفعلها كتبت له حسنة لماذا؟ لأن ذهنه شغل بها، ولكنه وجد دافعًا داخل نفسه يدفع ما فى ذهنه فلا ينفذه. فهذا أخذ حسنة، وهناك من تحدثه نفسه بمعصية، ولكن لا يفعلها، هذا له حسنة.

العبارة هنا جاءت فى أمر المراودة، هى راودته وهو ممتنع. إذن فهناك

مفاعلة: اثنان يتصارعان على شيء، أحدهما امرأة العزيز: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾. والطرف الآخر وهو يوسف ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾. النظرة السطحية تقول أن هناك مساواة، هو حدثته نفسه بالفعل وهى حدثتها نفسها بالفعل، ولكن النص لم يقف عند هذه العبارة، فقد قال بالنسبة لامرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾. أى: حدثتها نفسها أنها تريده، وعندما تكلم الحق سبحانه عن يوسف قال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾. لو حللنا هذه العبارة تكون: ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، ولولا حرف امتناع للوجود.

تقول: لولا زيد عندك لأتيتك، فأنا لم آتك لوجود زيد عندك، بالنسبة ليوسف نقول: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، لولا معناها: أنه لم يهم بها، والامتناع حدث؛ لأنه رأى برهان ربه؛ فكأن العبارة: لقد همت به، ولولا أنه رأى برهان ربه لهمّ بها، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمّ بها وتنتهى المسألة.

هى همت به وهو فوجئ بأن سيدته هى التى طلبت منه ولكنه لم يهم بها، ولو أن اللّه سبحانه قال: لقد همت به ولم يهم بها، لقلنا: أمر طبيعى حدث كأن انفتح الباب ودخل الناس. ولكن اللّه أراد أن نعرف أنه لولا برهان ربه لهمّ بها، ولكن البرهان جعله لم يهمّ فليس هناك نقص فى رجولته، ولكن هناك إيمانًا ورعاية من اللّه تعالى. وعدم الهمّ ليس راجعًا إلى عدم الرجولة وإنما إلى عصمة اللّه. إذن.. فبرهان اللّه سبحانه وتعالى سابق على الهمّ؛ لأنه لو همّ ولم يفعل نقول: إن البرهان أتى بعد الهم ، ولكن برهان ربه كان فى نفسه.

ولقد قال بعض المفسرين: إنه هم بها، وجلس بين شعبها الأربع، ولم يرجع إلا عندما تمثل له أبوه، وقال له هذه معصية، ونقول: إن هذا عبث يتحججون بأن اللّه تبارك وتعالى قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ ولم يقل ولقد همت به ولم يهم بها.

نقول: إن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يثبت فحولة يوسف، وأنه لم يمتنع عنها؛ لأنه لا يقدر أو لأنه ضعيف، ولذلك قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾. أى أن يوسف كامل الرجولة يمكن أن يهم بها، ولكن الذى جعله لا يهم بها أن برهان ربه فى داخله، وهذا البرهان هو الذى جعله لا يهم بها. وإذا نظرت إلى القصة تجد أبطالها امرأة العزيز ،ويوسف، والنسوة اللاتى دعتهن عندما لمنها، والشاهد الذى شهد أنها هى التى راودته، والعزيز نفسه، كل هؤلاء شهدوا أن يوسف لم يفعل شيئًا.

أما يوسف فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، وهى اعترفت بعد ذلك أنها راودته عن نفسه، وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، أى لم أقل عليه كلامًا يخالف الواقع لأى شىء سمعته، ولقد جاءت آيات الله كلها تبرئ يوسف، فهى التى همت به وشهدت بأنها هى التى راودته عن نفسه.

والنسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾. والله تعالى صرف عنه كيدهن، ومادام الله قد صرف عنه كيدهن، فالشيطان لا يستطيع أن يوسوس له؛ لأن الشيطان يدخل فى معركة مع خلق الله، ولكن عباد الله المخلصين لا يقترب منهم. واقرأ قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة ص] أى الذى يعبد الله مخلصًا له الدين لا يقربه الشيطان ولا يغويه، وهناك الشاهد الذى شهد لمصلحة يوسف وقال: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧].

كل هذا وتجد بعض العلماء يقولون: إنه هم بها، والحقيقة أنه لم يهم، وإنما استعاذ بالله واعتصم ببرهان الله. ما هو البرهان؟ البرهان هو عبوديته وإخلاصه لله سبحانه وعصمة الله له.

الله تبارك وتعالى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ والفحشاء هى الزنا. فما هو السوء؟ السوء هو المرحلة السابقة للفحشاء، هى فكرة الهم وما يصاحبها. إذن فامرأة العزيز راودته عن نفسها، وبمجرد أن راودته أسرع إلى الباب فجرت خلفه لعلها تسبقه وتمنعه من فتح باب الحجرة، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] إذن فالمسألة خرجت من المراودة إلى المنازعة، فهى من سعار ما هى فيه تريد أن تقتله، وهو يريد أن ينجو بنفسه.

الله سبحانه وتعالى صرف السوء عن يوسف، ولم يجعلها تقتله ولم يجعله يقتلها حتى لا يقال دفاعًا عن النفس، ويقول بعض العلماء: إن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾. أى همت به لتقتله وهم بها ليقتلها، لولا أن رأى برهان ربه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. تدل على أن الشيطان لم يكن يستطيع إغواء يوسف على المعصية؛ لأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣] وبما أن الله سبحانه وتعالى وصف يوسف بأنه من عباده المخلصين، فالشيطان لا يستطيع أن

يقترب منه، ولا أن يغويه على المعصية. وقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لم يقصر المسألة على يوسف ولكنه جعلها عامة.

نقول: إن هناك عبادًا للَّه تعالى يصلون بطاعة اللَّه إلى كرامة اللَّه، أطاعوا اللَّه فأكرمهم اللَّه، وهناك عبادًا للَّه يكرمهم فبالإكرام يطيعون اللَّه أى هناك قسمان:

الأول: عباد مخلصون كسبوا وجاهدوا، ووصلوا إلى كرامة اللَّه بطاعة اللَّه.

الثانى: من يصل بطاعة اللَّه إلى كرامة اللَّه، والفرق بين الاثنين أنه قد يأتى إلى بيتك من يطرق الباب ويطلب خيرًا فتأخذه وتكرمه، وهناك من تقابله فى الشارع فتأخذه وتكرمه فيزداد بهذا الإكرام طاعة.

إذن فهناك من يطلب فيأذن اللَّه له ويكرمه، وهناك من يطلبه اللَّه ويكرمه فيزداد إيمانًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥] أى أن كل واحد منهما يريد أن يصل الباب قبل الآخر، على أننا لابد أن نلاحظ أن قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ قال قبله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ كيف نفهم هاتين الآيتين؟ نقول: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾. أى الباب الأخير الذى يفصل بين حجراتها وبين القصر. لذلك قال سبحانه: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ مما يدل على أن الباب الذى تسابقا إليه كان هو الباب الأخير، وأنهما تسابقا الأبواب حتى وصلا إلى الباب الأخير، فوجدا العزيز أمام الباب، والسؤال هنا: إن كل واحد منهما يريد أن يسبق الآخر إلى الباب لماذا؟ ولما كانت هى المراودة فلماذا تريد أن تسبقه إلى الباب؟ أقول: لتمنعه من الخروج، وهو يريد أن يسبقها إلى الباب ليهرب. هنا ستأتى قضية الشاهد وكيف استنبط الحقيقة؟

❁❁❁

شاهد من أهلها على صدق يوسف

قال اللَّه تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أى من الخلف وهذا دليل على أنه سبقها يحاول الهرب. إذن فهو يريد أن يخرج، وهى تجذبه بقوة من قميصه لتعيده، فقطعت القميص من الخلف. امرأة العزيز حين رأت زوجها أمامها عند الباب، وكل الشواهد تدل على أنه كانت هناك مراودة بينها وبين يوسف، أرادت أن تبرئ نفسها وتلصق التهمة بيوسف، وبأنه هو المذنب وبأنه هو الذى أراد أن يغريها على الفاحشة وهى التى صدته.

لذلك ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هى من غيظها من رفض يوسف لمراودتها له، وفضحها أمام زوجها تريد أن تعاقبه بأن يسجن أو يعذب، ولذلك قالت لزوجها: اسجنه أو عذبه عذابًا شديدًا؛ لأنه أراد السوء بزوجتك.

وهنا رد يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

إذن.. فهى ادعت أنه يحاول أن يعتدى عليها، وهو قال إنها هى التى حاولت أن تغريه على المعصية وعرضت عليه نفسها.

العزيز لم يتصرف تصرفًا أهوج بحكم العاطفة، وكان من الممكن أن يفعل ذلك ويقتل يوسف فى ثورة غضب، ولكنه استمع لشاهد من أهل زوجته حتى لا يظلمها؛ ليفصل فى هذه المسألة ويقول الحقيقة. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ شهد جاءت فى القرآن الكريم بمعان متعددة، جاءت بمعنى حضر، وجاءت بمعنى أخبر.

واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى وليحضر عذابهما طائفة من المؤمنين، وجاءت بمعنى أخبر فى قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] وتأتى شهد بمعنى حكم، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] أى أن اللَّه حكم وقضى أنه لا إله إلا هو أو شهد أى رجح كلامًا على كلام؛ لاستنباط حق والوصول إلى حقيقة بين وجهتى نظر متعارضتين.

الحق يقول: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦] أى أنه يوثق لشهادة هذا الشاهد بقرابته لامرأة العزيز بأنه من أهلها، وليس من أهل يوسف ولن ينحاز إليه، ولو كان من ناحية يوسف لردت شهادته، على أنه منحاز ليوسف؛ لأنه من أهله.

ما هى الشهادة؟ اللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف] نلاحظ أنه بدأ بالافتراض الذى هو فى صالح امرأة العزيز، يجعلها صادقة ويوسف كاذبًا. ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ لماذا؟ لأنه فى هذه الحالة يكون هو المقبل عليها، وهى التى تحاول الفرار منه والدفاع عن نفسها، فهى إما من المقاومة تقطع له القميص من الأمام، أو هو قد يكون من الاستعجال والمقاومة بحيث يطأ هو نفسه على قميصه من الأمام فيمزقه. إذن فالاحتمال الوحيد لأن يكون

يوسف هو الذى حاول الاعتداء عليها، أن يكون قميصه ممزقًا من الأمام؛ لأنه لا يمكن وهو مقبل عليها أن يكون قميصه ممزقًا من أى جهة أخرى.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أى إن كان قميصه ممزقًا من الخلف فلابد أنها هى التى راودته عن نفسها، وأنه حاول أن يهرب منها فأمسكت بقميصه من الخلف فتمزق، ولا يمكن والقميص ممزق من الخلف، أن يكون هو الذى يحاول الاعتداء عليها، وهى تدافع عن نفسها.

هذه هى الحجة التى قدمها الشاهد؛ لتفصل بين قولين متعارضين: قول يوسف وقول امرأة العزيز.

إذن.. فالشاهد أصدر حكمه أولاً قبل أن يرى القميص، وأعطى الافتراضين والدليل على كل منهما، ورتب على رؤيته للقميص ترجيح حكم على الآخر.

ثم كان الحكم: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك فى الخفاء؛ لأن المحتال ليس له القدرة على أن يواجه عدوه؛ لذلك يدبر له فى الخفاء، وقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ دليل على أن المرأة كيدها عظيم وضعفها أعظم.

وحينما عرف العزيز أن امرأته أرادت أن تخونه مع يوسف، وأن يوسف صادق وامرأته كاذبة قال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩] أى أن العزيز طلب من يوسف ألا يتحدث فى هذا الأمر أبدًا؛ حتى لا تسوء سمعة العزيز وزوجته بين الناس.

وقال لزوجته: لقد أذنبت وكنت من الخاطئين فاستغفرى لذنبك.

ولكن الخبر انتشر فى المدينة وانتشر بين النساء، كيف خرج الخبر من القصر؟ قد يكون أحد العاملين فى القصر أو من النسوة اللاتى يعملن فى خدمة امرأة العزيز هم الذين أشاعوا الخبر فى المدينة، ولكنها مسألة لا نقطع فيها بشىء؛ لعدم ورود الخبر فى القرآن أو الحديث النبوى عنها. فيوسف لن يقول عن نفسه، وامرأة العزيز لا تقول عن نفسها فهل الشاهد هو الذى قال؟ إن الخدم حينما سمعوا الضوضاء تنصّتوا فعرفوا القصة.

المهم أن الخبر خرج من قصر العزيز إلى نساء المدينة بطريقة ما، وأُبلغ إليهن.

واقرأ قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠] كلمة نسوة وكلمة نساء تدل على الجماعة، ومفردها ساقط فى اللغة، ولذلك فمفرد نسوة هو امرأة ومفرد نساء هو امرأة، والعجيب أن المفرد له مثنى وهو امرأتان، ولكن الجمع لا يأتى امرأات وإنما يأتى نسوة أو نساء، على أننا لابد أن نلتفت إلى أن القضية الإيمانية متغلغلة حتى فى نفوس المنحرفين والمتسترين عليهم.

العزيز يطلب من يوسف أن يكتم الأمر ولا يحدث به أحدًا، وفى الوقت نفسه يقول لزوجته: أنت صاحبة الخطيئة، ولا يعرف الخطيئة إلا من يؤمن بمنهج سماوى؛ لذلك يقول لامرأته كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾.

وهذا معناه أنه يعرف أن ذنبًا قد حدث، وأن هذا الذنب يوجب الاستغفار، ولا يمكن للعزيز أن يعرف ذلك إلا إذا كان قد عرف منهج اللَّه، الذى بين له الذنب وبين له طريقة الاستغفار من الذنب، وأن اللَّه سبحانه غفور رحيم.

❁❁❁

مكر النسوة.. ودهاء امرأة العزيز

ينتقل الحديث بعد ذلك إلى عرض أوسع، فالمشهد حتى الآن كان رباعياً أبطاله امرأة العزيز، ويوسف، والشاهد، والعزيز نفسه، ولكن الخبر انتقل إلى خارج القصر، مع حرص العزيز من أول الأمر على أن يبقيه سرا بين جدران القصر.

وهذا يدل على أن هناك عيونًا ترصد الأسرار وتنشرها وترويها للناس حتى لا يعتقد أحد أنه يمكن أن يحمى نفسه من الفضيحة لمجرد كتمانها وسترها؛ فهناك عيون تتتبع ما يحدث وتنقله إلى الناس.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠] قضية واقعة تتناقلها النسوة فيما بينهن فى بيوتهن، وأن امرأة العزيز راودت يوسف عن نفسه، أنها بفعلها هذا فى ضلال مبين.

فماذا كان رد امرأة العزيز؟ القرآن الكريم يريد أن يلفتنا إلى أن المرأة أكثر كلامًا فى الأعراض، وأكثر علمًا بالإشاعات من الرجل، وأن الخبر ينتقل من فم امرأة إلى أخرى حتى يعرفنه جميعًا فى وقت قصير، أى أن نسوة المدينة عرفن الخبر وتحدثن به، ولم يمض إلا وقت قصير، حتى وصل الخبر إلى امرأة العزيز، بأن النسوة يقلن كذا وكذا.

أدركت أن هذا مكر بها، وأن قول نساء المدينة ليس غضبة للحق، ولا كرهًا فى الضلال الذى وقعت فيه، إنهن أردن شيئًا آخر هو إذلال كبرياء امرأة العزيز، ونشر فضيحتها بأنها وهى امرأة الحاكم تراود من يخدمها عن نفسه.

إنها امرأة العزيز رفيعة المستوى، أرفع شخصية فى المدينة. تجرى وراء خادمها ومملوكها وتراوده عن نفسه وهو يرفض ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ وهذا دليل على أنها فهمت القصد من القول، ذلك أن الماكر يستر ما يريد أن يقوله فى شىء آخر ليدعى أمام خصمه أنه برىء.

لقد فهمت أنهن يردن أن يشعن بين الناس أنها وهى امرأة العزيز، والعزيز معناه الغالب الذى لا يغلب. أرادت أن تعطى نفسها لغلام مملوك اشتروه بدراهم معدودة ولكنه رفض. لقد قلن إنه شغفها حبا ولم يقلن أحبته؛ لأن الحب منازل أولها الهوى، والهوى يعنى أنه رأى الشئ فهواه، والهوى قد ينتهى بالرؤية، وقد يستمر لتنشأ علاقة، ثم تنتقل المسألة من الهوى والعلاقة إلى الكلف فى أن هناك مطلوبًا لهذه العلاقة يريد أن يصل إليه ثم بعد ذلك تصل إلى مرتبة العشق، أى أنه صار هناك تبادل مشاعر وصل إلى مرتبة أن يعلن كل منهما عن مراده، وينتقل العشق إلى مرتبة التدله، أى يكاد الإنسان يفقد عقله، ثم مرحلة الهيام، يهيم على وجهه ولا يدرى أين يذهب.

قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] أى أن حبه انتقل من الإدراك إلى العقل، فنوقش ثم استقر فى القلب أو تمكن منه، والشغاف هو الغشاء الرقيق الذى يستر القلب، وهذا دليل على تمكن حبه من قلبها.

امرأة العزيز حين سمعت بمكرهن، وأدركت أنهن لا يردن بما يقلن كلمة حق، وإنما يردن إذلالها وإهانتها، ولم تشغل نفسها بالبحث عمن أخرج هذه الأسرار من القصر؛ لأنه لابد أن يكون الذى أخرج هذه الأسرار له علاقتان: علاقة بالقصر، وعلاقة بخارج القصر، علاقته بالقصر جعلته يدرك أو يرى ما حدث، وعلاقته خارج القصر جعلته يشيع ما حدث بين الناس.

قال العلماء: إنهن خمس نسوة: امرأة الخازن الذى يأتيه كل من فى القصر ليأخذوا ما يحتاجون إليه من مخازن القصر، وامرأة الحارث أو السايس الذى لا يأتى إلى القصر أو يخرج منه أحد إلا ويعلمه، وامرأة السجان، وامرأة ساقى الملك الذى يسقى الملك وامرأة الحاجب.

نقل هولاء الأزواج الذين يعيشون داخل القصر إلى زوجاتهم ما سمعوه، ثم

انتقل الكلام من بيت إلى بيت فى المدينة، حتى شاع وانتشر.

امرأة العزيز حينما سمعت هذه الأخبار وشعرت أنهن يردن إهانتها والتشهير بها، مكرت بهن وأرادت أن تدخلهن فى تجربة عملية، بحيث يراودن يوسف عن نفسه، فماذا فعلت؟ أرسلت لهن دعوة بالحضور إلى القصر فى ضيافتها.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: ٣١] أى دعتهن وأعدت لهن المتكأ، وهو الشئ الذى يستند إليه الإنسان فى الجلسات الطويلة، فالإنسان إذا جلس للحظات لا يحتاج إلى متكأ، أما إذا كان سيجلس ويمكث ساعات، فهو يريد أن يتكئ حتى يكون جلوسه مريحًا.

ثم بعد ذلك: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١] ومعنى ذلك أن امرأة العزيز خططت أن ترد على المكر بمكر أشد منه، لأنه ما دام أعطت كل واحدة منهن سكينا فلابد من مبرر لاستخدام السكين، سواء كان هذا طعامًا أو فاكهة أو أى شئ آخر. المهم فى هذا كله أن الإنسان حين يستخدم السكين لابد أن يكون منتبهًا إلى ما يفعل، لأنه لو ضاع انتباهه أو انتقل إلى شئ آخر فستقطع السكين يده، وهذا ما كانت تهدف له امرأة العزيز، أن يأخذ يوسف بجماله وحسنه انتباه النسوة؛ فيقطعن أيديهن، ولذلك قالت ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فماذا حدث؟ ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] يقال أكبرت الشئ، أى: تخيلته قبل أن تراه على صورته، ولكن حين تراه تجد أن الرؤية أكبر كثيرًا من التخيل، بمعنى أنك تخيلته فى صورة حلوة، ثم وجدت آية من آيات الجمال التى خلقها الله.

ثم لما عاد إليهن رشدهنّ الذى سلبه حُسن يوسف عليه السلام ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] كلمة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى تنزيه لله تعالى، التنزيه هنا؛ لأن الله وحده القادر على أن يخلق مثل هذا الجمال الذى يُذهب العقول، أو أن يوسف منزه أن يكون قد حدث بينه وبين امرأة العزيز شئ، وهذه الشهادة ليست شهادة تثبت أن امرأة العزيز كانت امرأة قبيحة، ولكنها تنزيه أن يخلق الله مثل هذا الجمال الأخاذ فى يوسف، ثم بعد ذلك يجعله يرتكب ما يغضب ربه.

وقولهن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لأنه خرج عن كل صور الجمال فى البشر، فهو صورة أرقى من الإنسان الذى يرونه كل يوم، فكأنهن قلن لم نر مثل هذا بين من نراهم من بنى آدم، لابد أن يكون هذا ملكًا. ولكن هل رأين ملكًا حتى يحكمن على يوسف أنه ملك؟ نقول لا، ولكنهن تخيلن الملك فى أبدع صورة.

فلما رأين جمال يوسف يتخطى صورة الإنسان قلن: لابد أن يكون هذا ملكًا كنوع من التخيل، فالإنسان عندما يرى بشرًا فيه من صفات الجمال، والكمال الكثير، فإنه يقول هذا ليس إنسانًا هذا ملك؛ لأن الإنسان فى حكمه على الأشياء يتخيلها بالحكم الذى يناسب طبيعتها.

إذن.. قول نساء المدينة فى يوسف: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ دليل على أن اللّه تبارك وتعالى وضع فيه كل اللقطات؛ لذا جذبهن جميعًا، فلم تشذ واحدة ولم يختلفن فى الرأى، كلهن قلن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ دليل على أنه جذبهن بالإجماع، أو أن اللّه سبحانه وتعالى وضع فيه من صفات الجمال، ما يجعله محبباً إلى القلوب جميعًا، وهذا من عظيم قدرة اللّه فى نبيه يوسف عليه السلام.

وهكذا رأته نساء المدينة، كل واحدة رأت فيه جمالاً مختلفًا عن الأخرى فصحن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ووجدت امرأة العزيز الفرصة؛ لتبرر ما فعلته وترد على كيدهن، فقالت كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أى فذلك الذى وجهتن إلىّ اللوم أننى راودته عن نفسه، وها أنتن ترين ماذا فعل جماله فى نفوسكن.

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ «ذا» إشارة ليوسف و «لكنّ» خطاب للنساء، الناس لا يفرقون بين لفظ الإشارة ولفظ الخطاب، لكن الإشارة شئ والخطاب شئ آخر، و «ذا» إشارة للمخاطب، نقول: ذلك فلان، ولكن عندما تشير إلى ذكر. وتخاطب أنثى تقول: ذلكِ، «ذا» تشير للذكر و «كِ» تخاطب الأنثى، فإذا كنت تخاطب اثنتين تقول ذلكما، وتخاطب جماعة تقول: ذلكن.

يقول الحق فى القرآن الكريم حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هنا لابد أن نلتفت إلى أن امرأة العزيز بعد أن كانت تنكر الحقيقة وتحاول أن تخفيها، وتقول: إن يوسف هو الذى راودها عن نفسها، اعترفت بالحقيقة لماذا؟ لأنها فى المرة الأولى كانت فى وضع الاستنكار، ولكن بين النسوة اللاتى قطعن أيديهن، وقلن هذا ملك كريم، وجدت المبرر لفعلتها، ولم تجد استنكاراً من النساء، بل أكثر من الإعجاب فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ لأنها لم تسمع لومًا يقول: كيف تراودينه ولماذا تفعلين ذلك؟ أمام الانبهار الذى استقبلت به النسوة يوسف.

ولذلك قالت: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أى فعصم نفسه عن الخطيئة، كلمة: «استعصم» تدل على التكلف والمشقة فى حجز النفس، فهل وجد يوسف مشقة؟ نقول إن اللّه

تبارك وتعالى يريد أن يثبت أن فحولة يوسف ورجولته غير ناقصة، وأنه لم يمنعه إلا الإيمان؛ ولذلك جاهد نفسه ليمنعها، ولو أن المسألة مرت هكذا لقالوا: إن يوسف ليس له فى النساء، وهى مثل: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ التى تحدثنا عنها فيما سبق.

ولكن امرأة العزيز تجاوزت هذه المرة كل الحدود، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] هنا امرأة العزيز تخلت عن حيائها وتحفظها تمامًا، وهذا لا يحدث إلا فى مجالس النساء، ذلك أنه عندما يكون هناك رجل فى المجلس، يكون هناك بعض الحياء، فكأنها بعد أن رأت أن النساء رأينه وأكبرنه، قالت: لئن لم يفعل ما آمره به فسأسجنه وأجعله من الصاغرين، وصاغر ليس معناها أنه صغير، ولكن صغر يصغر معناها أنه صار ذليلاً مهانًا. فهى توجه كلامها للنساء أنتن أكبرتن يوسف، وأنا سأجعله ذليلاً مهانًا إذا لم يفعل ما آمره به أى: إذا لم يوافقنى على ما أطلبه منه!.

ولكن لماذا قالت أنها ستسجنه وتجعله ذليلاً، ولم تقل إنها ستطرده مثلاً أو تبيعه لغيرها؟ لأنها تريد أن تعرف كل الحاضرات أن يوسف لن يخرج من القصر، وأنه لن يراه أحد إلا هى، فلو أنها قالت ستطرده أو تبيعه لسارعن لشرائه وأخذه.

يوسف لم يجد فى هذا الموقف الذى اتفقت فيه جميع النساء الحاضرات، إلا أن يستغيث بالله، قال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] نلاحظ هنا: أنه قال مما يدعوننى إليه مع أن امرأة العزيز هى التى قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ فما دخل الباقيات؟ يبدو أنهن عندما رأين يوسف، أشرن إليه ببعض أنواع الإشارات التى يُفهم منها أنهن يراودنه عن نفسه، أو صدر منهن كلام بذلك لم تأت به الآية الكريمة، وإلا فلماذا كان الخطاب بالجمع هنا؟ إنهن ساعة رأينه نسين أنفسهن وسط الانفعالات والذهول، فكما قطعن أيديهن دون أن يدرين، صدرت منهن إشارات أو إيماءات أو تعبير بالوجه دون أن يدرين.

فكل واحدة نظرت إليه نظرة تستميله إليها فعرف ماذا يردن، فسواء راودنه بالكلمة أو بالإشارة أو بأى طريقة أخرى، فإنه استعاذ بالله منهن جميعًا.

ودعا ربه قائلاً: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ كأن يوسف قال يا رب إن السجن أحب إلى نفسى من معصيتك.

نلاحظ هنا أن يوسف كان يقول ربى ولا يقول إلهى؛ لأن الألوهية منطق

التكليف، وهو لم يكلف بالرسالة بعد، ولكن «اللَّه» الرب الذى ربَّاه وتعهده، لن يتخلى عنه فى هذا الوقت العصيب، فدعا اللَّه باسم الربوبية: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ ثم استغاث باللَّه من بشريته فهو بشر تملؤه الرجولة، وهو فى سن خطيرة سن البلوغ والرجولة؛ ولذلك فهو يستغيث باللَّه بأن يصرف عنه كيد النسوة؛ لأنه إن لم يصرف عنه كيدهن، ويقيه مما يردن منه، سيميل إليهن فى هذه الحالة ويكون من الجاهلين.

اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يؤكد بشرية يوسف وفحولته، وأنه أعرض عن هؤلاء النسوة؛ لأنه وضع منهج اللَّه أمام عينيه، فلو أنه مال إليهن لكان من الجاهلين لماذا؟ لأنه فى هذه الحالة سيخسر كل شئ، سيخسر دنياه وآخرته، اللَّه تبارك وتعالى استجاب له؛ لأنه لجأ إليه، ولجأ إليه مضطرًا؛ لأنه ليس أمامه من الأسباب ما يمكن أن يأخذ به، فإما أن يصرف اللَّه سبحانه وتعالى عنه كيدهن، وإما أنه يقع فيما لا رغبة له فيه.

ولأن يوسف دعا اللَّه تعالى مخلصًا من قلبه فى ساعة اضطرار، استجاب له ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]. أى أن اللَّه سبحانه وتعالى يسمع ويعلم ويرى، ويوسف اتجه إليه سبحانه مخلصًا، فأخذ اللَّه بيده ونجاه من كيد النسوة، وهو سميع لما يقول عليم بحاله.

❁❁❁

يوسف فى السجن

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥] قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾، أى عندما عرفت النسوة أنه لا فائدة من يوسف، تآمرن عليه ليدخل السجن، وكان دخول يوسف السجن دليلاً على استبقاء حركة الحب له فى نفوس النسوة.

ألم تقل امرأة العزيز: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾. إذن فالسجن استبقاء للحب لم يقلن اقتلوه لماذا؟ لأنه كان لديهم أمل فى أن تقييد حركته فى السجن، سيجعله يفكر فى أن يقبل ما سبق أن رفضه، وربما الذل الذى سيراه فى السجن بعد العز الذى كان يعيشه فى قصر العزيز يُليّن من عناده.

فى السجن تقترب النفوس من بعضها، ودخل مع يوسف السجن رئيس الخبازين ورئيس السقاة ،كانا يعملان فى قصر الملك، وكانت تهمتهما أن الخباز

كان قد تآمر على الملك، والساقى كان سيضع له السم فى الشراب. الخباز والساقى قد رأى كل منهما رؤيا، وطلب أن يفسرها له يوسف، وهنا نعلم أنهما لابد قد مكثا مع يوسف فترة طويلة لأن هذه الأشياء لا تحدث بين يوم وليلة، بل لابد من طول العشرة الذى جعلهما يلجآن إلى يوسف فى كل أمر يهمهما؛ لأنهما رأيا فى يوسف الإنسان السوى حسن الخلق.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]

إذن.. كل منهما رأى رؤيا أحدهما: رأى أنه يعصر خمرًا، والثانى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، فكأن الاثنين قد عرفا أن يوسف يقوم بتأويل الأحلام وبأنه صادق فيما يقول وسواء جربا ذلك على نفسيهما أو حدث ذلك بالنسبة لمسجونين آخرين، فإنهما قد تأكدا من علم يوسف بتأويل الأحلام، وأنه صادق فى تأويله فقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هى سبب سؤالهما له فى الرؤيا التى رأياها، ولذلك لابد أن يسبق سؤالهما أن هناك أشياء صدرت منه، بينت أنه من المحسنين كما يدل على أن الإحسان ظاهر فى يوسف عليه السلام، أى أنهما ليسا محتاجين لتتبع عمله؛ لأن كل ما يعمله يوسف هو فى مقام الإحسان، فكأنما المسألة واضحة كرؤية العين لا تحتاج إلى ذكاء أو فكر، وكل إنسان مؤمنًا كان أو كافرًا، يعرف الإحسان ويعرف السوء.

ولأن يوسف إنسان على منهج مستقيم وملتزم، ورأى مَنْ أكبر هذه الخصلة فيه فلابد أن هذين الشخصين عندهما بداية إيمان وإحسان، ولذلك قرر قبل أن يعطيهما حاجتهما أن يأخذ حاجته منهما أولاً.

نلاحظ هنا أن يوسف لم يتحدث عن الرؤيا التى رآها السجينان، لقد أخذ يوجههما إلى الطريق المستقيم، دون أن يجيبهما على ما سألاه؛ لأنه لو أجابهما أولاً؛ لانصرفت آذانهما عن الانتباه إلى ما يقوله، من ترغيب فى الإيمان وتنفير من الكفر، ولكنه حين يؤخر إجابتهما عما يطلبان، فإنهما ينتبهان إلى ما يقول ويتوقعان فى كل دقيقة أنه سيجيبهما على ما طلباه، فينصتان باهتمام شديد، فيعطيهما طريق الإيمان.

وهكذا كان يوسف حريصًا على أن يأخذ حاجته منهما، قبل أن يجيبهما إلى طلبهما، ويقول لهما ما يريد أولاً، ويكون بذلك قد شغلهما بشئ أنفع لهما، وخير مما يسألان عنه؛ لأن هذا تذكير بالمنهج، أما الجواب فهو جزئية صغيرة فى حياتهما.

وقال لهما كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧] وكأنه يقول لهما إنه يعلم أشياء كثيرة غير التى يشاهدنها ظاهرة عليه، ثم أراد أن يأخذهما إلى اللفتة الإيمانية، فقال: إن هذه ليست من عندى ولا خصوصية لى؛ لأن هذه علَّمها لى ربى، وربى لم يُعلمها لى وحدى، وإنما علمنى وعلم غيرى، فهو يُعَلِّم كل من يتجه إليه، ويشرح صدره، وكان قول يوسف لهم: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ . . . ﴿٣٨﴾﴾.

ولقد قال لهما يوسف من قبل: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٧] إن يوسف الصديق وهو يخبر صاحبى السجن بما عنده من علم إنما ينسبه إلى صاحب كل علم، العليم سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

يوسف عليه السلام يريد أن يلفت السجينين إلى الطريق إلى اللَّه تعالى، فيقول ما تريانه مما علمنى ربى؛ لأنى تركت ملة من لا يؤمنون باللَّه، واتبعت ملة آبائى المؤمنين الموحدين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهذه تدلنا على أن الإنسان إذا رأى فى إنسان آخر خصلة خير، فإن عليه أن ينمى هذه الخصلة، ويأخذ صاحبها إلى الطريق الصحيح، ويوسف يريد أن يلفت هذين السجينين، بأنهما لو ابتعدا عن الكفر وعبادة الأصنام، وآمنا باللَّه وحده، فإن اللَّه يفتح لهما من أبواب رحمته وعلمه.

وكان تأويل الرؤيا أن قال لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ﴾ [يوسف: ٤١] هذا هو تفسير الرؤيا التى قصها الرجلان على يوسف: أحدهما: تظهر براءته ويعود إلى القصر، ويسقى سيده خمرًا. أما الآخر وهو خباز فتثبت عليه التهمة فيصلب، وتأتى الطير لتأكل من رأسه. إذن فالساقى الذى اتهم بأنه سيضع السم للملك فى الشراب، تظهر براءته ويعيده الملك إلى خدمته.

والثانى: وهو خباز القصر وكان ينوى دس السم للملك فى الخبز، تظهر إدانته فيصلب وتأكل الطير من رأسه، وهذا معنى أنه رأى نفسه يحمل خبزًا فوق رأسه تأكل الطير منه.

وقوله تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] يعنى انتهينا وقلت لكما الجواب ومعنى تفسير الرؤيين، وقُضى الأمر؛ لأن القاضى ساعة يحكم، يكون

ذلك بموضوعية الحكم وليس بالهوى، فالهوى يلون الحكم؛ ولذلك فإن يوسف ألقى بالحكم على ما رآه السجينان دون أن يلتفت إلى أنه ينذر أحدهما بالموت، قالها دون أى لون من التلوين حقيقة ثابتة، وقالها دون أن يلتفت للعواطف.

إن المنحرف يحاول أن يجر أصدقاءه إلى ما هو أكثر إنحرافًا مما فعل، وكل مؤمن يذكر قصة صاحبى يوسف فى السجن. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

إن دخول يوسف السجن لم يكن للانحراف، ولكن رفضًا للإنحراف، ومعه فى السجن قوم دخلوه؛ لأنهم منحرفون؛ لذلك رأوا فيه الإحسان، ولهذا قالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لقد خطر لهما من سلوك يوسف الصديق الإحسان.

لقد ارتفع فعل وسلوك يوسف الصديق فى نظر المنحرفين، والقيم الرفيعة معروفة حتى عند المنحرف؛ لذلك عندما جاء أمر يهمهما فى ذواتهما سألا يوسف، ونحن نسمع أن لصا سرق من هنا أو من هناك، ثم جاء له أمر ليسافر إلى مكان غير مأمون، فإنه يذهب إلى إنسان يتوسم فيه الأمانة؛ ليضع عنده ما سرقه، ولا يذهب إلى لص مثله. إذن فالقيم هى القيم؛ لذلك قال السجينان ليوسف: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ واستغل يوسف المسألة؛ ليدلهما على الصواب وكان قوله لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ لقد نقلهما من حاجتهما الشخصية إلى قضية التوحيد، وعبادة الإله الواحد.

إن يوسف الصديق يدعوهما إلى المقارنة، بين الإيمان باللّه الواحد وبين التشتت فى العبادة: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] إذن.. القيم هى القيم.

ثم ينتقل يوسف عليه السلام إلى نقطة أخرى، يبرأ فيها من عبادة الأصنام التى كانت منتشرة فى تلك الأيام، وقد كانت كل قبيلة لها صنم تعبده، فيقول: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨] لأن اللّه سبحانه وتعالى ليس له شريك فهو إله واحد، وهذا من رحمة اللّه علينا، فلو أن هناك آلهة متعددة لتعبنا لأنه سيكون لكل إله أمر ونهى، ولا نعرف من نتبع، ولكن وحدانية الألوهية للّه سبحانه وتعالى رحمة بنا لابد أن نشكر اللّه عليها، وكون اللّه هدانا إلى منهجه فلا نشرك به، فهذه منة أخرى لابد أن نشكر اللّه عليها.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى أنه كيف أن قضية الإيمان بإله واحد مريحة للنفس، تأخذها إلى الصراط المستقيم: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أى أألهة متعددة متفرقون فى ذواتهم وفى عطائهم خير أم اللَّه سبحانه وتعالى وحده؟ وعندما تطرح هذه القضية لابد أن نتساءل: هل تعدد الآلهة التى يدعيها البعض والتى سادت أيام الفراعنة كانت تكرارًا؟ أى آلهة متعددة، وكلها تشبه بعضها البعض، فى كل واحد منها إله فى ناحية، فهذا إله البحار، وهذا إله الأنهار، وهذا إله الخير وهذا إله الشر، وفى هذه الحالة يكون الإله المختص بناحية من النواحى، ضعيفًا فى باقى النواحى التى لها آلهة أخرى.

اللَّه تبارك وتعالى فى قصة يوسف يضرب لنا المثل، فيقول: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾. هل خير لكم أن تعبدوا آلهة متفرقين، أم أن تعبدوا إلهًا واحدًا، هو اللَّه سبحانه وتعالى، فلو أنكم اتبعتم منهج اللَّه؛ لجنبتم أنفسكم كثيرًا من المتاعب فى الدنيا والآخرة.

ولذلك كان قول يوسف كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨] ساعة تسمع فى القرآن الكريم كلمة ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ اعلم أن الأمر الذى يدور الحديث عنه، يستحق بمقاييس العقل السليم، والفطرة السليمة أن تشكر اللَّه عليه، وأنت لا تشكر اللَّه إلا على نعمة، فلو أنك أخذتها بمقاييسك، فلابد أن تشكر اللَّه على أنه بلغ رسله المنهج، وأنه أمرهم أن يبلغوه لك، فعلمت وعملت فنفعك فى الدنيا والآخرة. وهذه مسألة تستحق منك الشكر للَّه، أنه أرسل رسلاً وبلغك المنهج.

قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ﴾ كلمة صاحب معناها ملازمك أو مقيم معك. و ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ نسبت الصحبة لمكان الإقامة؛ لأن الجامع بينهم هو السجن، والذى يجمع فى الصحبة أشياء كثيرة: صحبة سلاح للمجندين معًا، وصحبة عمل لمن يعملون فى مكان واحد، وصحبة حج لمن يحجون معًا، وصحبة دراسة لمن يدرسون معًا.

إذن.. فالشئ الذى يربط بين الاثنين ويجمعهما يسمى صحبة كذا، ويمكن أن تنسب الصحبة إلى مكان الإقامة، أو أن تنسب إلى الظرف الذى جمع الاثنين.

وقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾. حين تجد فى القرآن سؤالاً كن على يقين أنه لا يوجد له إلا جواب واحد، والسؤال يطرح

حتى يعترف المسئول بالحقيقة. قطعًا أرباب متفرقون ليسوا خيرًا من اللّه الواحد الأحد، ولكن لماذا نسألهم؟ لأنهم يعبدون آلهة متعددة، ثم وجدوا أنفسهم محتاجين للعلم والمعرفة ممن يعبد إلهًا واحدًا، فيسألهم: ألا توحى لكم آلهتكم بشئ؟ إنهم ليسوا خيرًا، ولكن اللّه الواحد القهار هو الخير، يوجه هذا السؤال وهو واثق أن إجابتهم لا يمكن إلا أن تكون: عبادة إله واحد خير وأبقى.

ولكن كيف تأمن خصمك على الجواب الذى سيقوله؟ لا يحدث ذلك إلا إذا كنت واثقًا أنه سيدير كل الأجوبة فى رأسه، ولن يجد إلا جوابًا واحدًا هو ما تريده أنت، كأن يأتى إنسان وينكر معروفك عليه، فتقول له: ألم أصنع معك كذا فى يوم كذا؟ حينما يراجع نفسه لن يجد جوابًا إلا كلمة نعم، وهذا إقرار منه بالحقيقة. إذن لا يوجد فى القرآن الكريم سؤال إلا وله جواب واحد، هذا الجواب هو التسليم بالحقيقة.

وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ سميتموها أى اتخذتموها أنتم، أى أنتم صنعتم هذا الكفر؛ لأن الاسم يوضع عادة للدلالة على مسمى، نصنع الشئ ثم نجعل له اسمًا؛ حتى إذا نطقنا بالاسم نعرف المسمى، ولذلك عندما يولد مولود يسمى هذا المولود فلانًا، فإذا جاء مولود ثان نسميه اسمًا ثانيًا، وثالث تجعل له اسمًا ثالثًا، ومعنى هذا أننا نضع لما هو موجود اسمًا، إذا أطلق انصرف إلى الشخص نفسه، فإذا قررنا أن نطلق اسمًا واحدًا على أشياء مختلفة، كان لابد أن نفرق بينها بوصف، كأن يكون هناك أب، يريد أن يسمى كل أولاده محمدًا، لابد أن نميز المسمى الواحد، فنقول: محمد الكبير أو محمد الصغير، أو محمد الأول ومحمد الثانى ومحمد الثالث حتى نستطيع أن نميز بينهم.

فالاسم يوضع علمًا على مسمى، إذن لابد أن يوجد المسمى أولاً، ثم نضع له الاسم، فإذا وضع الاسم لغير مسمى، أو أن المسمى غير موجود، يعتبر الإطلاق اسمًا لمسمى زائف لا وجود له.

إذن.. فهم وضعوا اسماء ولا توجد مسميات؛ ولذلك فى الآخرة يقول اللّه عز وجل: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا... ﴿٧٤﴾﴾ [غافر]. إذن.. فلم يكن هناك آلهة على الإطلاق، وهم أطلقوا اسماء على غير مسميات، وسيظهر ذلك فى يوم المشهد العظيم فى الآخرة، وهكذا المسمى ليس له وجود فمن أين جئتم بالاسم إلا افتراء على اللّه؛ ولذلك يقول: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾

أى: أن يكون كفر تقليد للآباء، وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أى: إن اللَّه تعالى لم يطلب منكم ذلك وليس لكم حجة.

ثم يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. أى لا حكم فى هذا الكون إلا للَّه، وما يبلغه الرسل من أحكام يبلغونها عن اللَّه.

واللَّه سبحانه وتعالى وحده له الحكم وله الأمر فى كونه، وأمره سبحانه وتعالى هو: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أى لا تطيعوا فى أمر أو تنتهوا عن شئ إلا بإذن من اللَّه، واللَّه تبارك وتعالى أمر أن تعبدوه وحده، ومعنى العبادة هى طاعة مخلوق لخالق أن يفعل وألا يفعل، فإذا فعلتم ذلك كنتم على: ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أى: الدين المستقيم، أى الدين الحق: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. لا يريدون أن يعلموا. لا يستمعون لرسول اللَّه، ويلغون فى القرآن، ويشوشون عليه، ويؤذون المؤمنين أو لأنهم رفضوا العلم، رفضوا استقبال رسالة السماء بقلوب صافية؛ حتى تهتدى قلوبهم. هؤلاء أبلغوا ولكنهم كذَّبوا، وصموا آذانهم وانطلقوا إلى شهواتهم.

ويقول اللَّه تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ و ﴿ظَنَّ﴾ أى رجح عنده أنه هو الذى سيسقى الملك خمرًا؛ لأن ﴿ظَنَّ﴾ لا تعنى اليقين، ولكنها تعنى الترجيح، و «الذكر» هو حضور شىء بالبال، يعنى قضية مر عليها وقت ثم تذكرها فجأة. فالإنسان له استقبالات للأحداث، هذه الاستقبالات لا تبقى فى بؤرة الشعور؛ لأن الذهن لا ينشغل إلا بشىء واحد، فإذا شغل بشىء لا يستقبل شيئًا آخر، ولكن الشىء يرحل من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور؛ ليستقبل أحداثًا أخرى.

فكل خاطر يستقبله ذهنك يبعد عن بؤرة الشعور؛ ليأتى خاطر آخر، ثم يحدث حادث، يجعله يعود من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور؛ لتتذكره وكأنه يحدث أمامك الآن. إذن فقول يوسف ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ أى حرك ما حدث لى إلى بؤرة شعور الملك؛ حتى يعرف أننى مظلوم. وقد قال العلماء عن هذه الجملة: إنها جعلت يوسف يبقى فى السجن بضع سنين؛ لأن الأنبياء عملهم مع اللَّه تعالى مباشرة لا بواسطة الخلق، وما دام يوسف مستقبلاً عن اللَّه سبحانه وتعالى، فلابد أن يتجه إلى اللَّه مباشرة، ولا يطلب الواسطة من بشر؛ ولذلك حينما قال ذلك، ماذا حدث؟: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ونسيان ذكر اللَّه فيه شىء من العقوبة وشىء من التأديب، قوله تعالى: ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع من ثلاثة إلى عشرة، وقد حددها العلماء بأنها سبع سنين.

❁❁❁

رؤيا الملك

يُعلمنا ربنا عز وجل كيف يُجرى الأحداث؛ لتتم أقداره دون أن يشعر أحد، اللَّه تبارك وتعالى أراد أن يعطى يوسف الحكم، وأن يكون عزيز مصر، ماذا حدث؟ الذى حدث أن الملك رأى فى منامه رؤيا أفزعته. فجمع الملك حاشيته وقصَّ عليهم منامه الذى رآه فماذا قال؟ قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَايَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

رأى الملك هذه الرؤيا ففزع وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَايَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

هنا الكلام عن مصر، والذى اشترى يوسف هو عزيز مصر، والقصة وقعت فى مصر، ولكن هناك عزيز وهناك ملك مع أن الذين كانوا يحكمون مصر كانوا يسمونهم الفراعنة، فكيف حدث هذا؟ وأين ذهب فرعون؟

عندما تتبعنا التاريخ واكتشفنا حجر رشيد، وعرفنا تاريخ مصر القديم وعرفنا لغة قدماء المصريين، وعلمنا أن هناك فترة من الفترات توقف فيها حكم الفراعنة، وجاء الرعاة الذين يسمونهم الهكسوس وحكموا مصر. وكان يوسف وإخوته فى وقت حكم هؤلاء الرعاة. ثم استعاد الفراعنة حكم مصر وطردوا الهكسوس، وجاءوا بمن تحالفوا معهم فقتلوهم وعذبوهم، وفى الفترة التى عاشها يوسف لم تكن مصر تحت حكم الفراعنة، وإنما كان الهكسوس يحكمون، وكان هناك ملك هو الذى يحكم، والعزيز مثل الوزير أو رئيس الوزراء، وهذا من إعجاز التنبؤ فى القرآن الكريم؛ لأن هذه الحقيقة لم يعرفها العالم إلا حديثًا فى فترة الاحتلال الفرنسى لمصر، ولكن القرآن ذكرها منذ أربعة عشر قرنًا، قبل أن يقوم أحد بالعثور على حجر رشيد أو فك رموزه. وجاءت الحقيقة العلمية؛ تأكيدًا لإعجاز التنبؤات فى القرآن الكريم.

ملك مصر عندما رأى هذه الرؤيا طلب تأويلها أى: معناها، وطلب الفتوى وقال: ﴿أَفۡتُونِي﴾ الرؤيا منامية تتعارض مع الفكر السليم، فالبقر الهزيل يأكل البقر السمين.

﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ [يوسف: ٤٣] سمان يعنى: سمينة، وعجاف: يعنى هزيلة، طلب الملك أن يفسروا له رؤياه ماذا قال وجهاء قومه؟

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ [يوسف: ٤٤] والضغث هو: حزمة حشائش مختلفة الأجناس، ومادامت ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ أى: مختلفة مع بعضها البعض فليست لها تأويل، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤] إن الملك حينما رأى رؤياه عرضها على مستشاريه، فلم يستطيعوا أن يفسروها، وقالوا: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ وقالوا: لا علم لنا بالتأويل، وذلك هو صدق الاستشارة؛ لأن الذى يعلن جهله بأمرها، ويطلب سؤال غيره يكون أمينًا فى رده، ولذلك قال العلماء: من قال لا أدرى فقد أفتى؛ لأنه حين يقول لا أدرى سيضطرك إلى أن تسأل غيره؛ حتى تصل إلى الحقيقة، كانوا أمناء وقالوا: لا نعرف شيئًا، من الذى سمع هذا الحوار؟ إنه الساقى الذى نجا فتذكر ما حدث فى السجن وما قاله يوسف.

وأيضًا فقد قال البعض من أهل تفسير الرؤي أن قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يعنى أنه يوجد اضطراب فى القول. فمن الذى رأى الرؤيا؟ إنه الملك. إذن فلا ضرورة للرائى أن يكون مؤمنًا ولا صالحًا. قد يقول قائل: كيف يطلعه اللَّه على مثل هذه المسائل؟ نقول: قد تكون الرؤيا إكرامًا للرائى، وقد تكون الرؤيا إكرامًا للمعبر الذى يعرف التأويل، وهى هنا إكرام للمعبر وهو يوسف عليه السلام.

قول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] إذن. فالساقى الذى قال له يوسف: إنك ستسقى الملك خمرًا، سمع وهو يسقى الملك عن الرؤيا التى رآها الملك، ورأى حيرة القوم، وتذكر بعد فترة قصته مع يوسف، وقال إننى أعرف من ينبئكم بتفسيره، وقال: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ يعنى: ابعثونى إلى من سيروى لنا معنى هذا الحلم وأرسلوه، وأسرع إلى يوسف، فماذا قال له؟

قال كما يقص علينا القرآن: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦] وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم يتجاوز الأحداث، التى يحكم العقل بحدوثها، فلم يقل الحق سبحانه إن الساقى بعد أن قال لهم: أرسلونى إلى السجن لأسأل يوسف، تداولوا ثم وافقوا على إرساله، وأذن له وذهب والتقى بيوسف وقص عليه القصة، فجاءت المواجهة قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ وبعدها مباشرة: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]. قوله: يوسف أيها الصديق، تدل على أنه جربه فى مسائل متعددة، وكان فيها صادقًا، وأنه صادق فى كل أقواله، فكأن الصدق يلازم يوسف

فى أقواله وأفعاله. أما فى الأقوال؛ لأنه يقول كلامًا له واقع، ولا يقول كلامًا لا واقع له، إذ إن هناك لكل قول قضية كلامية، وهى التى تنطق بها، وقضية واقعية وهى فى الحقيقة أو فى الواقع خارج النفس. والكذب أن تقول كلامًا ليس له واقع؛ لأن حركات الإنسان فى الحياة إما قول وإما فعل.

جاء الساقى إلى يوسف من عند الملك، فماذا قال له؟ قال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحلم؛ كى ننقله إلى الملك؛ لأنه انزعج. والفتوى المطلوبة فى ماذا ﴿فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أى أن البقر الهزيل يأكل السمين، وهذا ضد طبيعة الأشياء؛ لأن المفروض أن البقر السمين القوى هو الذى يفتك بالبقر الضعيف الهزيل. ثم ماذا؟: ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

الحق سبحانه يبين أن الساقى جاء يطلب هذه الفتوى ليس لنفسه، ولكن لمن أرسلوه، وهو الملك وحاشيته؛ ليخبره بتفسير يوسف؛ لذلك يقول كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

لماذا قال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ﴾ ولم يقل لأرجع؟ لأن الساقى وقد أثر فيه ما أبلغه يوسف فى السجن يعلم أن الأمور ليست بيده، وهو ليس متيقنًا أنه سيعود إلى الملك، فقد يأتى قضاء اللَّه ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته؛ ولذلك لم يقل لأرجع ولكن قال ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ﴾؛ لأن رجوعه قضية لا يجزم بها، وذلك إيمان منه بقدر اللَّه تعالى مع الإنسان، فرجوعه ليس فى يده؛ لذلك الاحتياط مع قدر اللَّه يخرجك من أن تكون كاذبًا.

إذن.. فاستعمال كلمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. احتياط آخر فى الأداء، ويقول ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ﴾.. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يعلمون ماذا؟ يعلمون القضية، أو يعلمون التأويل أو يعلمون منزلة يوسف عند ربه وقدراته؛ ليخلصوه من السجن الذى وضع فيه ظلمًا أو يعلمون علم يوسف وفضله.

قوله: ﴿أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ نحن نعرف أن الملك هو الذى كلفه، وأن الحاشية قد اختلفت فيما بينها فى إرساله، وقال بعضهم: لا ترسلوه، وقال بعضهم: أرسلوه، ولكنه قال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾. أى أنه نسبها للكل؛ لأنه ساعة يعود لن يستمع إليه الذين وافقوا على إرساله فقط، ولكن سيستمع إليه من قالوا أرسلوه ومن قالوا لا ترسلوه.

يوسف عليه السلام أبلغ مندوب الملك تفسير الرؤيا، فماذا قال له؟: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف].

يوسف عليه السلام أفهم الساقى أنهم سيزرعون سبع سنين، يواصلون خلالها الزراعة، وهذا معنى كلمة: ﴿دَأَبًا﴾. أى لا يوجد كسل، ونتاج هذا الزرع اتركوه فى سنبله، أى لا تتصرفوا فيه بالتجارة، ولا بالمبادلة ولا بأى شىء آخر، الزرع الذى تحصدونه فى هذه السنوات السبع، خذوا منه بقدر حاجتكم إلى الطعام، على أن يكون ذلك أقل ما يمكن. ولقد علمتنا هذه الآية الكريمة حقيقة اهتدى إليها العلم أخيرًا بالبحوث المختلفة هى: أن الشىء إذا ترك أو تم تخزينه فى وعائه من القشر الخارجى، فذلك يحفظه من السوس.

إذن فيوسف أخبرهم بأن يتركوا القمح، الذى سيزرعونه خلال هذه السنوات السبع فى غلافه الخارجى حتى يقيه من السوس والآفات. إذن فليس المطلوب فقط الزرع بجد واجتهاد السنين السبع القادمة، ولكن المطلوب أن يتركوه أيضًا فى سنابله أى غلافه الخارجى، بل إن بعض العلماء يقولون: إن المطلوب هو أن يترك القمح فى عيدانه كلها، وليس فى السنابل أو الغلاف الخارجى؛ وذلك لكى يأكل الناس ما فى السنابل، وتأكل الحيوانات عيدان القمح.

ومادامت الحيوانات ستأكل العيدان، نكون بذلك قد وفرنا الغذاء فى فترة الجدب، للإنسان والحيوان وليس للإنسان وحده، كما أننا عندما نطحن القمح بقشره تخرج منه الردة «النخالة»، والردة الخشنة غذاء أيضًا للحيوان، كما أننا حين ندرس القمح كى نذريه نفصل الحبة عن قشرتها. إذن فهناك غلافان لحبة القمح: الغلاف الأول: هو القشر الذى نطيره عندما نذريه، والقشرة الثانية: تخرج عند طحن القمح.

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾. إشارة إلى القشرة الحافظة للقمح، فهى حافظة وداخلة فى كيماوية الغذاء، فالناس الذين كانوا مترفين، يطحنون القمح ويتخلصون من القشرة؛ ليحصلوا على الدقيق الأبيض، الذى لا يوجد داخله شىء من الردة، هذه القشرة التى يتخلص منها بعض الناس؛ ليحصلوا على الدقيق الأبيض الصافى، هى التى امتن بها اللّه جل جلاله على خلقه فى قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢] أى ذو القشرة التى وجد أنها تحتوى على كمية كبيرة من المواد اللازمة للجسم.

ثم ماذا بعد ذلك؟: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨] قوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾. أى: ما حفظتموه فى سنوات الرخاء، تأتى السنوات السبع الشداد وتأكله، وهنا نسب الحدث للزمن فقال: ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ هل السنوات السبع الشداد هى التى ستأكل، أم الذين يعيشون فى هذه المنطقة خلال السنوات الشداد هم الذين سيأكلون؟ والحدث يحتاج إلى زمان ومكان، هنا نسب للزمن؛ لأنه هو الذى نسبت إليه الأحداث مرة رخاء ومرة شدة، وينسب الحق تبارك وتعالى الحدث للمكان فى قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢]. هل سنسأل القرية أم نسأل أهل القرية؟ وهل سنسأل عير القافلة أم سنسأل أصحاب القافلة؟ إذن فقد ينسب الحدث إلى المكان أو الزمان، إذا كان للزمان والمكان خصوصية فى الحدث؛ ولذلك نسب الأكل للسبع الشداد.

وقوله: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى من العرق والعمل فى المحاصيل التى أتت بها سنوات الرخاء.

قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ كلمة حصن معناها: الامتناع. يقولون: بنوا حصنًا ليحتموا فيه إذا هاجمهم أعداؤهم، بحيث يمتنع على أعدائهم النصر وتمتنع عليهم الهزيمة، واقرأ قوله سبحانه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٤] أى: الممتنعات عن الفجور، ويقول جل جلاله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾. أى: امتنعت عن التفريط فى عرضها، كل هذا معناه الامتناع، ومعنى ذلك: أنكم بعد انتهاء السبع الشداد، ستحتاجون إلى تقاوى؛ ولذلك فلا تأكلوا القمح كله، لابد أن تبقوا ما ستستخدمونه كتقاوى بعد انتهاء سنوات الجدب؛ ولذلك امتنعوا عن أكل التقاوى، واحفظوها جيدًا فلا يصل إليها أحد؛ لأنكم إن أكلتموها يكون القمح قد نفد، فلا تجدوا ما تزرعونه.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] هذا خارج عن الرؤيا؛ لأن الرؤيا: ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ انتهت الرؤيا عند السنة السابعة من السنوات الشداد.

كلمة: ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ هذه نبوءة من يوسف ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أى يعانون معاناة شديدة؛ والغيث ينزل لينقذ الناس من الجدب، يغاث الناس أى لا يحصلون إلا على قوتهم الضرورى، ﴿يَعْصِرُونَ﴾ أنت لا تعصر شيئًا إلا إذا احتجت إلى كل قطرة

منه، فإن كان عندك تمر مثلاً أكلت منه، ثم قلت اعملوا جزءًا عجوة وجزءًا آخر جفافه، فهذا دليل على أن عندك فائضًا، ولكن إذا جئت لهذا التمر، وأخذت منه تمرة تمرة، وقلت حافظوا عليه فكأنك لا تملك منه الكثير ولذلك تأخذه قطرة قطرة كأنك تعصره.

❁❁❁

الملك يطلب لقاء يوسف

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]. لم يقل: إن الساقى رجع إلى الملك، وروى له ولحاشيته ماذا قال له يوسف، ثم تداولوا وقرر الملك أن يرسل فى طلب يوسف؛ لأن هذا مفهوم بالسياق، ونحن نلاحظ أن هذه سمة مميزة للقرآن الكريم، فهو يترك الأشياء التى يتوصل إليها العقل؛ لتجتهد العقول فيها.

القرآن تجاوز ذلك كله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ [يوسف: ٥٠] فلما جاءه الرسول، معنى هذا أن يوسف كان مازال باقيًا فى السجن، حتى بعد أن فسر رؤيا الملك، ولذلك عاد الساقى إلى السجن مرة أخرى؛ ليبلغ يوسف أن الملك يريد أن يراه، فقال يوسف كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]. وهكذا رفض يوسف عليه السلام، أن يخرج من السجن الذى هو فيه، إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها أهل المدينة جميعًا بما فيهم الملك، وطلب يوسف أن يسأل الملك النسوة، كيف راودن يوسف عن نفسه، وهكذا تعطينا قصة يوسف العبرة التى تخدمنا فى قضايا الحياة فبراءة الساحة أمر مهم بالنسبة لكل إنسان، ومادام بريئًا فلابد أن تعلن براءته ويعرفها الجميع، لم يرد يوسف أن يخرج من السجن وتلاحقه الإشاعات الكاذبة رغم أن اللّه سبحانه وتعالى يعلم براءته، لكنه أراد أن يعرفها الناس جميعًا؛ لأنه رسول والرسول قدوة سلوكية، ولكى يؤدى رسالته ويتبعه الناس، لابد أن يكون قدوة سلوكية لا تشوبها شائبة.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ معناه أنه سيقربه إليه، ولكن رغم هذا فإن يوسف رفض أن يترك السجن إلا بعد أن يُبرأ علنًا، ومن الملك وأمام الناس جميعًا؛ ولذلك يُروى عن رسول اللّه ﷺ ما معناه: رحم اللّه أخى يوسف، لقد كان كريمًا حينما جاءه الرجل يسأله عن تفسير الرؤيا، كان من الممكن أن يقول

لن أفسرها إلا إذا أخرجتمونى من السجن، وكان كريمًا حينما قال الملك أئتونى به، وذهب إليه من يأخذه، فقال لن انتقل إلا إذا نظرت حكاية النسوة، وكان كريمًا حينما ستر على امرأة العزيز، وقال: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾

قال الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١] الملك جمع نسوة المدينة، وخاطبهن وواجههن بأنهن راودن يوسف عن نفسه، المرادة بالاتهام هى امرأة العزيز، ولكن الملك بناء على ما قاله يوسف، جمع كل النسوة وقال لهن: ما خطبكن؟ والخطب حدث ولكنه حدث هام يتناقله الناس؛ الملك حينما خاطب النسوة، اعتبر أن مراودتهن يوسف عن نفسه عملية خطيرة، تدل على انعدام القيم، ولما رأى النسوة هذه اللهجة الشديدة من الملك، أسرعن ينفين التهمة عن أنفسهن، فقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ نلاحظ هنا أنهن يتحدثن عن مسألة مراودتهن يوسف، أى برأن يوسف ولم يبرئن أنفسهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا ليوسف من أن يفعل ما يغضب الله، وقلن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾. يعنى يوسف كريم الخلق لا يفعل سوءًا أبدًا، بالنسبة لهؤلاء النسوة أو غيرهن، وكانت امرأة العزيز جالسة مع هؤلاء النسوة، فقد أتى بها الملك معهن، ولم يشر إليها القرآن الكريم، إلا عندما تكلمت وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ . . . ﴿٥٢﴾﴾.

امرأة العزيز وقفت وقالت: إنه لم يعد هناك مجال للستر، أنا راودته فعلاً وهو صادق، مما يدلنا على أن الجذوة الإيمانية فى الإنسان تتوهج، وأنه قد ينسى الله، ولكن عندما ينتهى الخاطر السيئ، يعود إلى توازنه الكمالى، وربما جعل من الزلة الأولى، وسيلة الإحسان فيما ليس له فيه ضعف. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. ولو أن الإنسان عمل سيئة، فقد يضاعف من حسناته حتى يغفر الله له هذه السيئة، ولذلك على الإنسان أن يكثر من عمل الخير، ليمحو الله سيئاته التى سترها عن الناس.

قول امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] يعنى حتى يعلم يوسف أننى فى غيبته دافعت عنه، وقلت الحق. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] معناه أن الجريمة لا تفيد، ولابد أن يعرف الناس الحقيقة ولو بعد حين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾

[يوسف: ٥٤]. يعنى أنا لا أريد أن أبرئ نفسى كذبًا؛ لأن النفس على إطلاقها تأمر بالسوء ولكن يوسف نفس؛ ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومعنى غفور: أى للذنوب، ورحيم يمنع الإنسان بعد ذلك من الوقوع فى الذنب؛ لأن الإنسان محتاج إلى ما يشفيه من المرض وإلى ما يعطيه مناعة؛ حتى لا يعود إليه المرض مرة أخرى، ولذلك يقول المولى جل جلاله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] أى أنك عندما تؤمن بمنهج اللَّه يشفيك مما أنت فيه، يشفيك من الداء، ثم يعطيك المناعة فلا يعود لك المرض أبدًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ﴾ من تمام قولها أم لا؟ بعض العلماء قالوا: إنه من قول يوسف عليه السلام، عندما أُبلغ أن امرأة العزيز قالت كذا وكذا. قال يوسف: أنا لا أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء؛ لأن هناك أحيانًا يأتى غرور الإيمان فى النفس، فيحاول الرسول أن يتذكر أنه بشر لا تعصمه إلا رحمة اللَّه، ومن لطف اللَّه سبحانه أنه قال: ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. ولم يقل آمرة بالسوء، «أمارة» يعنى تأمر بالسوء مرة أما «آمرة» فمعناها أن عادتها هى السوء لماذا؟ لأن التكاليف الإلهية كلها إما أمر أو نهى، الأوامر تكون صعبة على النفس أن تفعلها، والنواهى عزيز على النفس أن تتركها، العاقل ينظر إلى الغاية البعيدة الباقية، كيوم القيامة ولا ينظر إلى اللذة العابرة.

❁❁❁

تمكين اللَّه ليوسف

يقول الحق تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ﴾ [يوسف: ٥٤] فكأن الملك قال أئتونى به مرتين، مرة حين رفض يوسف الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته، والمرة الثانية عندما ظهرت براءة يوسف فذهب إلى الملك ولما التقيا قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. أقالها الملك بمجرد وصول يوسف إلى القصر؟ لا، لابد أنه جلس وتحدث معه ووثق من علمه، ووثق من أمانته وحفظه؛ ولذلك يقول الحق: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] دليل على أن الملك اختبر يوسف مرة، وربما مرات ووثق فى علمه وأمانته.

إذن.. ما السبب فى أن الملك مكن يوسف من الحكم واستأمنه على أشياء كثيرة؟

السبب: أنه حفيظ وعليم، أى أنه حافظ على أعنف غريزة فى الإنسان، وهى غريزة الجنس، وحافظ عليها وهو فى عنفوان شبابه، فكأنه ليس مندفعًا، بل هو قوى يستطيع أن يكبح أعنف الغرائز، وكذلك فإن يوسف عليم؛ لأنه الوحيد الذى استطاع أن يفسر للملك رؤياه، وهذا يقتضى علمًا، كما أن الملك حين كلمه اكتشف فيه رجاحة العقل، والقدرة على الفكر السليم، وكل الصفات المطلوبة فى عزيز مصر؛ ولذلك فإن الملك قال سأستخلصه لنفسى، أى سأجعله مقربًا منى، فلما كلمه واكتملت عنده الصورة الطيبة، قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى: مُمكن، أى: من أهل الثقة الذين لا يُطعن فيهم.

إذن.. فيوسف عليه السلام أصبح من أهل الثقة، لماذا؟ لأنه حاز ثقة الحاكم، وفى نفس الوقت كان يجب على الحاكم أن يتأكد من صلته بالمحكومين، فى أن يكون أمينًا معهم، لا يحابى أحدًا على حساب أحد، وهذا ما زاد يوسف عليه السلام كفاءة فى وظيفته. لذا يتحتم على أهل الحكم أن لا يفضلوا أهل الثقة على أهل الخبرة الذين يعرفون الشىء معرفة دقيقة. حينما سمع يوسف هذا الكلام وعرف أنه حاز ثقة الملك، قال: لو طلبت منه الآن شيئًا، لأعطانيه وأنا سأطلب ما يتعلق بتفسير الرؤيا، سأطلب أن أكون على خزائن الأرض؛ لأنقذ الناس من المجاعة، وأحفظ لهم حياتهم، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ وكان هذا الطلب تأكيدًا لثقة يوسف فى أن رؤياه ستتحقق فى سبع سنين رخاء، وسبع سنين جدبًا، وأنها محتاجة لحكمة وإدارة، فى سنى الخصب تضمن ألا يحدث إسراف فى الاستهلاك، وفى سنوات الشدة تضمن أن كل محتاج إنسانًا كان أو حيوانًا، كل كائن حى سيجد طعامه، وهذه تحتاج إلى علم يعطيك حكمة التصرف، وأمانة تعطيك العدل بين الناس، وخبرة تضع كل شىء فى موضعه تمامًا؛ لذلك طلب يوسف عليه السلام أن يكون على خزائن الأرض؛ لأنه حفيظ عليم.

يوسف عليه السلام طلب الولاية، وطالب الولاية فى الإسلام لا يُولّى، ولكن الظروف التى أدت إلى تولى يوسف، لم تكن ظروفًا عادية بل كانت ظروفًا استثنائية؛ ولذلك فى هذه الظروف، لابد لمن له الحكمة أو الخبرة، أن يعرض نفسه ويطلب أن يتولى الأمر.

وقوله: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أى اجعلنى أتولى الاقتصاد، وقوله: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى عندى من الخصال ما يتطلبه العمل.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٥٦] مكنا ليوسف كيف؟ بأن اللَّه تعالى علمه تأويل الأحاديث، ثم جعل الملك يرى رؤيا تزعجه، لم يفسرها إلا يوسف، ومكنه بأمانته وحسن خلقه، ومكنه بأن أبطل كيد إخوته الذين تآمروا عليه؛ وألقوه فى الجب ليباع عبدًا، ليس هذا فقط، بل إن يوسف ابتلى من كل من أحبوه، فابتلى من عمته التى تحبه فاتهمته بالسرقة كيدا، لتبقى عليه معها، وابتلى بسبب حب أبيه له، فأخذه إخوته وألقوه فى الجب.

وابتلى بحب امرأة العزيز فدخل السجن، وحكاية عمته أنها كانت تحبه جدًا، وربته وهو صغير بعد أن ماتت أمه، وأراد أبوه أن يأخذه منها، ولكنها لم تكن تصبر على فراقه، ففكرت كيف تبقى يوسف عندها، وكان هناك حزام يتحزم به إبراهيم، اسمه منطقة إبراهيم، والحزام كان عند عمة يوسف، وكان المبدأ أن من يسرق شيئًا يعاقب بأن يصبح عبدًا لمن سرقه.

عمة يوسف عليه السلام ألبسته منطقة إبراهيم تحت ثوبه، وعندما جاءوا ليأخذوه قالت إنه سرق.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] كلمة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تدل على سعة ساحة الأرض، التى مكن منها يوسف، ومعنى ذلك أن المشكلة كبيرة؛ لأنه عندما يأتى جدب ويشمل منطقة كبيرة، فإن العبء يكون ثقيلاً؛ لكثرة عدد الذين يطلبون الطعام، ولذلك كانت القوافل تأتى من الشام وغيرها، من الدول المجاورة لمصر؛ لتحصل على القمح، مما يدل على أن الجدب كان عامًا وشمل المنطقة كلها.

وقوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾. أى يسكن فى أى بقعة شاء، وفى أى منطقة يريدها، وهذا يؤكد أن يوسف عليه السلام، كان يتمتع بحب الناس، وأنه فى نفس الوقت كان يتنقل من بقعة إلى أخرى؛ حتى تنال كل البقاع قدرًا مساويًا من الاهتمام.

والحاكم حين يقيم فى منطقة، تلقى اهتمام الدولة لمرافقها وطرقاتها، كما أن هذا يدل على أن كل الأرض المحيطة كانت تخضع لإدارته، وأنه يكون يومًا هنا ويومًا هناك، وليس هذا ترفًا ولكنه نوع من التكليف، فوجود يوسف فى أى منطقة، سيجعل الناس تنشط من أجله ويستفيد بذلك المحيطون.

اللَّه سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن يوسف عليه السلام مُكن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، أراد أن يلفتنا إلى أن ذلك رحمة للناس؛ لأنه فى كل منطقة سيذهب إليها، سيعرف المشاكل على حقيقتها أو على الطبيعة ويحلها، فإذا كانت

هناك منطقة محرومة من المياه، أنشأ فيها خزانات للمياه، وإذا كان لا يأتيها طعام أمر لها بالطعام، هذا بالنسبة لأمور الدنيا، وبالنسبة لجزاء الآخرة قال سبحانه: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمحسن هو الذى يؤدى فوق ما طُلب منه، وأجر المحسنين فى الدنيا لا يضيع، وفى الآخرة لايضيع أيضًا، ولكنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ٥٧] والخير يقابله الشر، فهل أجر المحسنين فى الدنيا شر؟ نقول: لا، كلمة خير تستعمل استعمالين: استعمال أن شيئًا خير من شىء، واستعمال أن كلا الشيئين خير يقول رسول اللَّه ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف وفى كل خير[1]».

إذن.. فالمؤمن الضعيف كونه عند اللَّه أقل درجة من المؤمن القوى، لا يعنى أنه شر ولكن هو خير؛ ولذلك قال رسول اللَّه ﷺ: «وفى كل خير» فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف، هذه اسمها أفعل التفضيل.

أما الخير الذى يقابله شر فاقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

وقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعدل ميزان حركة الحياة؛ لأن ميزان حركة الحياة لا يستقيم بالحديث عن الآخرة فقط؛ لأن الكافر الذى لا يؤمن بالآخرة، وينكرها يملأ الدنيا ظلمًا وعدوانًا؛ لأنه يعتقد أنه ليس هناك آخرة، ولذلك لابد أن ينتقم اللَّه من الظالم فى الدنيا؛ ليكون عبرة لغيره، وفى نفس الوقت يعطى للذى يحسن فى الدنيا حسنة، ويقول له: إن أجرك فى الآخرة سيكون خيرًا من أجرك فى الدنيا.. لماذا؟ لأن خير الدنيا إما أن تفوته أو يفوتك، ولكن أجر الآخرة أبدى ودائم ولذلك فهو خير.

❁❁❁

لقاء يوسف وإخوته

نعود إلى إخوة يوسف، فمنذ أن ألقوه فى الجب لم نعرف ماذا فعلوا، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨] لقد جاء إخوة يوسف، وهم عصبة يتحركون مع بعضهم، جاءوا فى طلب القوت؛ لأنها مجاعة ولا يوجد طعام إلا فى خزائن يوسف، ولا يصرف للناس إلا بأمر

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٦٦٤/ ٣٤].

منه، يوسف عرفهم؛ لأنهم لم يتغيروا، ولكنهم لم يعرفوه لماذا؟ لأنه كان صغيرًا وأصبح رجلاً؛ ولأنه كان على خزائن الأرض، فكانت هذه تعطيه هيبة. أما إخوته فقد كانوا كبارًا فلم تتغير ملامحهم وهو تغير؛ لأنه أصبح عزيز مصر، يعيش فى قصر محاط بأشياء كثيرة لا تمكنهم من معرفته، مضافًا إلى ذلك أنهم كانوا مكروبين، فلم يدققوا فيه، فقد جاءوا لطلب الطعام، وكان هذا كل همهم؛ ليحفظوا حياتهم وحياة أهلهم، كما أنهم لم يتوقعوا أن يكون يوسف هو العزيز.

والحق سبحانه وتعالى يخبرنا بعد ذلك لماذا جاء إخوة يوسف، فيقول: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩] وهكذا أسلوب القرآن الكريم، لا يذكر الخطوات التى يمكن للعقل أن يصل إليها بالبديهة؛ ولذلك لم يقل لنا: إنهم جاءوا لطلب الطعام، وقالوا له: إننا نحتاج إلى طعام، وأن عددنا كذا، وأنه أمر بإعطائهم ما يريدون، وإنما قال: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ والباقى يمكن أن يستنتجه العقل بسهولة.

وهذه لقطة تعطينا ما كان فيه إخوة يوسف من اضطراب عقلى؛ لأنهم كانوا يريدون الحصول على طعام، ولم يكن تفكيرهم إلا فى هذا الطعام.

ذلك أن يوسف قال لهم: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ وكان العقل يقتضى أن يقولوا: من الذى أعلمه أن لنا أخا من أبينا؟. لم ينتبهوا إلى هذا؛ لأن المجاعة والحصول على الطعام كان هو الهم الأكبر لجميع الناس. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ الجهاز هو ما جاءوا من أجله؛ لينقلوه من مكان إلى مكان أى: القمح، وهو الأمر الذى جاءوا ليحصلوا عليه.

قول يوسف عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ لأن كل واحد جاء على بعير، والبعير موضوع عليه الثمن، يحمل القمح ويترك الأثمان، سواء كانت على هيئة أقمشة أو غير ذلك.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أى أعطيتكم حقكم فى الكيل وزيادة، ولو جئتم بأخيكم من أبيكم، فسأزيد الكيل لكم؛ ولذلك قالوا وهم يساومون أباهم على أخذ أخيهم ـ قالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يوسف يحاول أن يغريهم حتى يأتوا بأخيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ المنزل فى ظاهر الأمر عكس المُعلى، ولكن هنا معناها الذى ينزل المكان، ويكون المكان معدًا له إعدادًا فيه كل متطلبات الحياة؛ ولذلك يسمون الفنادق بالنُزُل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ إخبار يؤكد أن إخوة يوسف هم الذين نزلوا عنده، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعلهم يأتون وينزلون عنده؛ ليقول لهم أحضروا إلىّ أخاكم من أبيكم، ثم يتبع ذلك بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠]. الوقت وقت مجاعة وجدب وقحط، ومثل هذا الإنذار يجعلهم يحاولون أن يأتوا بأخيهم بأى طريقة؛ لأن يوسف لو نفذ تهديده، ومنع عنهم الكيل فسيواجهون الموت جوعًا.

يوسف عليه السلام قال لهم: إن لم تأتونى بأخيكم من أبيكم، فلا يوجد لكم كيل عندى، ولا تقربوا هذه الناحية أبدًا؛ لتحصلوا على طعام.

المسألة بالنسبة للإخوة ليست سهلة، فهو خيّرهم بين أن يأتوا بأخيهم، أو لا يأخذون الكيل. وهم يعرفون أن أباهم لن يثق فيهم، بعد ما فعلوه بيوسف، حتى يسلمهم أخاه الصغير؛ لذلك قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: ٦١] كلمة ﴿سَنُرَاوِدُ﴾ أى سنتفاهم مع أبينا؛ لأن هذه مسألة صعبة، والمراودة أخذ ورد، أنت تقول وهو يرد عليك، ثم ترد عليه. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ يعنى سنذهب ونحضره معنا.

ماذا فعل يوسف؟ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢] البضاعة هى ما جاءوا به ثمنًا للقمح، يوسف قال لرجاله: أعطوهم القمح، وأعيدوا إليهم الأثمان التى أتوا بها وضعوها فى رحالهم بحيث لا يرونها، إلا إذا عادوا إلى دار أبيهم، ولماذا يضع البضاعة؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى لعلهم يعودون مرة أخرى؛ ليردوا ثمن ما أخذوه. ماذا فعل إخوة يوسف حينما عادوا إلى أبيهم؟.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣] منع منا الكيل: أى أنهم لم يلحظوا أن يوسف قد جهزهم بالقمح الذى أرادوه، أو منع منا الكيل: أى فى المستقبل بعد هذه المرة؛ لأن العزيز قال لنا: إن لم تحضروا أخاكم ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أى: إذا أردتنا أن نأتى لك بالقمح، فالكيل لنا ممنوع إلا إذا أخذنا أخانا معنا. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أى أن إخوة يوسف قالوا ليعقوب عليه السلام: منع منا الكيل، ولن نأخذ كيلاً إلا إذا كان معنا

أخونا، ولا تخش شيئًا فإننا سنحفظه، ولن يحدث له أذى، ورد الأب الملتاع[١] فقد ابنه، كما يقص علينا القرآن الكريم قائلاً: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قول يعقوب: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دليل على أنه وافق على أن يذهب أخو يوسف معهم، بعد أن أحس إخوة يوسف أن أباهم سيرسل معهم ابنه الصغير، نزلوا وبدأوا ينزلون ما فوق الإبل، فوجدوا القمح ووجدوا بضاعتهم، التى أخذوها معهم ثمنًا للقمح ردت إليه، حينئذ قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ [يوسف: ٦٥] أى لا نريد أن نأخذ أخانا، فبضاعتنا موجودة والقمح موجود.

وكل ما سنزداده إذا ذهبنا، هو حمل بعير، وهو البعير الذى سيركب عليه أخو يوسف، وهذا كيل لا يساوى الإزعاج، بل هو كيل يسير، ولكن يعقوب يعلم أنه بعد فترة، سينتهى القمح الذى أحضروه، فلابد لهم من الذهاب، وهو فى نفس الوقت شيخ كبير، ولا يستطيع أن يصحبهم فى الرحلة، فلجأ إلى اللّه سبحانه وتعالى، وقال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أى لن أرسله معكم، حتى تحلفوا لى باللّه إنه لن يحدث له شىء، وسيعود معكم. ثم جاء الاحتياط من يعقوب، أى أن تحدث ظروف خارجة عن إرادتكم، فى هذه الحالة فقط يكون ما حدث قدرًا لا يد لكم فيه.

ويعقوب الرسول المؤمن راض بقدر اللّه، مهما يكن ولو كان فيه ضياع أولاده جميعًا، وقبل أولاد يعقوب الاحتكام إلى اللّه، وفعلاً أخذ منهم العهد والميثاق، وأشهد اللّه عليهم كما يقص علينا القرآن الكريم ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] وهكذا أشهدوا اللّه على ما فى قلوبهم، واحتكموا جميعًا إلى اللّه سبحانه.

جاء موعد الرحلة والسفر إلى مصر، وبحنان الأبوة وقف يعقوب يودع أبناءه، ويزودهم بنصائحه، قال يعقوب: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧] قال يعقوب هذا الكلام؛ لأنه شهد حفاوة يوسف بإخوته، رغم أنه لم يعلم السبب، ولا أن هذه البضاعة من عند يوسف عليه السلام، ولا أن يوسف هو عزيز مصر، ولكنه أحس أن أولاده أصبح لهم شأن وهم أغراب، وهم حين يذهبون لإحضار القمح، يغادرون قريتهم إلى قرية غريبة قد يكيد لهم الناس

---

(١) الملتاع: أى الحزن، والضجر، والجزع المعجم الوسيط [٢/ ٨٤٩].

حين يعلمون أن معهم كميات كبيرة من الطعام. وأولاد يعقوب كانوا أحد عشر بانضمام بنيامين لهم، وربما خشى عليهم أبوهم من الحسد كما بين الحق سبحانه وتعالى أن هناك حاجة فى نفس يعقوب قضاها.

فكأن يعقوب يخشى على أولاده من الحسد، وهو يستعيذ باللَّه من ذلك، مما يدل على أن البشر لا يقى نفسه من الحسد، إلا بالاستعاذة باللَّه سبحانه وتعالى.

قال يعقوب عليه السلام لأولاده: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] يعقوب أراد أن يقى أولاده شر الحسد، فقال لهم: لاتدخلوا من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة؛ حتى لا يحسدكم الناس على كثرة عددكم وعلى قوتكم.

وقال: إن تفرقكم لن يغنى عنكم من اللَّه من شىء، فالحكم كله للَّه قضاءً وقدراً، وأطاع أبناء يعقوب أمر أبيهم، ودخلوا من أبواب متفرقة.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ [يوسف: ٦٨] أى أنهم حينما أطاعوا أمر يعقوب، لم يكن ذلك لينجيهم، أو يمنع عنهم قدرًا من أقدار اللَّه، فالأمر كله للَّه، ولكن خاطرًا ورد على نفس يعقوب فقضاه، وهو أنه خاف أن يحسدوهم، أو أن يتشككوا فيهم، أو أى خاطر آخر.

لذلك يقول الحق تعالى عن يعقوب: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ أى: أنه لم يقل لأولاده، ادخلوا من أبواب متفرقة من فراغ، ولكن كان عن علم علَّمه اللَّه له، علم خاص بيعقوب: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. أى: أن أكثر الناس يعزلون الأسباب عن المسبب، ويعتقدون أن الأسباب تعمل بذاتها وهذا ما يتعب الدنيا.

❁❁❁

يوسف وأخوه

وننتقل إلى مشهد آخر من مشاهد قصة يوسف عليه السلام، حين وصل إخوة يوسف إليه، ورأى يوسف عليه السلام أخاه، أخذه وضمه إليه وفى ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: ٦٩] وكان يوسف متشوقًا إلى أخيه، الذى لم يره منذ سنوات طويلة، وقد كان شقيقه من أب واحد وأم واحدة، وأراد يوسف أن يطمئن أخاه؛ لأنه لم يكن يدرى شيئًا عن قصة يوسف والبئر؛ لأنه كان صغيرًا. ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أى: لا

تحزن فأنا أخوك يوسف، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دليل على أنهم كانوا يعاملونه معاملة مهينة؛ حقدًا منهم كما حقدوا على يوسف لحب أبيه له.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] أى أنه أعطاهم ما يريدونه من القمح والطعام، وكل ماطلبوه وجعل السقاية فى رحل أخيه، والسقاية تطلق إطلاقات متعددة: سقاية الماء مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

إذن.. فالسقاية هى المكان الذى يوضع فيه الماء؛ ليشرب منه الناس، والسقاية هى الإناء الذى يملأ بالماء؛ ويعطى للناس لتشرب، وما داموا قد وضعوها فى المكان الذى يوضع فيه ما يحمله البعير، فهى إناء يشرب منه الملك مثل الكأس، وأحيانًا يجعلونه مكيالاً وهو فى العادة يكون نفيسًا.

ويقولون: السقاية هى الصواع أو الصاع، فهى تطلق على المكان الذى يوجد فيه الماء، وعلى الآلة التى يُرفع بها من المكان إلى فم الشارب. و ﴿جَعَلَ﴾ هنا لا تعنى أنه قام بنفسه بهذا، بل أمر القائمين بالكيل أن يجعلوا السقاية فى رحل أخيه.

ثم بعد ذلك جاء رجل من الحاضرين، وقال بصوت عالٍ: إنكم لسارقون أى اتهمهم بالسرقة، وهذا اتهام خطير شد انتباههم، لقد كانوا جالسين متفرقين أو بعيدين عن الإبل التى تحمل القمح، فلما سمعوا ذلك المنادى، تنبهوا وأقبلوا يسألونه: ما الذى ضاع؟ الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ... ﴿٧٢﴾﴾.

إذن.. فصواع الملك هو الذى وضعوه فى راحلة أخى يوسف، ولقد وضع صواع الملك؛ لتكون جريمة كبرى فى حق الملك، ولابد لها من عقاب، ولا تنفع فيها الشفاعة.

ثم قال الذى كلف بإعلان نبأ السرقة ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾. أى أن الذى سيأتينا بهذا الصواع لن نعاقبه، بل سنعطيه حمل بعير زيادة.

والسرقة اتهام قبيح، ولذلك أسرع إخوة يوسف يقسمون بالله إنهم لم يسرقوا شيئًا. وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أى أنهم أقسموا أنهم ما جاءوا ليفسدوا فى الأرض، وأنهم أمناء لا يسرقون؛ لأنهم من الأسباط، ولا تمتد أيديهم إلى السرقة.

أراد يوسف أن يأخذ أخاه بحيلة لا يتنبهون إلى أنها مدبرة، أو أنه هو يوسف؛ لذلك أمر رجاله فقالوا: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤] وهذا هو القصد الذى أراد يوسف أن يصل إليه، هو أن يترك إخوته يحددون العقوبة على أخيهم، ويكون الحكم برضاهم ولا يمكن أن يتراجعوا فيه، وهنا قال إخوة يوسف: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ وهذه هى القضية، لقد صدر الحكم من إخوة يوسف، وبرضاهم ولا يستطيعون التراجع فيه، ويوسف أمر رجاله أن يضعوا صواع الملك فى رحل أخيه؛ ليأخذه ويبقيه عنده، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ولم يقل: كدنا يوسف؛ لأن الكيد لم يقع على يوسف، وإنما كان له ولم يكن عليه.

ماذا فعل يوسف بعد ذلك؟ أمر رجاله أن يبدأوا أولاً بأمتعة إخوته، والإبل التى جاءوا بها، وأن يتركوا البعير الخاص بأخيه من أمه آخر ما يفتشونه، فيقول الحق سبحانه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لأنه لو بدأ بوعاء أخيه أولاً؛ لانكشفت الحيلة، ولكنه بدأ بأوعيتهم أولا، وآخر ما فتشوا كان وعاء أخيه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] أى أن اللَّه سبحانه وتعالى حقق ليوسف الأمل، الذى تمناه فى أن يكون شقيقه معه، وأعطاه من العلم ما جعله ينتصر على أشقائه، أى علمه سبحانه الكيد لصالحه، وما كان له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء اللَّه. وقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ تدلنا على أن اتهام شقيق يوسف بالسرقة، لم يكن لكى يعذب فى الآخرة، ويقام عليه الحد فى الدنيا، فهو فى الحقيقة برىء لم يسرق، ولكن كان هذا لرفع درجاته فى الدنيا والآخرة، حيث سيعيش مع أخيه عزيز مصر عيشة رغدة، بعد أن كان إخوته يحقدون عليه، ويجعلون حياته مليئة بالمضايقات، وفى نفس الوقت سيكون مع نبى اللَّه يوسف، فيزداد علوًا فى الآخرة بتطبيقه منهج اللَّه الصحيح، فكأن اللَّه سبحانه وتعالى حينما كاد ليوسف بالاتهام بالسرقة الذى وجه إلى أخيه، كان ذلك فى رفع الدرجات، اللَّه سبحانه وتعالى يلفتنا هنا، إلى ألا نأخذ أقداره بمظهرها فقط، بل نعرف أن لها حكمة، وكثير من المصائب التى تحدث للناس، قد لا يعرفون أنها قد تؤدى بهم إلى خير كثير، ولذلك فإن كل أقدار اللَّه التى تحدث للإنسان، من غير رأى أو اختيار منه، لابد أن يتقبلها؛ لأن للَّه فيها منحة وعلو درجة، ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. ذى علم: يعنى صاحب علم، ولكن فوقه عليم.

إخوة يوسف اعتقدوا حين جاء الاتهام بفقد صواع الملك، أو الإناء الذى يشرب فيه، اعتقدوا أن فى هذا شرًا لأخى يوسف، هذا هو مبلغ علمهم، ولكن العليم الذى دبر ونفذ وأحكم، كان يعلم أن هذا رفع للدرجات لأخى يوسف. فماذا فعل الإخوة؟ لقد كانوا يكرهون يوسف وأخاه، ويقولون: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨]. إذن.. فعندهم كره له ولأخيه؛ لأنهما ابنا امرأة أخرى هى راحيل، ولذلك بمجرد أن اتُّهم، لم ينظروا ما إذا كان هذا الاتهام صادقًا أم كاذبًا، وإنما بدأوا يهاجمونه، ويقولون: ما نزل علينا البلاء إلا منك ومن أخيك، أى منه ومن يوسف، وأسرعوا يظهرون حقدهم وأن الوقت والسنوات الطويلة لم تغير ما فى قلوبهم تجاه يوسف، فقالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا﴾ فأظهروا بذلك الحقد الذى يملأ قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾ فهذه قضية شرطية، أى إن حدث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر، تقول لابنك: إن تذاكر دروسك جيدًا تنجح، إذن فهناك حدثان: حدث المذاكرة وحدث النجاح، فكأن حدوث النجاح يشترط له أن تكون مذاكرا، والذى يأتى أولاً هو الشرط، فما دام هناك حدث فهناك شرط لوجوده قبل أن يحدث. قوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا هو الشرط يأتى أولاً، ولكن الآية الكريمة تقول: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وكان المفروض: إن يسرق الآن يحدث كذا وكذا، ولكن الآية جاءت بأمر غير منطقى فى الشرط.

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن إخوة يوسف قالوا له: إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر!! لماذا؟ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل، لقد سرق أخوه الأكبر من قبل، وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه، وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذى يخاطبونه، حين يسمع يوسف هذا الكلام لابد أن تخرج الملكات عن استقامتها؛ لأن اتهام إنسان برىء بالسرقة، لابد أن يحزنه ويؤلمه، ولذلك لابد أن يحدث انفعال مضاد: هذا الانفعال إما أن يبقى داخل النفس فلا يخرج، وإما أن يظهر فيحدث رد فعل عنيف.

وكان يوسف عليه السلام يستطيع أن يبرىء نفسه وأخاه من تهمة السرقة، كان يستطيع أن يقول لهم: أنا لم أسرق وأخى لم يسرق، وأنتم الذين يملأ الحقد قلوبكم علينا، ولكنه لو فعل ذلك لكشف عن شخصيته، وهو يريد أن يبقى مجهولاً لديهم، فهو برىء من السرقة وأخوه برىء، ولكنه لايستطيع أن يتكلم، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ إذن.. فهذا الاتهام أثار فى نفس

يوسف انفعالات ولكنه كتمها داخل نفسه. ورسول اللَّه ﷺ يقول ما معناه: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع[1]» وذلك حتى لا يحدث منه انفعالات ضد من أغضبه، يوسف قال فى نفسه كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لماذا؟.. لأنهم جاءوا بقصة كاذبة، بأن يوسف أكله الذئب، كما أنهم يؤكدون اتهامًا باطلاً بأن يوسف سرق. يوسف لم يأكله الذئب ولم يسرق، ولكن أنتم الذين سرقتم، سرقتم طفلاً من أبيه هو يوسف عليه السلام.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هنا لابد أن نفهم أن يوسف عليه السلام لم يقل قولاً سمعه إخوته، بل هو قالها فى نفسه؛ لأنه لو قالها علنًا ونطق بها لكشف عن نفسه وهو مالا يريده، ولا تتعجب، فإن الإنسان يقول لنفسه، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨] إذن فهم قالوا فى أنفسهم، كما قال يوسف: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. كلمة: ﴿تَصِفُونَ﴾ أى بمعنى تنعتون أو تبدون من الصفات، أى أنها تطلق على الكذب، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦] ويقول سبحانه: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] إذن.. فـ ﴿تَصِفُونَ﴾ إذا جاءت تلفتك إلى أن الذى يقال كذب، فكأن يوسف يقول اللَّه يعلم إنكم لكاذبون.

إخوة يوسف حين أحسوا أن أخاهم سيؤخذ منهم، وأنهم سيعودون إلى أبيهم من غيره، تذكروا وعدهم لأبيهم، فبدأوا يستعطفون يوسف، الذى لم يعرفوا شخصيته الحقيقية؛ لكى يطلق سراح أخيه. قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨] إذن فقد حاولوا أن يستخدموا الضعف؛ ليرق يوسف لهم ويترك أخاهم، قالوا: إن لهم أبًا عظيمًا فى قومه وهو شيخ كبير، وإذا بلغه أن ابنه قد سرق، فهذه تهزه من داخل نفسه، وتهزه فى شرفه بين قومه، تمامًا كما يُتهم إنسان فى جريمة، وتقول: اتركوه؛ لأن أبويه صالحان كريمان فلا تفضحوهما.

وسواء كانوا يقصدون شيخاً كبيراً، كبر فى مقامه بين قومه أو كبر فى سنه بحيث لا يتحمل الصدمة.

---

(١) رواه أبو داود [٤٧٨٢] وصححه الألبانى [٤٠٠٠] عن أبى ذر رضى اللَّه تعالى عنه.

ثم انطلقوا بعد ذلك يعرضون أنفسهم بدلاً منه، فقالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أى أنه إذا كان لابد أن تأخذ واحداً بجريمة السرقة التى حدثت، فخذ أحدنا مكانه واتركه يعود إلى أبيه. وهنا رد يوسف عليه السلام كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩] أى أن يوسف رفض أن يأخذ أحدهم، وقال: لا أريد إلا الحق، ولو أخذت إنسانًا بذنب إنسان آخر أكون من الظالمين.

حينئذ علموا أنه لن يجدى النقاش ولا الرجاء مع يوسف، بل إنهم ظلوا يناقشونه حتى بلغوا مرتبة اليأس، أى قطع الأمل من الشىء تمامًا، كما يقول الأطباء: الطب يئس من علاج هذا المريض، أى: لا أمل فى علاجه.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى فِى يُوسُفَ ۖ﴾ [يوسف: ٨٠] عندما أحس الإخوة أنه لا فائدة من الجدل مع يوسف، فى أن يعطيهم أخاهم خلصوا نجيا، أى أنهم ابتعدوا عن العزيز ومن حوله، وجلسوا فى مكان خالص لهم، وخالص معناها: لا يوجد شىء غريب، تمامًا كما تضع الذهب فى البوتقة كى تخلصه من المعادن الأخرى؛ ليصبح ذهبًا صافيًا لا يختلط به شىء. إخوة يوسف ابتعدوا إلى مكان خالص لهم، لا يشاركهم فيه أحد، ولا يسمعهم أحد، وجلسوا يتشاورون، على أننا نلاحظ أن كلمة: ﴿فَلَمَّا خَلَصُوا۟﴾ جمع، و ﴿نَجِيًّا ۖ﴾ مفرد وهذه من ضمن الأشياء التى يثيرها بعض المستشرقين للتشكيك فى القرآن الكريم، نقول لهم: تفهموا اللغة العربية؛ فهناك ألفاظ يتساوى فيها المفرد والجمع، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] لم يقل الله سبحانه وتعالى والملائكة ظهراء. وقوله جل جلاله: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] ولم يقل: أعداء، لماذا؟.. لأن كلمة ﴿عَدُوٌّ﴾ معناها أنهم جميعًا مشتركون فى العداوة، يجمعهم هدف واحد.

ساعة يئسوا من يوسف ذهبوا إلى مكان ليتناجوا فيه، وعادةً فى مثل هذه الحالات يكون الرأى الأول للكبير منهم؛ لأنه أرجحهم عقلاً وأكثرهم حكمة، إذن فهم عندما ذهبوا إلى المكان، ليتناجوا كان لابد أن يبدأ الكبير بالحديث.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ

﴿تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أى أنه إذا أردتم أن تتناجوا، فلابد أن تكون المناجاة فى إطار أنكم عاهدتم بموثق من اللَّه، أن حكاية يوسف لن تتكرر، وأنكم ستعودون إلى أبيكم، ومعكم أخوكم شقيق يوسف من الأب والأم، وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ لأنكم وعدتم أباكم أن ما حدث مع يوسف لن يتكرر.

ثم قال كبيرهم وهو أكبر الإخوة سنا: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠] إذن فكبيرهم أوضح خطته ووضع ثلاثة شروط:

أولها: أنه سيبقى فى المكان الذى فيه أخوه، حتى يأذن له أبوه أن يعود، ولن يتحرك من هذا المكان إلا إذا اقتنع أبوه ببراءته.

أما الشرط الثانى: أن يحكم اللَّه له، أى يحكم بأن يسلموه أخاه، فيأخذه معه ويذهب.

الشرط الثالث: فإذا لم يحدث هذا، فسيبقى فى هذه الأرض حتى يموت، واللَّه هو خير الحاكمين.

لأنهم إذا كان لهم يد وتدبير فيما حدث مع يوسف، فليس لهم يد وتدبير فيما حدث مع أخيه؛ ولأن هذا الأخ هو الكبير، وهو المسئول عن إخوته، فلم يقدر أن يتحمل مسئولية إبلاغ أبيه بما حدث؛ لأن هذه صدمة كبيرة على الأب الذى فقد يوسف، ثم فقد أخاه الأصغر بنيامين، ولم يفكر هذا الكبير أنه لو بقى فى هذا المكان فسيفقد أبوه الابن الثالث، ثم أصدر أوامره إلى إخوته: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]، فكأنه طلب من إخوته أن يعودوا إلى أبيهم، ويقولوا له القصة بحقائقها، يقولون: إن ابنك سرق وهم لم يقولوها جزافًا؛ لأنهم قالوا ما علموا: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أى أنهم لم يجزموا، إنما قالوا هذا من ظاهر الأحداث التى علموا بها: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أى ما كنا نعلم أن ابنك يسرق، ويقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢] لأنهم كذبوا فى قصة يوسف، فإنهم يعرفون أن أباهم لن يصدقهم فى هذه القصة، فقالوا: إنك يا أبانا لن تصدقنا، ولكن اسأل القرية التى كنا فيها، والقافلة التى عدنا معها. هنا نلاحظ أن قولهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ الأحداث محتاجة إلى فاعل، وإلى مكان وإلى زمان، ولكن هل سيسأل يعقوب

القرية، مساكنها وشوارعها؟.. طبعًا لا، وإنما سيسأل أهل القرية، لماذا لم يأت السياق: واسأل أهل القرية؟ لأن حادث السرقة يعرفه كل من كان فى القرية، فلو سأل أى واحد فسيرويه له، حتى إنه من وضوحه سيشهد به الجماد، وما دام يعقوب نبى، فلو أنطق اللَّه له الجماد لروى له القصة. وقولهم: ﴿وَٱلْعِيرَ﴾ العير: هو ما يركب فى القافلة، سواء كانت ناقة أو جملاً أو بغلاً أو غير ذلك، إنها الدواب التى تحمل البضاعة فى القوافل، وفى العادة يكون معها عدد قليل من الحراس، ولكن هل سيسأل يعقوب العير؟.. طبعًا لا، ولكن المفروض أنه سيسأل كل من كان فى القافلة. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ هكذا أقسموا مرة أخرى أنهم يقولون الصدق، والدليل على صدقهم، أنهم استشهدوا بكل من كانوا معهم فى القافلة والإنسان إن كان صادقاً استشهد بالناس، وإن كان كاذبًا هرب من الشهادة.

❁❁❁

عودة أخوة يوسف إلى أبيهم

عاد أولاد يعقوب عليه السلام إلى أبيهم بدون أخيهم وأخذوا يتعللون ويعتذرون لأبيهم ولكن كان الرد من الأب حاسماً إذ قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ٨٣] وهذا يدل على أنه مازال فى نفسه شك منهم و ﴿سَوَّلَتْ﴾ بمعنى سهلت ويسرت وزينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أى تخفون شيئًا دبرتموه ولا أعرفه، ولماذا قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؟ لأن الأشياء التى تخالف منهج اللَّه، ويستحى منها الإنسان ويخشى عاقبتها، تستعصى على النفس فلا تقبل حدوثها؛ لذلك فإن النفس تحتاج لتبريرات؛ كى تطاوع صاحبها فى الفعل، ولذلك فإنه حين يبدأ الإنسان فى الإثم، يكون مترددًا خائفًا، يحاول أن يفعل الشىء، فتمنعه نفسه ولا تطاوعه، ولكن عندما يسهله لها وييسره ويزينه، تقدم النفس عليه بسهولة دون التردد وصعوبة التنفيذ.

والحق سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية فى آية أخرى، ولكن التعقيب فى الآية التى نحن بصددها، يختلف فى التعقيب عن الآية الأخرى، يعقوب حين أبلغه أبناؤه أن يوسف أكله الذئب، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ هذا فى قصة الذئب ويوسف، أما فى قصة بنيامين شقيق يوسف فقد قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾. فى الآية الأولى قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ مما يدل على أن الأحداث لن تقف عند هذه النهاية، بل ستحدث

تطورات تحتاج إلى الصبر الجميل، والصبر الجميل ليس فيه شكوى، لم يقل يعقوب عسى اللَّه أن يأتينى بهم، ولكن فى هذه الآية قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ فكأن هبات الفرج هبت على يعقوب، وهو النبى، ووضعت فى نفسه، ما يؤكد له بأن اللَّه تعالى سيأتيه بأولاده جميعًا، ويجزيه خيرًا على صبره. الذين ليس لهم دراية كاملة بالقرآن الكريم، يأخذون آية ويتركون أخرى، يقولون: إن القرآن يقول: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾، بينما هما يوسف وأخوه بنيامين. نقول لهم: أنتم نسيتم كبيرهم الذى قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾. إذن.. فهناك ثلاثة: يوسف، وأخوه بنيامين، والأخ الكبير، فلابد من استخدام صيغة الجمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العليم الذى لا يغيب عن علمه سبحانه شىء، فهو يعرف مكان يوسف وبنيامين والأخ الأكبر، وحكيم فيما يجرى علينا من أقدار.

لما جاء أولاد يعقوب وقالوا له ما قالوا، ماذا كان موقفه منهم؟ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أى: عن أولاده الذين أتوه، لم يواصل معهم الحوار، بل تركهم. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ تأتى عندما يأتيك أحدهم بخبر محزن؛ فتتركه لتخلو بنفسك، كذلك يعقوب خلا بنفسه؛ لأنه يتحسر على يوسف وأخيه، وهو لا يريد أن يظهر الحزن والأسى لأحد من خلق اللَّه؛ لأنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولذلك قال له أحد إخوانه، وهو يرى ما فيه يعقوب من حزن بليغ: تهشمت يا يعقوب، ولم تبلغ سن أبيك إسحاق، قال: إنما هشمنى يوسف فعتب اللَّه سبحانه وتعالى عليه هذه الكلمة، وقال له أتشكو ربك لخلقه؟ فرفع يعقوب يديه إلى السماء، وقال خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى، فقال له اللَّه تبارك وتعالى: غفرت لك. وكان يعقوب لا يشكو إلى الناس ولكن يشكو إلى اللَّه.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ساعة تسمع: يا أسفا، ويا ويلتا، تعرف أنه نداء لشىء محزن، ولكن هل أنت تنادى المصيبة؟ هناك ساعات تضيق فيها النفس، فينادى الإنسان الأحزان، و ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ معناها: يا أسف هذا أوانك فاحضر، ولكنه أبدى حزنه على يوسف، بينما الذى ضاع منه هو بنيامين وابنه الأكبر، فلماذا لم يظهر الحزن عليهما وأظهره على يوسف؟ لأن يوسف هو قاعدة كل هذه المصاعب، هو أصل الحزن. كيف؟: بنيامين أخذ بسببه والكبير قعد

بسببه، ولقد كان وجود بنيامين عزاء وسلوى ليعقوب، ولكن عندما ذهب طغا الحزن على الاثنين؛ لأنه حرم منهما معًا، وقوله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ العين فيها بياض وفيها سواد، فابيضت أى التى كانت سوداء صارت بيضاء، والإنسان إذا امتلأت عيناه بالدموع، تُحدث غشاء على سواد العين، فيبدو أبيض فكأن عينيه ابيضتا من الحزن وكثرة البكاء. وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الكظم فى الحزن انفعالات عاطفية لا يستطيع أحد أن يمنعها، بل هى التى تقدر عليه، ولذلك فإن رسول اللَّه ﷺ عندما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه فقال له الصحابة: ألم تنهنا عن ذلك يا رسول اللَّه؟ قال: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1]». واللَّه سبحانه وتعالى لا يريد للإنسان أن يكون صخرًا، لا ينفعل للأحداث؛ لأن هذا لون يجب أن يكون فى إنسانيتك، وعاطفة يريد اللَّه تبارك وتعالى أن يبقيها؛ لأن اللَّه سبحانه خلق فى الإنسان عواطف وغرائز، ولو لم يشأ العواطف والغرائز ما خلقها فينا، فالعواطف لها مهمة والغرائز لها مهمة، وساعة تخرج إحداهما عن مهمتها، فإن المنهج يحكمها؛ حتى لا تكون شرا، مثلاً غريزة الجنس؛ هى لاستبقاء النوع وإنجاب الأولاد والذرية، فلا تجعلها انطلاقًا وحشيا. إذن فالغرائز والعواطف هى التى تجعلك تحنو على طفلك الصغير، وترعى امرأتك... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كظيم مأخوذة من كظمت القربة؛ لأن القربة إذا امتلأت لابد أن تكتمها؛ لكى لا يسيل الماء منها، فكأن يعقوب أبقى حزنه فى قلبه وكظمه، كما تكظم القربة فلا يسقط منها شىء.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] من الذى قال؟ إن يعقوب تولى عنهم واعتزلهم، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، ساعة قال ذلك قالوا له: ستظل تذكر يوسف وتحزن عليه حتى تموت؟! فكأنهم ساعة سمعوه يذكر يوسف قالوا هذا الكلام، والحرض: هو الإشراف على الهلاك، أى أنهم قالوا: إن يعقوب من حزنه سيشرف على الهلاك، ثم يكون من الهالكين فعلاً، وهنا رد يعقوب عليهم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أى لا شأن لكم بى واتركونى لحالى، وشكوى العبد إلى اللَّه هى من تمام العبودية للَّه؛ لأن اللَّه هو الأعلى، فإذا ما أصاب العبد- وهو

(١) أخرجه البخارى [١٣٠٣] ومسلم [٢٣١٥/ ٦٢] عن أنس رضى الله تعالى عنه.

الأدنى ـ سوء يفزع إلى خالقه، إلى اللَّه سبحانه وتعالى، والشكوى هنا نوعان: تودد إلى اللَّه سبحانه وتعالى بالاستغفار والطاعات؛ لعلّ اللَّه يصرف عنه السوء. ونوع آخر ذلك الذى يتأبى على اللَّه، ويسخط مما وقع عليه ولا يشكو الأمر للَّه، ولكنه يشكو اللَّه إلى خلقه، ويتأبى على الطاعة ويزداد فى المعصية.

ثم يقول يعقوب لأولاده: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ نلاحظ هنا أن المسألة الآن لم تعد يوسف وأخاه؛ لأنهم أصبحوا ثلاثة: يوسف وأخوه من ناحية، والأخ الأكبر الذى قال: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ هذا الأخ موجود باختياره بعيدًا عن أبيه، ولذلك لم يأت ذكره هنا؛ لأنه فى أى لحظة يستطيع أن يعود إلى أبيه وتنتهى المشكلة، أما اللذان جاء ذكرهما فى الآية الكريمة فهما يوسف وأخوه، موجودان فى مكان لا يعلمه الأب، ولا يعرف كيف يصل إليهما، وقد فقد الأمل فى أن يراهما.

قوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟﴾ من الحس، والحس تجمع كل الحواس، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية، والمعلومات التى تتكون عندنا هى معلومات محسوسة، أى قدرتها الحواس.

إذن.. فقوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُوا۟﴾ أى استخدموا كل حواسكم، سواء الظاهرة منها أو غير الظاهرة؛ لتصلوا إلى المعلومات التى تؤدى إلى أن تعرفوا مكان يوسف وأخيه، والإنسان عادة حين تطلب منه معلومات، فإنه يستخدم أكثر من حاسة، إنه يستخدم العين ليرى، والأذن ليسمع المعلومات، وأحيانًا يستخدم الشم واللمس، يعقوب عليه السلام يريد من أولاده أن يستخدموا كل حواسهم؛ ليعرفوا مكان يوسف وأخيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يۡـَٔسُوا۟ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ معناه: إياكم أن تقولوا: إننا تعبنا من البحث، ويئسنا من الوصول إلى مكان يوسف وأخيه؛ لأن اللَّه تعالى أمرنا بأن لا نقنط من رحمته ولا نيأس من عفوه ولذلك يقولون: لا كرب وأنت رب، أى أن الأشياء التى لانستطيع الوصول إليها بقانون الأسباب نلجأ إلى اللَّه سبحانه وتعالى خالق الأسباب، ونقف بين يديه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يۡـَٔسُوا۟ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ هنا: الروْح بالسكون على الواو، هى الرائحة التى تهب على الإنسان فيستروح بها، كأنك وأنت جالس والجو حار خانق، ثم جاءت نسمة لطيفة باردة، هذه ما يسمونها الروْح بالسكون على الواو هى الشىء الذى يجعلك تنتعش بعد شدة الحر، ولذلك فإن الرائحة التى نأخذها

بتقطير الزهور تنعش النفس. اللَّه سبحانه وتعالى يقول عن الآخرة فى سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أى أن الروح تهب بالطيبات تنعش النفس، خصوصًا إذا كنا فى حديقة، فتأتينا هذه الروح بروائح الزهور العطرة، ولكن فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ معناها: أن اللَّه الذى خلق الروح يملكها، ويعرف سرها وحده ينفخها فى الجماد، فتعطيه الحياة والحس والحركة. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أى القوم الذين لا يؤمنون باللَّه؛ لأن هؤلاء الناس لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية، فإذا تخلت عنهم هذه الأسباب، يملأ قلوبهم اليأس فينتحرون أو يصابون بالجنون، أما المؤمن فيقول: لى رب هو خالق الأسباب، سيفتح لى طريق الخلاص، فإذا كان الله يعطى بالأسباب، فهو سبحانه القادر على أن يعطى بدون الأسباب قال وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . . . ﴿٣﴾﴾ [الطلاق].

❁❁❁

أخوة يوسف يتعرفون عليه

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] وهكذا دخلوا على يوسف بالترقيق والتفخيم؛ لأن كلمة عزيز معناها: المالك المتصدق المكين، أى أن ما يطلبونه منه لا يخرج عن إرادته وسلطانه، يشكون إليه قسوة الجوع، ويقولون له إنهم جاءوا ببضاعة مزجاة، أى مدفوعة الثمن، يزجى يعنى يدفع، ولكن هذه البضاعة رغم أنها مدفوع ثمنها، إلا أنها رديئة ليست جيدة، فكأنما بلغ الحال بأولاد يعقوب أن أصابهم الضر، حتى إنهم لم يعد عندهم البضاعة الجيدة، التى أتوا بها فى المرات السابقة، ولذلك جاءوا بالبضاعة الرديئة يدفعونها ثمنًا للقمح، وهم يستعطفون يوسف ألا يعطيهم ثمنًا قليلاً، مقابل هذه البضاعة المزجاة، فيقولون له: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أى لأنهم يعانون من المجاعة، يطلبون كيلاً وافيًا من القمح، فإن لم يكن هذا الكيل يساوى البضاعة، التى يحملونها فليكن الباقى صدقة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ إنك لن تأخذ الجزاء منا، حتى تقول: لا تملكون شيئًا تعطونه. ولكنك ستأخذ الجزاء من اللَّه سبحانه وتعالى، وهو الغنى دائمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ إذن هنا ردوه إلى من هو أغنى وأعلى وأقدر من الدنيا كلها، وهو اللَّه سبحانه وتعالى، وقالوا: إذا كنا لا نستطيع أن ندفع، فستأخذ الثمن من اللَّه الذى لا تفرغ خزائنه.

obeikandl.com

وإذا قلنا إنهم أولاد نبوة، ولا تجوز عليهم الصدقة[1] نقول لا؛ لأن هذه اختص بها اللَّه سبحانه وتعالى محمداً ﷺ

يوسف عندما سمع هذا الكلام ابتسم وضحك فظهرت ثناياه، وكانت مميزة بحيث أن كل من يراها يعرفه، فلما رأوا ثناياه، بدأوا يدركون الموقف ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] بمجرد أن قالها ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾. أى أنهم أعلنوا شخصية يوسف بعد أن وثقوا منها، ولم ينكر يوسف عليه السلام، بعد أن رأى الحال الذى وصل إليه إخوته ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ ورغم أنهم عرفوه إلا أنهم فوجئوا باعترافه، وينبههم يوسف إلى أن أخاه دخل فى النعمة معه، ثم أعطاهم حيثيات النعمة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أى أن حيثيات النعمة هى أن الإنسان يتقى اللَّه دائمًا، ولا يفعل ما يغضبه. والتقوى والصبر يدخلانك فى مقام الإحسان، وهو أعلى مقامات العبادة والقرب من اللَّه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ كأن يوسف يلتمس لهم العذر، أى أنهم لو كانوا يعلمون أن ما فعلوه يغضب اللَّه ما أقدموا عليه، إذن فأساس عملهم هو الجهل وليس المعصية، هنا تنبه إخوة يوسف إلى القضية كلها، وكيف أنهم أرادوا أن يحرموا يوسف من حب أبيه وحنانه، فأعطاه اللَّه ما جعله مفضلاً عليهم جميعًا فى النعمة، ولذلك يقول الحق: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أى أن اللَّه تبارك وتعالى قد ميزك علينا جميعًا ﴿وَإِن كُنَّا﴾ أى حالنا وقت أن فعلنا ذلك كنا ـ خاطئين، وهناك فرق بين خاطئين ومخطئين.

الخاطئ هو: الذى يعلم منطقة الصواب ويخطىء عن علم وعمد، أما المخطئ فهو يقصد الصواب لكنه يخطئ، ولذلك لم يتم خطؤه عن عمد، الاثنان لم يصلا إلى الصواب، ولكن الخاطئ اختار الخطأ وهو يعلم موقعه والمخطئ اختلط عليه الخطأ والصواب. ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ وهذا قسم مثل: واللَّه، وباللَّه ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ومعنى آثرك: أى فضلك، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١] اعتراف بالذنب، فهم أخذوا طريق الخطأ وهم يعلمون فكانت النتيجة أن عدل اللَّه أعطاهم ما يستحقون وفضل يوسف عليهم.

---

(١) كان رسول الله ﷺ: «يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة رواه أبو داود [٤٥١٢] وصححه الألبانى [٣٧٨٤].

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ والتثريب معناه اللوم العنيف، وهى كلمة مأخوذة من الثرب، عندما يذبحون الذبيحة، ويجدون حول أمعائها كثيرًا من الدهن، هذا اسمه ثرب، وهذا الثرب تصاب به الشاة، وعندما لا تجد المرعى فتصاب بالهزال فإنها تتغذى من هذا الدهن، فالتثريب هو اللوم العنيف، الذى يصل بالإنسان إلى درجة أنه يهزل من إحساسه بالذنب، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أى بعدما اعترفتم بذنبكم وتبتم ورجعتم إلى اللّه. ورسول اللّه ﷺ يقول ما معناه: إذا زنت جارية أحدكم فاضربوها الحد ولا تثربوها أى: لا تذلوها حتى لا تصاب بالهزال من فرط الإحساس بالذنب.

ثم تنتقل اللقطة مرة أخرى إلى الأب يعقوب عليه السلام، ولابد أنهم قد حكوا ليوسف ما حدث لأبيهم، وكيف أنه يبكى بكاءً مرًا، وكيف أن عينيه ابيضتا ولم يعد يرى، كل هذا تركه القرآن الكريم؛ لأن هذه أشياء من السهل الوصول إليها، وجاء قول يوسف مباشرة: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾، إذن.. فلا بد أنه عرف أن أباه يربط عينيه من الحزن، ولكن من الذى ناوله يوسف القميص ليأخذه لأبيه؟ إنه كبيرهم الأخ الكبير الذى تقدم، وقال ليوسف عليه السلام: أيها العزيز إننى أنا الذى حملت إلى أبى قميصك، وجئت عليه بدم كذب، فدعنى أكفر عن ذنبى، وأحمل إلى أبى القميص الذى فيه الشفاء.

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أى: يأتى إلى يوسف وقد زال عنه الضر والمرض، يأتيه مبصرًا، إذن فهذا القميص الذى فيه رائحة يوسف، سيعيد البصر إلى يعقوب، فيأتى لابنه مبصرًا.

وقوله: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣] هنا نلاحظ دقة تعبير القرآن الكريم، فيوسف لم يدع إخوته فقط، ولكنه قال لهم: كل من له صلة قرابة بكم من أى جهة فائتوا به، والمعروف أنه حينما طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يجعله على خزائن الأرض؛ ليواجه السنوات السبع الشداد، كان يأخذ ثمن القمح ذهبًا وفضة، فإن لم يكونوا يملكون ذهبًا وفضة، يأتوا بأحجارهم الكريمة مثل الياقوت والمرجان، فإذا نفدت الأحجار يأتون بالدواب، فإذا نفدت الدواب يأتون بأولادهم يعطونهم ليوسف ويأكلون بثمنهم.

ولقد فعل يوسف ذلك؛ ليقلل من الاستهلاك، فلو أنه أعطى الناس القمح مجانًا؛ لأسرفوا فيه وبعثروا، حتى إنه لم يكن يكفيهم طوال هذه السنوات السبع المليئة بالجدب؛ لذلك كان تشدد يوسف حتى يتوخى الناس الحرص فى

استهلاكهم، ولكن بعد أن انتهت سنوات المجاعة، أعاد يوسف لكل واحد ما أخذه منه، أى رد للناس أشياءهم؛ وكان قد أخذها لتحديد الاستهلاك فقط؛ حتى يواجهوا المجاعة.

❁❁❁

يعقوب يشم رائحة يوسف

وحمل الإخوة القميص وخرجوا من عند يوسف باتجاه أبيهم: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤]. وفصلت: تدل على أن شيئًا كان متصلاً وفصل، أى أن العير تجاوزت المدينة، وكانت تمشى وهى خارجة من المدينة فى موكب واحد متصلة ببعضها البعض، فلما خرجت خارج المدينة، انفصلت عن بعضها، وذهبت كل قافلة إلى طريقها: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ أى: تتهمونني بالتخريف لكبر سنى، وقوله: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ﴾ أى أنه شم رائحة يوسف التى كانت فى القميص، رغم المسافة الكبيرة التى بين القافلة وبين المدينة التى بها يعقوب، وهذا من دلائل النبوة التى أعطاها اللَّه سبحانه وتعالى ليعقوب.

ولقد ثبت الآن علميا أن لكل إنسان رائحة مميزة، لا يشترك فيها مع إنسان آخر ونحن لا نستطيع أن نميز هذه الرائحة، ولكن الكلاب البوليسية تستطيع بحاسة الشم القوية التى لديها، أن تتعرف على الإنسان من رائحته، عندما يترك المجرم أى ملابس أو أشياء فيها رائحة عرقه فى مكان الجريمة، يأتى الكلب البوليسى فيشم الرائحة ويتعرف على صاحبها، ويخرجه من بين مئات الأشخاص الموجودين، ويتكرر العرض عدة مرات، فيخرج الكلب نفس الشخص من بين الموجودين.

اللَّه سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة، يلفتنا إلى هذه الحقيقة العلمية، وهى أن لكل إنسان رائحة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ونبى اللَّه يعقوب بما علمه اللَّه عرف من رائحة قميص يوسف أن يوسف، ما زال حيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ لأن القافلة الكبيرة لما غادرت المدينة التى كان يقيم فيها يوسف، كانت تضم عددًا كبيرًا من الناس، فكانت رائحة قميص يوسف مختلطة بروائح كثيرة، كما أن مبانى المدينة كانت تحجزها، فلما خرجت القافلة من المدينة، وانقسمت إلى مجموعات صغيرة، وأخذت كل قافلة منها طريقها إلى بلدها، أوصل اللَّه تعالى رائحة يوسف إلى يعقوب عليهما السلام،

عندما سمع من هم حول يعقوب قوله بأنه يشم ريح يوسف ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ولقد كان هذا القول عن جهل طبعًا؛ لأن الله علم يعقوب ما لم يعلموه وميزه عنهم، وهكذا اتهموا يعقوب بأنه يردد الخرافات التى كان يرددها حول يوسف، وليس المقصود بالضلال هنا ما يتعلق بالدين. ولكن المقصود به الجزئيات التى لا علاقة لها بالدين، كأن يقول: أنا واثق أن يوسف سيعود أو غير ذلك، كانوا يعتبرون هذا ضلالاً، وهو دائمًا قول كل جاهل لم يؤت من العلم شيئًا.

وصلت القافلة وجاء الأخ الأكبر يحمل قميص يوسف، وألقاه على وجه أبيه، ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. انظر إلى دلائل الحق والنبوة، وكيف أن النبى يحس بالأشياء قبل الناس، ثم يأتى الواقع فيؤيد ما يقول، ولذلك عندما يصلكم خبر من معصوم، فإياكم أن تقفوا بعقولكم فيه؛ لأن العقول تأخذ مدركات الأشياء على قدرها، وهناك أشياء فوق قدرة العقول، فإن حُدثتم بها فلاتكذبوا، خذوها وإن لم تفهموها، ولذلك قال يعقوب: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ كأن ذنوبهم كثيرة، وهم معترفون بخطئهم، ماذا قال يعقوب؟ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

❁❁❁

يعقوب وأبناؤه فى مصر

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٩]. نقلة سريعة من بيت الأب فى الشام إلى حيث يوسف.

إذن.. إخوة يوسف جمعوا أهلهم وأعدوا الدواب وركبوا مع أبيهم، حتى وصلوا إلى مكان يوسف، ثم استأذنوا فى الدخول فأذِن لهم.

وقوله تعالى: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾. كيف يقال: أبويه، وأم يوسف ماتت وكذلك جده، والأب وحده الذى كان موجودًا؟ نقول: إن العادة كانت، إذا ماتت الأم، يدعون الخالة أما ويجعلونها فى مقام أمهم.

وقوله: ﴿... ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ... ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف] هذا يدل على أن هناك دخول أول حينما قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، ودخول ثان: عندما آوى إليه أبويه، ذلك أنه من

عادة العظماء أن يستقبلوا كبار ضيوفهم فى مداخل أو عند حدود البلاد، فاستقبال العظماء يتم أولاً عند الحدود، حيث يقدم إليهم وجهاء القوم وأعيانهم، ويستريحون من عناء السفر، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى مقر إقامة حكم البلاد.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أى أجلسهم فى مكان مجلسه الدائم الذى يصرف منه كل أمور الدولة.

﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ السجود هنا هو شكر للّه؛ لأنه جمع شملهم وهداهم، أو اعتذار ليوسف على ما بدر منهم نحوه ونحو أخيه، أو تعبير عن الفرحة بجمع الشمل بعد هذا العمر الطويل، أو أن هذا كان من شريعتهم، المهم فى هذا كله أنه ليس سجود عبادة.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ﴾ يسترجع يوسف البداية، يوم رأى وهو طفل الشمس والقمر والنجوم تسجد له، فأسرع يقص على أبيه هذه القصة، فقال الأب هذه الرؤيا تدل على أنه سيكون لك شأن عظيم، فلا تقصصها على إخوتك؛ فتمتلىء صدورهم غيظًا منك وقلوبهم حقدًا عليك، وهذه الصدور حاقدة الآن، فما بالك إذا علمت بهذه الرؤيا؟! لأن يعقوب رأى النبوة فيه، وكان يعرف حقد إخوة يوسف عليه، وكيف أن هذا الحقد سيؤدى إلى أحداث كثيرة، وهكذا يعيدنا فى آخر القصة إلى أولها حيث يقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] لأن رؤيا الأنبياء واقع يحدث.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]. يوسف عليه السلام يعدد نعم اللّه عليه، فيقول: إن اللّه سبحانه وتعالى قد نجاه من الجب الذى ألقاه فيه إخوته، وأنقذه من السجن الذى ألقته فيه امرأة العزيز، ثم بعد ذلك مكنه فى الأرض، وجعله عزيز مصر، واللقاء هنا بين يوسف وإخوته كان لقاء صفاء، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾، هذا إحسان يوسف ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهذا إحسان لإخوة يوسف، بعد أن عاشوا فى البدو جاء بهم إلى قصر العزيز.

كلمة ﴿أَحْسَنَ﴾ مرة تتعدى: الإحسان إليك والإحسان لغيرك، ومرة تقتصر على الإحسان لك أو بك. والإحسان هنا متعدد؛ لأنه أحسن إليه بإخراجه من السجن، وأحسن لإخوته بأن جاء بهم من البدو، قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ اعتبرت إحسانًا إلى إخوة يوسف لماذا؟ لأننا نعرف أن البدو قوم رحل، يعيشون

على الانعزالات الأسرية، فلا يضمهم مجتمع ولا يبقون فى مكان واحد بل ينتقلون من مكان إلى آخر؛ بحثًا عن المياه والعشب، بيوتهم على ظهور جمالهم، هم وراء العشب من منطقة إلى أخرى وحياتهم على الفطرة، ليس لهم أى نوع من الحضارة؛ لأن البدو رُحّل باستمرار، إنما الحضر معناها أن يحضر إليك كل شىء وأنت فى المدينة، أى أنه فى البادية أنت تذهب باحثًا عن الخير، أما فى الحضر فالخير يأتيك إلى مكانك، وأنت مستقر فى حياتك ومعيشتك وسكنك وملبسك.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أى أن يعقوب وإخوة يوسف، سيعيشون منذ الآن فى مصر، ذات الحضارة العريقة وسيجدون فيها كل شىء. ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] فكأن الشيطان هو الذى وسوس لإخوة يوسف، وأن الوسوسة كانت نزغًا فقط، وليست استقرارًا على سوء.

ثم يتوجه يوسف إلى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١] ﴿رَبِّ﴾: نداء لخالقه، فالرب هو الخالق، والمربى هو الخالق من عدم والممد من عدم، اللَّه سبحانه وتعالى لاستبقاء الحياة على الأرض أباح التزاوج والتكاثر. إن هذا من صفات الربوبية، وصفات الربوبية يأخذها المؤمن والكافر، فالمؤمن خُلق من عدم وأمد من عدم، والكافر كذلك يأخذ كل متعلقات الربوبية، فالكون كله يخدمه فى الحياة الدنيا: الشمس تشرق عليه والهواء يتنفسه، والمطر ينزل على أرض المؤمن والكافر، والأرض تعطى المؤمن والكافر بالأسباب، واللَّه سبحانه وتعالى هو رب هذا الكون كله، خلقه وأوجده، ولذلك فهو سبحانه متكفل بوسائل حياته، حتى نهايتها. ولكن عطاء الألوهية فى الدنيا والآخرة للمؤمن وحده، فاللَّه لا يكلف كافرًا، ولكنه يقول للمؤمن وحده: افعل هذا ولا تفعل ذاك.

يوسف عليه السلام يقول كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذى أعطى يوسف عليه السلام الملك، ولا يمكن لأحد أن يعطى ملكًا فى الأرض قهرًا عن اللَّه سبحانه، بل حتى الظالم والمفسد لا يصل أحدهما إلى الملك إلا بإرادة اللَّه تبارك وتعالى.

اللَّه جل جلاله أعطى يوسف الملك: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، لأن اللَّه علم يوسف أن يفسر الرؤى، ففسر لمن معه فى السجن، وفسر للمَلِك، واللَّه سبحانه وتعالى حين يُعلم يوسف ذلك فهذه ليست عجيبة؛ لأنه سبحانه فاطر السماوات والأرض، أى أنه خالق كل شىء ويعلم أسرار خلقه.

وقـــولـــه: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ﴿وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أى ناصرى ومعينى؛ لأنه نصره على كل العقبات التى واجهته فى حياته، ولكن هل يوسف عليه السلام يريد الدنيا؟ إنه يريد الآخرة تلك الحياة الباقية التى لا تزول، ولذلك تأتى الدعوة الهامة: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ لأن الدين عند اللَّه الإسلام، فيوسف أخذ عطاءات اللَّه فى الدنيا وأتاه اللَّه الملك. هنا يتساءل العلماء: كيف يتمنى الإنسان الوفاة؟ نقول: إن الإنسان إذا وفق فى دنياه، فهو دائمًا طموح يريد زيادة الخير.

دخل ميمون بن مروان على عمر رضى اللَّه تعالى عنه وهو يسأل ربه الموت، قال له: يا أمير المؤمنين أتسأل اللَّه الموت، وقد صنع اللَّه على يدك خيرًا كثيرًا، فأحييت سننًا وأمت بدعًا وبقاؤك خير للمسلمين؟ قال: ألا أكون كالعبد الصالح يوسف حين أتم اللَّه عليه نعمته، فقال كما جاء فى القرآن: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقول يوسف: ﴿تَوَفَّنِي﴾ اللَّه يتوفى الأنفس جميعًا، فكلنا يتوفانا اللَّه طلبنا أم لم نطلب، ولكن المطلوب أن يتوفى يوسف مسلمًا، أى يعبد اللَّه وحده لا إله إلا هو. ولذلك عندما نزور القبور نقول: السلام عليكم ديار قوم مؤمنين أنتم السابقون، وإنا إن شاء اللَّه بكم للاحقون، لماذا قلت: «إن شاء اللَّه» مع أنك يقينًا ستلحق بهم؟ قلت: إن شاء اللَّه؛ ليتوفاك اللَّه مؤمنًا مثلهم. يوسف عليه السلام يقول: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كيف يقول نبى لربه: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والنبى أعلى درجة من الصالح؟ نقول: إن الصالحين منهم الأنبياء.

ألم يُعلم العبد الصالح موسى نبى اللَّه عليه السلام، أسرار أقدار اللَّه فى الأرض؟ ألم يأت العبد الصالح لسليمان بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه؟ بينما كان سليمان نفسه عاجزًا عن أن يأتى بالعرش. بهذه الطريقة، وكان يحاول الاستعانة بالجن وغيره ،إذن. . إبراهيم وإسحاق ويعقوب والنبيون كلهم من الصالحين.

OpenKanz.com

نبيُّ الله أيوب عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء] ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أى: دعاه؛ لأن النداء بالنسبة للّه دعاء؛ لأن النداء أن تطلب إقبال أحد عليك، لكن نداء اللّه تعالى معناه دعاء؛ لأنه غير نداء البشر؛ لأن نداء البشر كل مراده الإقبال، تقول مثلاً: يا محمد، فيأتيك، لكن فى أى شىء تحتاجه، هذا شىء آخر، لكن أيوب حينما نادى ربه ناداه بمطلوب يريد أن يحققه له، والضر ابتلاء فى جسده بمرض أو غيره، وقالوا: إن الأنبياء لا يمرضون مرضاً ينفر الناس منهم، ومعنى الضر: هو الإيذاء فى الجسد، أما الضرر: فهو أى إيذاء فى أى شىء آخر غير الجسد.

أيوب عليه السلام لما أصابه الضر صبر، ولكن ألم الضر جعله يدعو ربه أن يكشف عنه ضره؛ لأن الإنسان لا يتشجع على اللّه.

وكلمة: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ نحن قلنا: حين ترى جمعاً يدخل اللّه فيه نفسه مع خلقه فى شىء، فاعلم أن له معنى آخر، مثل: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ و ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.. إلخ؛ لأن البشر منهم الراحمون، ولكن رحمة العبد ليست مثل رحمة الخالق، وذلك مثل الفارق بين مايخلقه الخلق، وما يخلقه الخالق.

ربنا سبحانه حين ناداه أيوب استجاب له وكشف عنه الضر، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

فهو كان يشتكى من الضر وقلة الأهل، فلم يكن له عزوة، فلما استجاب اللّه دعوته، أعطى له إجابة دعائه وزاده أشياء لم يطلبها فى دعائه، فكشف عنه الضر وآتاه أهله وزاده مثلهم أيضا، رحمة من عند اللّه فوق ماطلب، وهذا كله رحمة من اللّه وذكرى لكل عابد؛ لأن العابد الذى يخلص عبادته للّه، عليه أن يعلم أنه إذا أصابه مكروه ولجأ إلى اللّه، فإن اللّه يرفع عنه هذا المكروه، ويعطيه نعماً فوق ما طلب.

obeikandl.com

ذو الكفل عليه السلام

قال اللَّه تعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وقال اللَّه تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

فالظاهر فى ذكره فى القرآن العظيم، بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى، عليه من ربه الصلاة والسلام، وهذا هو المشهور.

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًا، وإنما كان رجلا صالحًا، وحكمًا مقسطًا عادلا. وتوقف ابن جرير فى ذلك.. فاللَّه أعلم.

وروى عن مجاهد: أنه لم يكن نبيًا، وإنما كان رجلا صالحًا. وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم، ويقضى بينهم بالعدل، فسمى ذا الكفل.

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق داود بن أبى هند، عن مجاهد أنه قال: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلا على الناس، يعمل عليهم فى حياتى؛ حتى أنظر كيف يعمل. فجمع الناس، فقال: من يتقبل منى بثلاث أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولايغضب. قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا، فقال: أنت تصوم النهار وتقوم الليل، ولا تغضب؟ قال: نعم. قال: فرده ذلك اليوم، وقال مثلها فى اليوم الآخر، فسكت أناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فاستخلفه. قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان، فأعياهم ذلك، فقال: دعونى وإياه، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام الليل ولا النهار إلا تلك النومة، فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم، قال: فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه، فقال: إن بينى وبين قومى خصومة، وإنهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا، وجعل يطوِّل عليه، حتى حضر الرواح وذهبت القائلة. فقال: إذا رحت فإننى آخذ لك بحقك. فانطلق وراح فكان فى مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ، فلم يره، فقام يتبعه. فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس، وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة، فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى؟ قال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد، قالوا: نحن

نعطيك حقك، وإذ أقمت جحدونى. قال: فانطلق فإذا رحت فأتنى. قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره فلا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعنَّ أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام، فإنى قد شق علىَّ النوم. فلما كان تلك الساعة جاء، فقال له الرجل: وراءك وراءك. فقال: قد أتيته أمس وذكرت له أمرى. فقال: لا واللَّه، لقد أمرنا أن لا ندع أحدًا يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت، فتسور منها، فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل. قال: فاستيقظ الرجل، فقال: يا فلان، ألم آمرك؟ قال: أما من قبلى واللَّه فلم تؤت، فانظر من أين أوتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه فى الست فعرفه. فقال: أعدو اللَّه؟ قال: نعم، أعييتنى فى كل شىء، ففعلت كل ما ترى لأغضبك.

فسماه اللَّه ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر فوفى به!

وروى ابن أبى حاتم: عن أبى موسى الأشعرى رضى اللَّه تعالى عنه، وهو على هذا المنبر يقول: ما كان ذو الكفل نبيًا، ولكن كان رجلا صالحا، يصلى كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة ؛ فسمى ذا الكفل.

وروى أحمد: عن ابن عمر قال: سمعت من رسول اللَّه ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلامرة أو مرتين، حتى عد سبع مرات، لم أحدث به، ولكنى قد سمعته أكثر من ذلك، قال: كان الكفل من بنى إسرائيل، لايتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، أرعدت منه وبكت، فقال لها، مايبكيك؟ أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملتنى إليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط! ثم نزل فقال: اذهبى بالدنانير لك. ثم قال: واللَّه لايعصى اللَّهَ الكفلُ أبدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: قد غفر اللَّه للكفل ».

ورواه الترمذى وقال: حسن، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر.

فهو حديث غريب جدًا وفى إسناده نظر، فإن سعدًا هذا قال أبو حاتم: لا أعرفه إلا بحديث واحد. ووثقه ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد اللَّه بن عبد اللَّه الرازى هذا. . فاللَّه أعلم.

وإن كان محفوظًا فليس هو ذا الكفل، وإنما لفظ الحديث: الكفل من غير إضافة ، فهو رجل آخر غير المذكور فى القرآن. . فاللَّه تعالى أعلم.

قصص الأنبياء لابن كثير [٣١٤ - ٣١٧].

❁❁❁

أصحاب الرس

قال اللَّه تعالى فى سورة «الفرقان»: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

وقال تعالى فى سورة «ق»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وهذا السياق والذى قبله، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا، وهو الهلاك.

وهذا يرد اختيار ابن جرير، من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج ؛ لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة، كانوا بعد المسيح عليه السلام. وفيه نظر أيضًا.

وروى ابن جرير قال: قال ابن عباس: أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود.

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر فى أول تاريخه، عند ذكر بناء دمشق، عن تاريخ أبى القاسم عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن جرداد وغيره، أن أصحاب الرس كانوا بحضور، فبعث اللَّه إليهم نبيًا، يقال له حنظلة بن صفوان، فكذبوه وقتلوه، فصال عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده من الرس، فنزل الأحقاف. وأهلك اللَّه أصحاب الرس، وانتشروا فى اليمن كلها، وفشوا مع ذلك فى الأرض كلها، حتى نزل جبرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق، وبنى مدينتها، وسماها جبرون، وهى إرم ذات العماد، وليس أعمدة الحجارة فى موضع أكبر منها بدمشق، فبعث اللَّه هود بن عبد اللَّه بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد، إلى عاد «يعنى أولاد عاد» بالأحقاف، فكذبوه فأهلكهم اللَّه عز وجل.

فهذا يقتضى أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة، فاللَّه أعلم.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الرس بئر بأذربيجان. وقال الثورى عن أبى بكر عن عكرمة قال: الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أى دفنوه فيها.

قال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة.

قلت: فإن كانوا أصحاب «يس» كما زعمه عكرمة، فقد أهلكوا بعامة، قال اللَّه تعالى فى قصتهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ وستأتى قصتهم بعد هؤلاء. وإن كانوا غيرهم، وهو الظاهر، فقد أهلكوا أيضًا وتبروا، وعلى كل تقدير فينافى ما ذكره ابن جرير.

وقد ذكره أبو بكر محمد بن الحسن النقاش: أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم، وتكفى أرضهم جميعًا، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجدًا عظيمًا، فلما كان بعد أيام، تصور لهم الشيطان فى صورته، وقال: إنى لم أمت، ولكن تغيبت عنكم ؛ حتى أرى صنيعكم، ففرحوا أشد الفرح، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموت أبدًا، فصدق به أكثرهم، وافتتنوا به وعبدوه؛ فبعث اللَّه فيهم نبيًا، فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة اللَّه وحده لا شريك له.

قال السهيلى: وكان يوحى إليه فى النوم، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه فى البئر، فغار ماؤها وعطشوا بعد رِيهم، ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن فى مساكنهم الجن والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن، وزئير الأسود، وصوت الضباع.

فأما ما رواه أعنى ابن جرير، عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود» وذلك أن اللَّه تعالى بعث نبيًا إلى أهل القرية، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبى، فحفروا له بئرًا فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم، قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتى بحطبه فيبيعه، ويشترى به طعامًا وشرابًا، ثم يأتى بها إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، ويعينه اللَّه عليها، ويدلى إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت، قال: فكان كذلك ما شاء اللَّه أن يكون. ثم إنه ذهب يومًا يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته، وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها، وجد سنة فاضطجع فنام، فضرب اللَّه على أذنه سبع سنين نائمًا. ثم إنه ذهب فتمطّى، فتحول لشقه الآخر، فاضطجع فضرب اللَّه على أذنه سبع سنين أخرى. ثم إنه هب واحتمل حزمته، ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار، فجاء إلى قرية فباع حزمته، ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع، ثم إنه ذهب إلى الحفرة، إلى موضعها الذى كانت فيه، يلتمسه فلم يجده ، وقد كان بدا لقومه فيه بداء، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه. قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل، فيقولون له: ما ندرى، حتى قبض اللَّه النبى عليه السلام، وهبّ الأسود من نومته بعد ذلك، فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة».

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر. ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظى. والله أعلم.

ثم قد رده ابن جرير نفسه، قال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون فى القرآن، قال: لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم. اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث، آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم. والله أعلم. ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود، وهو ضعيف، لما تقدم، ولما ذكر فى قصة أصحاب الأخدود، حيث توعدوا بالعذاب فى الآخرة إن لم يتوبوا، ولم يذكر هلاكهم، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس. والله تعالى أعلم.

قصص الأنبياء لابن كثير [٣١٨ - ٣٢١].

❁❁❁

أصحاب القرية «قوم يس»

وهم أصحاب القرية أصحاب «يس» قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس].

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية «أنطاكية»، رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه، وكذا روى عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهرى وغيرهم. قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب، أنهم قالوا: وكان لهم ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس

وكان يعبد الأصنام. فبعث اللَّه إليه ثلاثة من الرسل وهم: صادق ومصدوق وشلوم، فكذبهم.

وهذا ظاهر أنهم رسل من اللَّه عز وجل، وزعم قتادة أنهم كانوا رسلا من المسيح. وكذا قال ابن جرير، عن وهب، عن ابن سليمان، عن شعيب الجبائى: كان اسم المرسلين الأولين: شمعون، ويوحنًا، واسم الثالث بولس، والقرية أنطاكية.

وهذا القول ضعيف جدًا ؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح فى ذلك الوقت، والقدس، والإسكندرية، ورومية، ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا. وأهل هذا القرية المذكورة فى القرآن أهلكوا، كما قال فى آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون فى القرآن، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا، فكذبوهم وأهلكهم اللَّه، ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان فى زمن المسيح آمنوا برسله إليهم، فلا يمنع هذا. واللَّه أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة فى القرآن، هى قصة أصحاب المسيح ؛ فضعيف لما تقدم، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند اللَّه.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ يعنى لقومك يا محمد ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعنى المدينة ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أى أيدناهما بثالث فى الرسالة ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم. كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم، يستبعدون أن يبعث اللَّه نبيًا بشريًا. فأجابوا بأن اللَّه يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا، وانتقم منا أشد الانتقام. ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، واللَّه تعالى هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أى تشاءمنا بما جئتمونا به. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قيل: بالمقال، وقيل: بالفعال، ويؤيد الأول قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة.

﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أى مردود عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أى بسبب أنا ذكرناكم بالهدى، ودعوناكم إليه، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أى لا تقبلون الحق ولا تريدونه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يعنى لنصرة الرسل، وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أى

يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئًا، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أى إن تركت عبادة اللّه، وعبدت ما سواه.

ثم قال مخاطبًا للرسل: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ قيل: فاستمعوا مقالتى، واشهدوا لى بها عند ربكم، وقيل معناه: فاسمعوا يا قومى إيمانى برسل اللّه جهرة. فعند ذلك قتلوه، قيل رجمًا، وقيل عضًا، وقيل وَثَبُوا إليه وَثْبَةَ رجل واحد فقتلوه.

وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال: وطئوا بأرجلهم، حتى أخرجوا قصبته.

وقد روى الثورى عن عاصم الأحول، عن أبى مجلز: كان اسم هذا الرجل حبيب بن مرى، ثم قيل: كان نجارا، وقيل: حياكا، وقيل: إسكافا، وقيل: قصَّارًا، وقيل: كان يتعبد فى غار هناك.. فاللّه أعلم.

وعن ابن عباس: كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة فقتله قومه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعنى لما قتله قومه أدخله اللّه الجنة، فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ يعنى ليؤمنوا بما آمنت به، فيحصل لهم ما حصل لى.

قال ابن عباس: نصح قومه فى حياته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته فى قوله: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ رواه ابن أبى حاتم. وكذلك قال قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحا، لا يلقى غاشًا؛ لما عاين ما عاين من كرامة اللّه: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى واللّه أن يعلم قومه بما عاين من كرامة اللّه وما هو عليه!

قال قتادة: فلا واللّه ما عاتب اللّه قومه بعد قتله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أى: وما احتجنا فى الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم.

هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود. قال مجاهد وقتادة: وما أنزل عليهم جندا، أى رسالة أخرى. قال ابن جرير: والأول أولى.

قلت: وأقوى؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أى وما كنا نحتاج فى الانتقام

إلى هذا، حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

قال المفسرون: بعث اللَّه إليه جبريل عليه السلام، فأخذ بعضادتى الباب الذى لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون، أى قد أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف.

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل اللَّه إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا. واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم. فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح.

فأما الحديث الذى رواه الطبرانى من حديث حسين الأشقر، عن سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى: يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى: صاحب يس، والسابق إلى محمد: على بن أبى طالب». فإنه حديث لا يثبت ؛ لأن حسينًا هذا متروك، شيعى من الغلاة، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية. واللَّه أعلم.

قصص الأنبياء لابن كثير [٣٢٢ - ٣٢٦].

openkandl.com

نبيُّ اللَّه يونس عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـْۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء] هذه قصة نبى الله يونس بن متى، وكان فى بلد تسمى «نينوى»، وهى فى الموصل فى العراق، والتى ذكرها عداس خادم بستان الطائف، عندما ذهب رسول اللَّه ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة، فحرَّض أهل الطائف عليه غلمانهم وسفهاءهم، فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، فدخل إلى بستان، فرآه خادم البستان واسمه «عداس»؛ وأتى له بقطف عنب ليأكله ثم تكلم معه، فأخبره عداس أنه من نينوى»، قال له رسول اللَّه ﷺ: «قرية العبد الصالح»، قال عداس: وما أدراك بالعبد الصالح؟ فقال رسول اللَّه ﷺ «إنه نبى وأنا نبى[1]».

والنون هو الحوت، وجمعه نينان مثلما تجمع حوت على حيتان، فهى مثلها وزنًا ومعنى، فكلمة ذا النون أى صاحب الحوت؛ لأن له مع الحوت قصة، كما أن النون اسم من أسماء حروف المعجم؛ ولكن أحياناً حرف المعجم يوافق اسماً له معنى، مثل الحرف «قاف» فيوجد جبل يسمى باسمه جبل «قاف»، وحرف العين تسمى عليه عين الماء، والعين المبصرة، وحرف السين يسمى على نهر «السين»، إذن قد يصادف اسم الحرف اسم شىء آخر.

ومادة الغضب إن أخذت منها المفرد، تقول: فلان غاضب، ولكن كلمة مغاضب تدل على أن أحداً يشاركه الغضب، مثل الفعل شارك ومشارك، فتقول شارك زيد عمرا، فكل واحد منهما يكون فاعلاً مرة ومفعولاً مرة، بعبارة أخرى: هناك غاضب ومغاضب، الغاضب يكون غضبان من نفسه، ولم يغضبه أحد، وإنما مغاضب يعنى الناس أغضبوه، مثل هاجر أى ترك المكان من نفسه، ومهاجر أجبره أهل المكان على المهاجرة، والمغاضبة من جهتين التى يسمونها المفاعلة، فعندما تقول: قاتل زيدٌ

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة [٢/ ٣٤-٣٥].

عمرًا، معناه أن عمرًا قاتل زيدًا أيضًا، أى هناك مشاركة فى القتال من الطرفين.

ولكن لماذا غضب يونس بن متى؟ قالوا: لأن قومه كذبوه، وحذرهم من أن تكذيبهم لمنهج اللَّه، سيجلب لهم المتاعب، وينزل عليهم غضب اللَّه وعقابه، ولكنهم عصوا وتمردوا، وتأخر عنهم عذاب اللَّه، فلما تأخر العذاب عنهم، خاف أن يكذبوه، فترك قومه ومشى، ولم يكن يعلم أن القوم قد تابوا، فأجَّل اللَّه عنهم العقاب، ولكن يونس لم يعلم بهذه التوبة، فغضب لتأخر العذاب عنهم؛ لأنه خشى أن يشكوا فى دعوته ويكذبوه، فتركهم مغاضبًا. ورسول اللَّه ﷺ ترك مكة مهاجرًا؛ لأن قومه هم الذين ألجئوه إلى الهجرة، ولذلك قال ﷺ وهو يغادر مكة: «واللَّه إنك لخير أرض الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت[(١)]».

ذا النون خرج مغاضبًا: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] والظن: ترجيح أى أنه اعتقد أن اللَّه سبحانه وتعالى لن يضيق عليه، فأرض اللَّه واسعة، وظن أنه سيجد مكانًا آخر، يكون أهله أكثر قبولاً للدعوة وأقل عداوة له، ولكنه مرسل إلى هؤلاء، وكان لابد أن يتحمل الأذى منهم، ولكن معارضة دعوته كانت شديدة، والتعنت كان شديداً من أهل هذه القرية نينوى.

بعض الناس يقولون: كيف يظن يونس، وهو نبى أن اللَّه لن يقدر عليه!! وهذا جهل باستعمالات اللغة؛ لأنه لا يمكن أن يطرأ على ذهن عاقل، أن اللَّه لا يقدر على شىء؛ لأنه سبحانه على كل شىء قدير، إذن.. معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أى ظن أن اللَّه لن يُضيق عليه ويتعبه، بل سيبعثه إلى قوم أكثر طاعة واستجابة من قومه الذين تركهم، فيسعد بطاعتهم واستجابتهم له، بدليل أنه نادى فى الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهذا القول منه دليل على أنه يريد من اللَّه أن ينفس عنه كربته، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له، إذن ﴿لَّن نَّقْدِرَ﴾ أى: لن نضيق عليه، ونرسله إلى قوم أفضل من قومه طاعة واستجابة.

❁❁❁

رحمة اللَّه ليونس عليه السلام

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ

(١) رواه الترمذى [٣٩٢٥] وصححه الألبانى [٣٠٨٢] عن عبد الله بن عدى بن حمراء رضى الله عنه.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات] ونحن نعرف قصة يونس عليه السلام مع الحوت، وكيف نجاه اللَّه من الإبتلاء الشديد، هناك شبهة يرددها خصوم الإسلام، وغير الفاهمين، حول قول اللَّه تعالى فى قصة يونس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾. فقالوا: كيف يظل فى بطن الحوت إلى يوم القيامة، مع أنه إن استمر فى بطن الحوت، فإنه سيموت والحوت أيضًا سيموت، عندما يجىء أجله، ولن يستمر أحد منهما إلى يوم يبعثون؟

هذه هى الشبهة، وقد فات هؤلاء أن هناك نظرية اسمها نظرية الاحتواء، مثلما تأتى بكوب وتضع فيه قطعة سكر، وتذيب السكر فى الماء، فتصبح كل جزئية من الماء فيها جزئية من السكر، وهنا نقول إن الماء احتوى السكر؛ لأن الاحتواء يكون للأكثر، إذن فلو أن يونس سيموت، والحوت سيموت فسيتحولان إلى ذرات بعد الموت، تتفاعل مع بعضها، فحجم يونس وذراته أقل من حجم الحوت وذراته، فالحوت هو الذى احتوى يونس إلى أن تقوم الساعة، فى ذراته المنثورة فى الكون، إذن التعبير القرآنى صحيح، ولكن هؤلاء لم يفهموا المقصود منه.

وقول الحق: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أعطى لكل من يقرأ هذه القصة جزءاً من رحمة اللَّه ليونس عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه أن هذه الدعوة، ليست خاصة بيونس فقط، ولكن اللَّه سبحانه ينجى كل من قالها من المؤمنين، فأى مؤمن يقع فى كرب أو يصيبه هم فيقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن اللَّه تعالى يفرج عنه ما هو فيه، فكل من يصيبه غم ثم يتجه إلى اللَّه ويقرأ هذه الآية لابد أن يذهب اللَّه غمه؛ لأنه سبحانه قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى مثل هذا الإنجاء ننجى المؤمنين.

❁❁❁

إيمان قوم يونس نجاهم من العذاب

لما أحس قوم يونس ببداية العذاب، آمنوا وردوا المظالم إلى أصحابها، أنجاهم اللَّه من العذاب، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أى أن اللَّه تبارك وتعالى أنجاهم من الهلاك بعذابه حتى تأتى آجالهم عند نهاية العمر، ولم تقع عليهم عقوبة من السماء، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ

﴿رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] نقول إياك أن تفهم أن الحق سبحانه وتعالى يحتاج إلى عبادة الناس؛ لأن اللَّه له كمال الصفات منذ الأزل، وقبل أن يخلق الخلق، وبكمال صفاته خلق، وبكمال صفاته أوجد.

ويقول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨]. أى أنه لو أن باقى القرى فعلت مثل قوم يونس لنجيناهم، واقرأ قول الحق جل جلاله عن يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات] أى أن يونس كان سيظل فى بطن الحوت إلى يوم القيامة، ولكن ذلك امتنع؛ لأنه من المسبحين، كذلك امتنع عذاب قوم يونس؛ لأنهم آمنوا قبل أن يقع عليهم العذاب.

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] كلمة قرية مأخوذة من مكان فيه بناء يقيم فيه أهله، بحيث إذا أتيناهم فى أى لحظة تجدهم جالسين أو مقيمين، ومادامو مقيمين، فلابد أن فى القرية أو حولها ما يقيم حياة هؤلاء الناس من طعام وشراب وغير ذلك، ولذلك سميت مكة أم القرى؛ لأن كل القرى تأتى إليها فى مواسم الحج والعمرة، فتجد فيها أهلها وتجد فيها الطعام والشراب.

obeikandl.com